Booker Prize nominated author of How to be both



آلي سميث

الخريف

رواية

ترجمة ميلاد فايزة

آلي سميث

الخريف

(فصليّة)

ترجمة: ميلاد فايزة



الخريف

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

الخريف

تأليف: آلي سميث

ترجمة: ميلاد فايزة

تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-335-6


روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae



KALIMAT GROUP • مجموعة كلمات

إلى جيلي بوش-بايلي
أراك الأسبوع القادم.

وإلى سارة مارغريت
هاردي وود (المُعمّرة)

ليأتِ الرّبيع مباشرة بعد موسم الحصاد،
تاركًا بعيدًا مشقّة الشتاء القاسي!
وليام شكسبير

بناء على معدّلات تعرية التّربة، فإنه لم يبق في بريطانيا سوى 100 موسم حصاد.
جريدة الغارديان، 20 يوليو 2016

خضراوين مثل الحشيش نتمدّد في حقول الذرة، تحت ضوء الشمس.
أوسي كلارك

لو قُدّر لي أن أكون سعيدا معك هنا-
فما أقصر الحياة الأكثر طولا.
جون كيتس

فتّتني بلطف.
دبليو آس غراهام


1

تلك كانت أسوأ الأوقات، أسوأ الأوقات. مرّة أخرى، هذا ما يجب أن تعرفه عن الأشياء. إنها تتداعى، كما تفعل عادة وكما ستفعلُ دائما، جُبِلَت طبيعتها على ذلك. ثمة رجلٌ مسنٌّ مسنّ، لفظه البحر على الشاطئ. يبدو مثل كرة قدم مثقوبة ممزّقة الخيوط، مصنوعة من الجِلد، ذاك النّوع الذي تراكَلَهُ الناس منذ مائة سنة. لقد كان البحر هائجا فرفعتِ الريحُ القميصَ عن ظهره. عاريةً مثل اليوم الذي وُلِدتُ فيه، كانت الكلمات التي تتردّد في الرأس الذي يحرّكهُ فوق عنقه، لكنه يوجِعُه حين يحرّكه. حاوِلْ إذن ألّا تحرّكَ الرّأسَ. ما هذا الذي في فمه، حصى؟ إنّها حبّات رَمل، تحتَ لسانه، بِمقدوره أنْ يشعر بها. يستطيع أن يسمع صوتَها وهي تنطحن بين أسنانه حين يحرّك فكّيْهِ، صوتَها وهي تغنّي أغنية الرمل: أنا حبّة صغيرة جدًّا، لكنّي في النهاية عظيمة، أنا أكثرُ ليونةً إذا كنتُ تحتَكَ حين تقع، ألمعُ تحت الشمس، تكوّمُني الريحُ فوق النفايات، ضعْ رسالة في قارورة، إرمِ القارورة في البحرِ، القارورة المصنوعة منّي، أنا أصعبُ الحبوبِ حصادًا

حصادًا

تتلاشى كلمات الأغنية. إنه تعبان.

حبات الرمل التي في فمه وعينيه هي آخر ما تبقى من الحبات في عنق الساعة الرملية.

لقد نَفَذَ حظُّك أخيرا يا دانيال غْلاكْ.

فتح عينًا مُغلقة بمشقّة. لكن.

اعتدل دانيال واقفا على الرمل والصخور

هل هذا هو؟ حقًّا؟ هذا؟ هو الموت؟

ظلّل عينيه بيده. الضوء ساطع جدًّا.

يومٌ مُشمس لكنه بارد.

إنه على ساحل رملي تكسوه الحصى، الريح عاتية دون ريب، الشمس ساطعة، نعم، لكن دونَ حرارة. عارٍ أيضا. لا عجب في أن يشعر بالبرد إذن. ينظر إلى أسفل فيرى أنّ جسده ما يزال الجسد الهرم نفسه، يرى ركبتيه المَعطوبتين.

لقد تخيّل أنّ الموت يُصفّي الإنسان. يزيل الأشياء المتعفّنة والسوس حتى يصبح كل شيء خفيفا مثل غيمة.

يبدو أنّ الذات التي بقيت معك على الشاطئ، في النهاية، هي الذات التي كنتها عندما متّ.

لو علمتُ، يفكر دانيال بينه وبين نفسه، لرحلتُ عندما كنتُ في العشرين من عمري أو الخامسة والعشرين.

الطيّبون فقط.

أو ربّما (يفكر، مغطّيا وجهه بإحدى يديه، إذا رآه أحدهم فلن يستاء جرّاء رؤيته ينظّف أنفه بأصبعه، أو حين يلقي عليها نظرة لمعرفة ما تكون – إنه رمل، جميلة هي التفاصيل والتشكيلة المختلفة من الألوان حتى تلك المتعلّقة بالأكوان المسحوقة، ثم يمسحها عن أصابعه) هذه هي ذاتي مُصفّاة. إذا كان الأمر كذلك فإن الموت لخيبة مؤسفة.

شكرا لدعوتي، يا موت. إِسمح لي من فضلك، يجب أن أعود إلى الحياة، يجب أن أعود إليها.

يقف. الوقوف لا يؤلمُ، ليسَ كثيرًا.

والآن إذنْ.

البيت. أي طريق؟

يستدير نصف دائرة. بحر، خطّ ساحلي، رمل، حصى. حشيش طويل، كثبان. أراض منبسطة وراء الكثبان. تمتدّ أشجار إلى ما وراء الأراضي المنبسطة، خطّ من الأشجار، يمتدّ بشكل دائريّ في الخلف حتى يصل إلى البحر مرّة أخرى.

البحر غريب وهادئ.

أبهره بعد ذلك أنّ عينيهِ اليوم حادّتان بطريقة لم يعتدها.

أعني أني أستطيع أنْ أرى ليس فقط تلك الأشجار، أستطيع أنْ أرى ليس فقط تلك الورقة على تلك الشجرة. أستطيع أنْ أرى السّاق التي تشدّ تلك الورقة إلى تلك الشجرة.

يستطيع أنْ يُركّز على الرأس المليئة بالبُذور في نهاية أيّ نبتة من حشائش تلك الكثبان البعيدة، هناك تمامًا، كما لو كان يستخدمُ عدسة تقريب.

وهل ألقى فقط نظرة إلى أسفل حيث توجد يده؟ لمْ يرَ يده واضحةً فقط، وليس أثرَ احتكاك الرمل على يده فقط، بل عدّة حبات رمل منفصلة واضحة بدقّة إلى درجة أنه يستطيع أن يرى حوافّها، و(يرفع يده إلى جبهته) ليس هناك نظارات؟ حسنًا.

يمسح الرّمل عن فخذيه وذراعيه وصدره ثم يديه. يشاهد طيران حبوب الرمل التي نَفضَها عنه وهي تتحوّل إلى غبار في الهواء. ينحني، يملأ يدَهُ بالرمل. أُنظرْ إليها. إنها كثيرة جدا.

الجوقة:

كَمْ من الأكوان تستطيع أنْ تحمل في يدك.

في يدٍ مليئة بالرمل.

(إعادة)

يفتح أصابعه. يتساقط الرمل على الأرض.

الآن وهو يقف على رجليه بدأ يشعر بالجوع. هل تستطيع أن تكون جائعا وميتا؟ طبعا تستطيع، كل أولئك الأشباح الجوعى يأكلون قلوب الناس وعقولهم. يدور بشكل كامل عائدا ببصره إلى البحر. لم يركب قاربا منذ خمسين سنة، وحتى ذلك فلم يكن في الحقيقة قاربًا، كان حانة رديئة ذات ديكور مستحدث، مكانا للحفلات يطلّ على النهر. يجلس على الرمل والحصى مرة أخرى لكن عظامَ ... تؤلمه، لا يريد أن يستخدم لغة غير لائقة، هناك فتاة على مسافة غير بعيدة منه على الشاطئ، إنها توجعه مثل...، لا يريد أن يكون غير مؤدّب.

فتاة؟

نعم، محاطة بدائرة من الفتيات، وكلّهن يقمن بما يشبه رقصة إغريقية قديمة متموّجة. الفتيات قريبات بعضهن من بعض. إنهن يقتربن.

هذا غير لائق. أنا عارٍ.

ثم ينظر إلى الأسفل بعينيه الجديدتين حيث كان جسده الهرم منذ بُرْهة وهو يعرف أنه ميّت، يجب أنْ يكون ميّتًا، إنه ميّت بالتأكيد، لأنّ جسده يبدو مختلفًا عن آخر مرّة نظر فيها إليه، يبدو أفضل، يبدو بالأحرى جيّدًا مقارنة بالأجساد الأخرى عمومًا. يبدو أليفا جدًّا، تماما مثل جسده لكن حينما كان شابًّا.

هناك فتاة على مقربة منه. فتيات. غَمرةُ ذُعرٌ فاتن عميق وخجل.

اندفع نحو الكثبان ذات الحشائش الطويلة (يستطيع أنْ يجري، يجري حقًّا!)، يضع رأسه عند أجمة العشب ليتأكد من أنّ أحدًا لا يستطيع أنْ يراه، وأنّ أحدًا لن يأتي، يقف وينطلق (مرّة أخرى! دونَ حتّى أنْ يلهث) عبْر الأراضي المنبسطة متّجهًا نحو الغابة.

سيكون هناك شيءٌ أيضا، ربّما، ليغطّي به نفسه. لكن يا لها من سعادة خالصة! لقد نسيَ معنى أنْ يشعر. حتى لو اقتصر الشعور على فكرة الذات عاريةً قُرْب جمال شخص آخر.

هناك أجمةٌ صغيرة من الأشجار. يتسلّل إليها. ممتاز، الأرضية مظلّلة، مَكْسوّة بالأوراق، الأوراق التي تساقطت تحت قدميه (الوسيمة، الشابة) جافّة وصلبة، وهناك على الجزء السفلي من الأغصان أوراق كثيرة ما زالت خضراء لامعة، وأُنظرْ، شعر جسمه أسود داكن مرّة أخرى على ذراعيه، ومن منطقة الصدر نزولا إلى الحوض حيث يصبح كثيفا، آه، ليس الشعر فقط، كل شيء يزداد كثافة وقوة، أُنظرْ.

هذه هي الجنة تماما.

وفوق كل شيء فهو لا يريد أن يضايق أحدًا.

يستطيع أن يصنع فراشا هنا. يستطيع أن يبقى هنا ليحدّد مسارَه. عراءَه[1]. (التّورية، عُملة الفقراء: مسكين جونْ كيتسْ العجوز، حسنا، مسكين نعم، رغم

(1) لعبت الكاتبة في النسخة الإنجليزية على كلمتي: bearings التي تعني الاتجاهات أو المسار وكلمة bare-ings التي تتكون من من كلمة bare ومعناها عارٍ ثم أضافت لها لاحقة ings من أجل الإيقاع. (المترجم)

أنه من غير الممكن وصفه بالعجوز بالضبط. شاعر الخريف، شتاء إيطاليا، قبل أيام من موته وجد نفسه يتلاعب بالكلمات كما لو لم يكن هناك غدٌ. يا له من رجل مسكين. لم يكن في الحقيقة هناك غدٌ.) يستطيع أن يُكوّم هذه الأوراق فوق نفسه لتحميه من البرد، لو كان طبعا هناك شيء اسمه الليل حين تكون ميّتًا، ولو اقتربت تلك الفتاة، أولئك الفتيات، قليلًا، لكوّم كمية كبيرة جدًّا من الأوراق على نفسه حتى لا يشعر بالخزي.

محترم.

لقد نسي أنّ هناك جانب جسديّ في عدم الرغبة في مضايقة الآخرين. تغمره مشاعر حلوة من الاحترام، تشبهُ على نحو مفاجئ تخيّلَ أنّك تشربُ الرحيق. يدخل منقارُ الطائرِ الرنّانِ التويجَ. مشاعر غنية جدا وحلوة. ما الذي يلائم كلمة رحيق كقافية؟ سَيُعِدّ بذلة خضراء من الأوراق لنفسه، ثم. ما إن يفكّر فيها حتى تظهر هنا على يده إبرةٌ ونوعٌ من الخيوط ذات اللون الذهبي على بَكْرة صغيرة، أُنظرْ. إنّه ميّت. لابدّ أنّه ميّت. إنّه لأمر رائع ربّما، بعد كل شيء، أنْ يكون ميّتًا. إنّ الموت مستهان به بشكل كبير في العالم الغربيّ الحديث. من اللازم على شخص ما أن يقول لهم. من اللازم على شخص ما أن يخبرهم. من اللازم أن يتمّ إرسال شخص ما، دفعه، أينما كان. حريق. غريق. نعيق. عميق. أنيق. صديق. بريق. رقيق.

يلتقط ورقة خضراء من على الغصن المتدلّي فوق رأسه. يلتقط أخرى. يضع حافّتيهما معًا. يخيط الورقتين بعضهما إلى بعض بشغُرَزٍ متقنة، ما اسمها، الغُرزة متتابعة؟ أم غُرزة البطانية؟ أُنظر إلى ذلك. إنه يستطيع الخياطة. لم يكن شيئا يستطيع فعله حين كان حيًّا يرزق. الموت. مليء بالمفاجآت. يلتقط كومة من الأوراق. يجلس مطابقا حافات الأوراق حافة بحافة ويخيط. هل يتذكر تلك البطاقة البريدية التي اشتراها من أحد الأكشاك في قلب باريس في الثمانينيات، لفتاة صغيرة في أحد المنتزهات؟ لقد بدت وكأنها ترتدي أوراقا ميتة، صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود يعود تاريخها إلى فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية.

الطفلة من الخلف، مرتدية ملابس من الأوراق، واقفة في المتزه تحدّق أمامها في أوراق مبعثرة وأشجار. لكنها كانت صورة تراجيدية وجذابة في الوقت نفسه. ثمة شيء بخصوص الطفلة والأوراق الميتة، مفارقة فظيعة، كأنها ترتدي الخرق. ثم مرة أخرى، الخرق لم تكن خرقًا. كانت أوراقًا، لقد كانت إذن صورة عن السحر والتحوّل أيضا. لكن ساعتها مرّةً أخرى، مرّةً أخرى، بدت مثل صورة التُقطت بعد فترة قصيرة لطفلة لها وجهٌ يبدو كما لوجه طفلة صغيرة تلعب بين الأوراق أن يبدو، للوهلة الأولى على الأقل، ثم بدت مثل مَن تمّ تجميعهم في معسكرات الاعتقال لإعدامهم (من المؤلم التفكير في هذا)

أو ربّما أيضًا تكون طفلة في مدينة قُصِفت بقنبلة نووية. الأوراق التي تتدلى من عنقها بَدتْ مثل جلد تحوّل إلى خرق، تتدلّى نحو جهة واحدة كأنّ الجلد ليس سوى أوراق.

لقد كانت إذن جذابة بالمعنى الآخر لكلمة جذّاب أيضًا، الصورة، مثل صورة كلمة جذّاب الخاصة بك، الشخص الذي يأتي ليجذبكَ إلى العالم الآخر. ومضة واحدة لعين الكاميرا (لا يستطيع أن يتعرّف على اسم المصوّر الفوتوغرافي) وتلك الطفلة التي ترتدي الأوراق أصبحت كل تلك الأشياء: حزينة، رهيبة، جميلة، مضحكة، مخيفة، داكنة، مضيئة، جذابة، قصة خرافية، قصة فولكلورية، حقيقة. الحقيقة الأكثر من عادية هي أنه قد اشترى تلك البطاقة البريدية (التقطها إدوارذ بوباتْ![2]) عندما زار مدينة الحُبّ مع امرأة أخرى أرادها أيضًا أن تحبّه لكنها لم تفعل، بالطبع لم تفعل، امرأة في الأربعين، رجل في الستين، حسنا، كنْ صادقا، كان أقرب إلى السبعين، وفي كل الحالات فهو لمْ يحبّها أيضا. ليس تماما. إنها مسألة اختلاف عميق متعلّق بالانسجام بين الطرفين وليس لها أي علاقة بالعمر، بما أنه كان في مركز بومبيدو متأثرا جدًّا بالبريّة في لوحة لِدوبيفيه إلى درجة أنه نزع حذاءه وركع أمامها ليظهر احترامه، والمرأة، وكان اسمها صوفي الفلانية، قد أصابها الخجل

(2) إدوار بوبَت (Boubat Édouard) (1923-1999) محترف تصوير فرنسيّ عمل في الصّحافة المصوّرة. م.

وقالت له في التاكسي وهما في طريقهما إلى المطار إنه ما كان يليق به، وهو في هذا العمر، أنْ ينزع حذاءه في رواق للفنون، حتى وإن كان رواقًا حديثًا.

في الحقيقة كل ما يمكن أن يتذكّره بشأنها هو أنه قد أرسلَ لها بطاقة بريديّة تمنّى فيما بعد لو احتفظ بها لنفسه.

كتب على ظهرها، كل الحب من طفل عجوز.

إنه دائم البحث عن تلك الصورة.

لم يعثر عليها أبدًا مرّة أخرى.

لقد رافقهُ دائما شعور بالندم على عدم الاحتفاظ بها.

شعور بالندم وأنت ميّت؟ الماضي وأنت ميّت؟ ألا يمكن أبدًا الهروب من محلّ بيع خردوات النفْسِ؟

يطلّ من أجمة الأشجار على الحافّة بين الأرض والبحر.

حسنا، أينما كان المكان الذي انتهيت إليه، فإنه يمنحني هذا الرّداء الأخضر الفاخر.

يلفّ به نفسه. إنه مناسب، تنبعث منه رائحة ورقيّة وطبيعية. بوسعهِ أن يكون خيّاطا ممتازًا. لقد صنع شيئا، صنع شيئا من نفسه. بمقدور أمّه أن تشعر بالرضا أخيرًا.

آه يا إلهي. هل ثمّة أمٌّ بعد الموت؟

إنه طفل يجمع ثمار الكستناء من الأرض تحت الأشجار. يكسر القشرة الخضراء الفاقعة الشوكية ويستخرِج الثمار البنيّة اللمّاعة من اللبّ الشمعيّ. يملأ قبّعته بها. يأخذها إلى أمّه. هي هنا مع المولود الجديد.

لا تكن غبيًّا يا دانيال. ليس بوسعها أن تأكلَ هذه الثمار. لا أحد يأكلها، ولا حتى الأحصنة، إنها مُرّة بشكل لا يحتمل.

دانيال غلاك، سبع سنوات من العمر، يرتدي ملابس جيّدة. يقول له أهله دائما إنهم محظوظون أنْ يكونوا أهله في عالم لا يملك فيه كثير من الناس سوى القليل، ينظر إلى ثمار الكستناء المُرّة التي ما كان يجب أبدا أن يوسّخ بها قبّعته الجميلة

ويرى أنّ اللون البنيّ اللمّاع عليها قد أصبح باهتًا.

ذكريات مريرة حتى وأنت ميّت.

كم هو مثبط للعزائم.

لا تقلق. إرفع من معنوياتك.

يقف على رجليه. إنه الشخص المحترم ذاته مرة أخرى. يتطلع حوله، يجد صخورا كبيرة واثنتين من العصيّ الطويلة يستعملها ليعلّم بها الباب في أجمة الأشجار كي يعثر عليه إذا عاد مرّة أخرى.

يخرج من الأشجار في ردائه الأخضر اللامع، عبر السّهل عائدًا نحو الشاطئ.

لكن البحر؟ هادئ مثل البحر في الأحلام.

البنت؟ لا علامة تدل عليها. ماذا عن حلقة الراقصات حولها؟ اختفين. لكن هناك جسد لفظه البحر على الشاطئ. يذهب ليستجليَ الأمر. هل هو جسده؟

لا. إنه لشخص ميّت.

بمقابل هذا الشخص الميّت، هناك ميّت آخر. ووراءه ميّت آخر وآخر.

ينظر باتجاه الشاطئ محدّقا في الخطّ الداكن للجثث التي لفظها البحر أثناء المدّ.

بعض الأجساد لأطفال صغار. يقرفِصُ حِذْو رجل منتفخ الأوصال وطفله الصغير، إنه في الحقيقة رضيع، ما زال لابسًا سُترة النجاة، فمه مفتوح، تتسرب منه قطرات من مياه البحر. يتّكئ برأسه، وقد فارقته الحياة، على صدر والده المنتفخ.

ثمة أناس أكثر على الشاطئ البعيد. هؤلاء الناس هم بَشر، مثل أولئك الذين هم على الساحل، لكن أولئك أحياء، إنهم يجلسون تحت مظلّات على البحر يستمتعون بِعطلهم على مبعدة من الأموات.

ثمة موسيقى تأتي من شاشة. أحد الأشخاص يعمل على كمبيوتر. واحد آخر يجلس في الظلّ يقرأ من شاشة صغيرة. واحد آخر يغالبه النعاس تحت المظلّة نفسها بينما يدهن شخص آخر كتفيه وذراعيه بالكريم الواقي من أشعة الشمس. طفل يصيح صيحة مصحوبة بضحكة يجري نحو الماء وخارجه مُراوغًا الأمواج الكبيرة.

ينظر دانيال غلاك من الموت إلى الحياة، ثم من الحياة إلى الموت مرة أخرى.

يخيّم الحزن على العالم.

ما يزال في العالم بالتأكيد.

ينظر إلى أسفل باتّجاه معطفهِ المصنوع من ورق الأشجار، ما يزال أخضر.

يمدّ ذراعه، ما يزال عملا مثل المعجزة. إنّه شاب.

لنْ يدوم الحلمُ.

يُمسك ورقة من زاوية معطفه. يشدها بِقوّة. سيعود بها معه إذا استطاع.

ستكون دليلا على المكان الذي كان فيه.

ماذا يستطيع أن يجلب معه أيضا؟

ما هي كلمات تلك الأغنية مرة أخرى؟

كمْ عالمًا في

حفنةٍ من رمال

إنّه يوم أربعاء، بعد منتصف الصيف بقليل. إليزابيث ديماند-تبلغ اثنتين وثلاثين سنة من العمر، أستاذة محاضرة متعاقدة دون جدول ثابت مع إحدى الجامعات في لندن، تعيش الحلم، تقول أمها، هذا إذا كان الحلم يعني عدم الشعور بالأمان في الوظيفة وتقريبا كل شيء باهظ الثمن أكثر من اللازم وأيضا أنتِ ما تزالين في الشقة المستأجرة نفسها التي قمتِ باستئجارها عندما كنتِ طالبة منذ حوالي عقد من الزمان. ذهبت إلى مكتب البريد في البلدة الأقرب إلى القرية حيث تسكن والدتها، لاستخراج جواز سفر عن طريق خدمة «تثبّتْ وأرسلْ».

يبدو أن هذه الخدمة تجعل الأشياء أسرع. إنها تعني أنه يمكن استخراج جواز السفر في نصف المدة المعتادة، إذا ذهبت ومعك الاستمارة معبّأة وجواز سفرك القديم وصورك الجديدة واستعنت بموظف في مكتب البريد للتثبّت من الوثائق المطلوبة قبل إرسالها إلى مكتب الجوازات.

تعطيها ماكينة التذاكر تذكرة عليها الرقم 233 كي يتسنّى لها تلقّي خدمة من إحدى نوافذ الخِدمة المتاحة. المكان ليس مزدحما، باستثناء طابور العُملاء الغاضبين الذي امتد خارج مدخل خدمة ماكينات الوزن الذاتيّة، التي ليس لها نظام تذاكر. لكن الرقم الذي حصلت عليه متقدّم جدًّا على الأرقام المسجلة على الشاشة –فوق رؤوس العملاء– التي تشير إلى الأرقام التالية (156، 157، 158)، وسيحتاجُ الأمر إلى وقت طويل في كل الحالات حتى يتمكّن الموظّفان الاثنان الوحيدان الجالسانِ خلف منضدة تتكوّن من اثني عشر نافذة خدمةٍ من انهاء معاملة الشّخصين الّذين من المفترض أنّ رقمَيهما هما 154 و155 (إنها هنا منذ عشرين دقيقة وهما لم يتغيرا) لذلك تغادر مكتب البريد، تعبر المنطقة الخضراء ذاهبةً إلى مكتبة الكتب المستعملة على شارع برنار.

عندما تعود بعد عشر دقائق تجد أن الشخصين الوحيدين الجالسين خلف المنضدة ما يزالان يقومان على خدمة العملاء. لكن الشاشة تقول الآن إن الأرقام التي ستتم خدمتها ستكون 284، 285 و286.

تضغط إليزابيت على زرّ الماكينة، وتأخذ تذكرة أخرى (356). تجلس على

الأريكة في منطقة الانتظار ذات الشكل الدائري في منتصف الغرفة. ثمة شيء مكسور داخلها، إذ أنها متى ما تحرّكت يُصدرُ شيءٌ ما صليلًا داخل هيكل الأريكة فيهتزّ الشخص الجالس حذوها مقدارَ سنتيمترين في الهواء. عندئذ يغيّر ذلك الرجل من جلسته فيصدرُ الكرسي صليلًا مرّة أخرى وتترحزحُ إليزابيث مقدارَ سنتيمترين تقريبا إلى أسفل.

تستطيع أن ترى من خلال النوافذ، هناك على الجهة الأخرى من الطريق، البناية الكبيرة للبلدية، التي كانت بناية مكتب بريد البلدة. باتت الآن صفًّا من سلسلة متاجر العلامات التجاريّة المشهورة. عطور. ملابس. مواد تجميل. تنظر في الغرفة حولها. الناس الجالسون على الكراسي ذات الشكل الدائري في منطقة الجلوس هم تقريبًا الناس أنفسهم الذين وجدَتهم عندما وصلَت. تفتح الكتاب الذي في يدها عالمٌ جديدٌ شُجاع (*Brave New World*) الفصل الأول. بناية رمادية عريضة تتكون من أربعة وثلاثين طابقا فقط. كُتب على مدخلها الرئيسي **مفرخة لندن المركزية ومركز التكييف**، وعلى دِرعٍ، شعار حكومة العالم، **مجتمع، هوية، استقرار**. بعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة، عندما قرأت جزءً غير يسير من الكتاب، كان الناس الذين يجلسون حولها هم أنفسهم لم يتغيّروا. ما يزالون يحدّقون في الفضاء. يتحرّكون أحيانا فتُحدِث الكراسي التي يجلسون عليها صليلا. لا أحد يتكلم مع أحد. لا أحد قال لها ولو كلمة واحدة طوال الوقت الذي قضته هناك. الشيء الوحيد الذي تغير هو الطابور الذي يمتد باتجاه ماكينات ميزان الخدمة الذاتية. أحيانا يعبر أحدهم الغرفة ليلقي نظرة على الوِحدة البلاستيكيّة لعرض العملات المعدنية التذكارية. هناك مجموعة تستطيع أن تراها من هنا، تتعلق بعيد ميلاد شكسبير أو تاريخ وفاته. هناك جمجمة على واحدة من العملات المعدنية. لعلها تتعلق بتاريخ وفاته إذن.

تعود إليزابيت إلى الكتاب وقد كان على الصفحة المفتوحة بالصدفة اقتباس من شكسبير. «آه يا أيها العالم الشجاع! لقد كانت ميراندا تختبر إمكانية الجمال، إمكانية تحويل حتى الكابوس إلى شيء جميل ونبيل. آه يا أيها العالم الشجاع!

لقد كان تحدّيًا. وأمرًا». أن ترفع عينيها عن الكتاب فترى العملات المعدنية التذكارية في اللحظة نفسها التي يجمع فيها الكتابُ بينه وبين شكسبير بشكل مناسب، وذلك أمرٌ استثنائيّ حقًّا. عدّلَت من جلستها فتتسبّب دون قصد في انبعاث صوت صليل من كرسيّها. تتململ المرأة الجالسة بمحاذاتها لكنها لا تُبدي أي علامة انزعاج بسبب ما حدثَ أو حتى أنها تهتم أصلا.

إنه لمن الغريب أنْ تجلس على كرسيّ مُشترك غير مشترك.

ليس هناك، رغم ذلك، أيّ أحد تستطيع إليزابيث أن تتبادل معه النظرات حول ذلك الأمر، فما بالك أن تبوح له بالشيء الذي فكّرت فيه حول الكتاب والعملات المعدنية؟

في كل الحالات، إنها واحدة من تلك المصادفات التي يمكن أن تعني شيئا ما على التلفزيون أو في الكتب لكنها لا تعني أي شيء في الحياة الحقيقية. ماذا يمكن أن يضعوا على عملة معدنية للاحتفال بعيد ميلاد شكسبير؟ آه أيها العالم الشجاع. سيكون ذلك أمرا جيدا. ذلك يشبه قليلا ما يمكن أن يبدو، بشكل افتراضي، الشعور بأنّك تولَد. إذا استطاع أي شخص على الإطلاق أن يتذكر ذاك الشّعور.

الرقم الذي على الشاشة هو 334.

مرحبا، تقول إليزابيث للرجل الجالس خلف شباك البريد بعد حوالي دقيقة.

عدد الأيام في السنة، يقول الرجل.

أنا آسفة، تقول إليزابيث.

رقم 365 يقول الرجلُ.

لقد قرأت كتابا كاملا تقريبا أثناء انتظاري هنا هذا الصباح، تقول إليزابيث. أعتقد أنه ربما ستكون فكرة جيدة أن تكون الكتب متوفرة هنا كي يتمكن الناس، الذين يضطرون لانتظار دورهم هنا، من قضاء وقتهم في القراءة، إذا أرادوا ذلك.

هل خطر على بالك قط أن تفتتحي أو تنشئي مكتبة صغيرة؟

في الحقيقة، يقول الرجل، إن أغلب هؤلاء الناس ليسوا هنا بسبب حاجتهم لخدمة البريد على الإطلاق. منذ أن أغلقت المكتبة فإنهم قد أصبحوا يجيئون هنا

للقراءة كلّما أمطرت أو انقلب الطّقس.

تنظر إليزابيث إلى حيث كانت تجلس. احتلّت الكرسيّ الذي كانت تجلس عليه امرأة شابة تُرضع وليدها.

في كل الحالات، شكرا على الاستفسار، وأتمنى أن أكون قد أجبتك إجابة شافية، يقول الرجل.

كان على وشك أن يضغط على الزر القريب منه لينادي على 366 ليجيء إلى النافذة.

لا! تقول إليزابيث.

انفرجت أسارير الرجل عن ابتسامة. يبدو أنه قد كان يمزح؛ ترتفع كتفاه وتنزلان لكن دون صوت. شيء ما يشبه الضحكة، لكنه محاكاة تهكمية للضحك وفي الوقت نفسه يبدو وكأنه يتعرض إلى أزمة ربو. ربما ليس من المسموح لك بأنْ تضحك بصوت عال وراء نافذة مكتب البريد الرئيسي.

لا آتي هنا سوى مرّة واحدة في الأسبوع، تقول إليزابيث. سيكون عليّ أن أعود الأسبوع المقبل إذا كنت قد فعلت ذلك.

ألقى الرجل نظرة سريعة على استمارة «تثبث وأرسلْ» التي أحضرتها معها.

وقد يكون عليك أن تعودي الأسبوع القادم في كل الحالات، يقول. في تسع من عشر حالات تكون ثمة أخطاء في هذه الوثائق.

مضحك جدا، تقول إليزابيث.

لا أمزح، يقول الرجل. لا يمكنك المزح بشأن جوازات السفر.

يقوم الرجل بإفراغِ الظرف من كل الأوراق فوق المساحة المخصّصة له من النافذة.

من اللازم أن أكون واضحًا معك منذ البداية قبل أن أتثبّت من أي ورقة، يقول، إذا قمت الآن بالتثبت من صحة استمارة «تثبت وإرسل» التي قمت بتعبئتها فإن ذلك سيكلفك 9,75 جنيهات. أعني 9,75 جنيهات اليوم. وإذا صادف وأنْ كان ثمة شيء غير صحيح اليوم فإن ذلك سيكلفك 9,75 جنيهات اليوم. وسيكون

عليك أن تدفعي لي ذلك المبلغ في كل الحالات حتى إذا لم يكن من الممكن أن نرسل الاستمارة بسبب أي خطأ كان.

طيب، تقول إليزابيث.

لكن. وبالرغم من ذلك، يقول الرجل. إذا كان ثمة شيء غير صحيح وتدفعين 9,75 جنيهات اليوم، وهو ما يجب عليك فعله، وتقومين بتصحيح الشيء غير الصحيح ثم تأتين بالاستمارة خلال شهر، آخذين في الاعتبار أنك تستطيعين أنْ تَسْتظهري بالإيصال، فإنك ساعتها لن تكوني مطالبة بدفع 9,75 جنيهات مرة أخرى. ومع ذلك. إذا أتيت بالاستمارة بعد شهر أو دون الإيصال. فإنك ستكونين مطالبة بدفع 9,75 جنيهات من أجل خدمة «تثبت وأرسل» أخرى.

فهمت. تقول إليزابيث.

هل أنت متأكدة أنك تريدين المضي قدما في الحصول على خدمة «تثبت وأرسل» اليوم؟ يقول الرجل.

أجل، تقول إليزابيث.

هل تستطيعين التلفظ بكلمة نعم، عوضا عن القيام فقط بذلك الصوت الذي ينمّ عن موافقتك، أرجوك، يقول الرجل.

أجل، قالت إليزابيث. نعم.

مع أنه سيكون لزاما عليك أن تدفعي المبلغ حتى إذا لم تكن خدمة «تثبت وأرسل» موفّقة اليوم؟

بدأت أتمنى ألا تكون العملية موفّقة اليوم، تقول إليزابيث. ثمة بعض الكتب الكلاسيكية التي لم أقرأها بعد.

هل تظنين أنّ الأمر مزحة؟ قال الرجل. هل تريدين أن آتيك باستمارة شكاوى لتملئيها أثناء الانتظار. لكن إذا اخترت أن تفعلي ذلك، فإنه يجب عليّ أن أطلب منك أن تتركي النافذة لأساعد شخصا آخر ولأن استراحة الغداء بعد برهة قليلة فإنك ستخسرين دورك وسيكون لزاما عليك أن تحصلي على تذكرة أخرى من الماكينة ثم تنتظرين دورك من جديد.

ليس لدي أي رغبة على الإطلاق في تقديم شكوى حول أي شيء، قالت إليزابيث.

ينظر الرجل إليها وهي بصدد تعبئة الاستمارة.

هل اسمك العائلي هو ديماند[3] حقًّا؟ يقول.

أجل، تقول إليزابيث. أقصد نعم.

اسم على مسمّى، يقول. كما قد تحقّقنا.

أجل، تقول إليزابيث.

أمزح فقط، يقول الرجل.

ترتفع كتفاه وتنزلانِ.

وهل أنت متأكدة أنك قد قمت بتهجئةِ اسمك المسيحي بالشكل الصحيح. يقول.

نعم، تقول إليزابيث[4].

ليست تلك الطريقة الصحيحة في تهجئته، يقول الرجل. الطريقة الصحيحة لتهجئتهِ هي بحرفِ Z. على حدّ علمي.

اسمي بحرف الـ S، تقول إليزابيث.

طريقة مبتكرة، يقول الرجل.

إنه اسمي، تقول إليزابيث.

الناس من بلدان أخرى يكتبونه بتلك الطريقة، بشكل عام، أليس كذلك؟ يقول الرجل.

يتصفح جواز السفر القديم دون مبالاة.

لكن هذا يشير إلى أنك من المملكة المتحدة، يقول.

أنا، تقول إليزابيث.

التهجئة نفسها هنا، حرف الـ S وكل شيء، يقول.

بشكل مثير للدهشة، تقول إليزابيث.

لا تسخري مني، يقول الرجل.

---

(3) الاسم في الأصل الأنجليزي هو Demand وأحد معاني هذه الكلمة هو المطالبة. م.

(4) يُكتب اسم إليزابيث بطريقتين في اللغة الإنجليزية Elisabeth و Elizabeth. م.

يقوم الآن بالمقارنة بين الصورة في جواز السفر القديم ومجموعة الصور الجديدة التي جاءت بها إليزابيث.

يمكن التعرف عليك فيها، يقول. فقط. (الكتفان.) وذلك هو فقط التغيّر بين اثنتين وعشرين سنة واثتنين وثلاثين سنة. انتظري حتى تَري الاختلاف عندما تعودين إلى هنا من أجل جواز سفر جديد خلال فترة عشر سنوات. (الكتفان.)

يتثبّت من الأرقام التي دوّنتها على الاستمارة بالمقارنة مع تلك الموجودة في جواز السفر القديم.

ستسافرين؟ يقول.

ربما، تقول إليزابيث. فقط في حالة ما إذا...

تفكرين في السّفر إلى أين؟ يقول.

أمكنة كثيرة، أتوقّع، تقول إليزابيث. مَن يعرف؟ العالم. أفتحه بسيفي مثل محارة.

عندي حساسية قوية، يقول الرجل. لا تَنبسي بتلك الكلمة. إذا مِتّ هذا المساء فإني أعرف ما سأقول لهم عمّن يجب أن يقع اللوم عليه.

الكتفان. أعلى، أسفل.

بعد ذلك يضع الصور الجديدة على الطاولة أمامه. يرسم نظرة عدم الرضا على وجهه. يهزّ رأسه.

ماذا؟ تقول إليزابيث.

لا، أظن أن كل شيء على ما يرام. الشَعر. من اللازم أن يكون بعيدا كليًّا عن عينيك.

إنه بعيد كليًّا عن عينيّ، تقول إليزابيث. إنه بعيد كل البعد عن عينيّ.

لا يمكن أيضا أن يكون قريبا من أي جزء من وجهك أيضا، يقول الرجل.

إنه على رأسي، تقول إليزابيث. هناك حيث ينمو. ووجهي ملتصق برأسي.

نكتة، يقول الرجل. لن تغيّر مثقال ذرة في هذه الشروط، وهي يعني أنك تستطيعين، في النهاية، استصدار جواز سفر وهو ما تحتاجين قبل أن يُسمح لك

بالذهاب إلى أي مكان ليس على هذه الجزيرة المملكة. بكلمات أخرى. لن يأخذك. إلى أي مكان.

صحيح، تقول إليزابيث. شكرًا.

أظن أنه لا بأس في ذلك، يقول الرجل.

جيّد، تقول إليزابيث.

انتظري، يقول الرجل. انتظري دقيقة. فقط ....

ينتصب واقفًا عن كرسيه ثم يحني رأسه وراء الستار الفاصل بين العملاء والموظفين. يقف حاملا صندوقا من الكرتون. داخله عدّة مقصّات، ومماحٍ، ودباسة، ومشابك أوراقٍ وشريط قياس ملفوف. يأخذ شريط القياس بيديه ويفتح السنتيمتر الأوّل منه. يضع الشريط على إحدى صور إليزابيث.

نعم، يقول.

نعم؟ تقول إليزابيث.

لقد ظننت ذلك، يقول. 24 ملّيمتر. كما ظننت.

جيّد. تقول إليزابيث.

ليس جيّدًا، يقول الرجل. أخشى ألا يكون جيدا على الإطلاق. مقاس وجهك غير صحيح.

كيف يكون مقاس وجهي غير صحيح؟ تقول إليزابيث.

لم تتبعي التعليمات المتعلقة بملء إطار الوجه، هذا إذا كان كشك التصوير الذي أخذت فيه الصور مجهّزًا أصلا بتعليمات جوازات السفر، يقول الرجل.

طبعا، من الممكن أن يكون الكشك الذي أخذت فيه الصور غير مجهّز بتعليمات جوازات السفر. لكني أخشى أنّ هذا لا يساعد في هذه الحالة أيضا.

ما هو المقاس الذي يجب أن يكون عليه وجهي؟ تقول إليزابيث.

المقاس الصحيح للوجه في الصور التي تمّ تقديمها، يقول الرجل، بين 29 ملّيمتر و34 ملّميتر. مقاس صورتك أقل بـ5 مليمترات.

لماذا يجب أن يكون وجهي على مقاس معيّن؟ تقول إليزابيث.

لأن هذه هي الشروط. يقول الرجل.

هل هي من أجل تقنية التعرّف على الوجه؟ تقول إليزابيث.

ينظر الرجل إلى وجهها مباشرة لأوّل مرة.

من الواضح أني لن أستطيع قبول الاستمارة دون الشروط الصحيحة، يقول.

يأخذ قطعة من الورق من كومة أوراق على يمينه.

من اللازم أن تذهبي إلى محل «سْنابي سْنابس» للتصوير، يقول وهو يقوم بختم دائرة صغيرة على قطعة الورق بختم معدني. سيتكفّلون بالأمر هناك بالشكل الصحيح كما تنصّ التعليمات. إلى أين تخططين أن تسافري؟

حسنا، ليس إلى أي مكان، حتى أحصل على جواز السفر الجديد، تقول إليزابيث.

يشير إلى الدائرة غير المختومة المحاذية للدائرة المختومة.

إذا عدتِ بها خلال شهر من تاريخ اليوم، وطالما أن كل شيء سيكون صحيحا، فلن تكوني مطالبة بدفع 9,75 جنيهات من أجل خدمة «تثبت وأرسل» أخرى، يقول. إلى أين قلت إنك تفكرين في السفر، مرة أخرى؟

لم أفعل، تقول إليزابيث.

أرجو ألا تسيئي فهمي إذا كتبت في هذا المربع أنك خاطئة في منطقة الرأس على الصورة، يقول الرجل.

كتفاه لا يتحركان. يكتب في مربع بجانب كلمة آخر: **مقاس الرّأس غير صحيح.**

لو كانت هذه دراما على التلفزيون، تقول إليزابيث، لعرفت ما يمكن أن يحدث.

إنها قُمامة بشكل عام، التلفزيون، يقول الرجل. أفضّل أفلام الدي في دي.

ما أقوله هو، تقول إليزابيث، أنك ستقضي نحبك في اللقطة القادمة بسبب تسمّم ناتج عن أكل المحار وسيتم إيقافي وتحميلي مسؤولية شيء لمْ أقمْ بِهِ.

قوّة الإيحاء، يقول الرجل.

إيحاء القوة، تقول إليزابيث.

آه، ذكية جدًّا، يقول الرجل.

وأيضا، فكرة أنّ مقاس رأسي غير صحيح في الصورة يعني أني قد قمت أو سأقوم

بشيء خاطئ فعلا وغير قانونيّ، تقول إليزابيث. ولأني سألتك عن تقنية التعرّف على الوجه، ولأنّه صادف أني أعرف أنها موجودة وسألتك ما إذا كان العاملون في مصلحة الجوازات يستخدمونها، فإن ذلك يَضعني في دائرة الاتهام أيضا. وهناك تصوّرٌ أيضا، في قراءتك الخاصة لقصتنا إلى حد الآن، مفاده أني قد أكون غريبة الأطوار لأن هناك حرف الـ s في اسمي عوضا عن حرف الـ z.

أنا آسف؟ يقول الرجل.

مثل تخيّل طفل صغير يقود دراجته أمامك في دراما أو فيلم، تقول إليزابيث، مثلما يحدث وأنت تشاهد فيلما أو دراما وهناك طفل صغير يقود دراجة وترى الطفل يبتعد، يبتعد أكثر، وخاصة إذا شاهدت هذا من خلال عدسة كاميرا مثبّتة خلف ذلك الطفل، حسنا، من المؤكد أنّ شيئا فظيعا على وشك الحدوث لذلك الطفل، من المؤكد أنها ستكون المرة الأخيرة التي سترى فيها ذلك الطفل، ذلك الطفل ما يزال بريئا، في كل الحالات. لن يعود بإمكانك أن تكون فقط طفلا وتقود دراجتك بعيدا لأنك تريد أن تذهب إلى الدكاكين. أو إذا كان هناك رجل سعيد أو امرأة سعيدة يقود \ تقود سيارة، فقط يقود \ تقود سيارة دون سبب واضح، يستمتع \ تستمتع بالنزهة، لا شيء آخر يحدث. وخاصة إذا تم تحرير هذه القصة ليصبح هناك شخص آخر ينتظر ذلك الشخص ليعود إلى البيت. ثم هو أو هي ربما بالتأكيد على وشك الاصطدام بشيء أو الموت. أو، إذا كانت امرأة، على وشك أن تتعرض إلى عملية اختطاف وجريمة اغتصاب وقتل بشعة، أو الاختفاء. ربما بالتأكيد هو أو هي بطريقة أو بأخرى يقود سيارته \ تقود سيارتها إلى مصير مشؤوم.

يلفُّ الرجل إيصال خدمة «تثبث وأرسلْ» ويضعه في الظرف الذي أعطته له إليزابيث مع الاستمارة، جواز السفر القديم والصور غير المناسبة. يسلّمه لها من وراء النافذة. ترى كآبة رهيبة في عينيه. يرى أنها تراها. يتشدّد أكثر. يفتح الدرج، يستخرج منه ورقة مغلّفة بالبلاستيك ويضعها أمام النافذة.

النافذة مغلقة.

هذه ليست قصة خيالية، يقول الرجل. هذا هو مكتب البريد.

تراقبه إليزابيث يخرج من الباب الدوّار في الخلف.

تجد طريقها بصعوبة من خلال طابور الخدمة الذاتية وتخرج من مكتب البريد غير الخيالي.

تقطع المنطقة الخضراء إلى محطّة الحافلات.

ستذهب إلى مصحّة مالتينغز.بي.آل.سي لترى دانيال.

ما يزال دانيال هنا.

كان نائما في المرات الثلاث الأخيرة التي زارته فيها إليزابيث. سيكون نائما هذه المرة أيضا، عندما تصل هناك. ستجلس على الكرسي بجانب السرير وتُخرج الكتاب من حقيبتها.

كتاب «العالم القديم الشجاع»

سيكون دانيال غارقا في نوم عميق حتى أنه سيبدو وكأنه لن يستفيق أبدا.

مرحبا يا سيد غلاك، ستقول إذا استيقظ. آسفة على التأخّر. كنت أقوم بقياس وجهي وقد تمّ رفضي بسبب تقديم المواصفات الخاطئة.

لكن ليس ثمة جدوى من التفكير في هذا. لن يصحو. إذا كان سيصحو، فإن أول شيء سيفعله هو أن يخبرها عن بعض الوقائع من أيّ منطقة مثمرة في دماغه كان قابعًا فيها.

آه إنه طابور طويل منهم، قد يقول دانيال، كل الطريق الصاعد إلى الجبل. صفّ من المشرّدين من السفح إلى قمة أحد جبال ساكرامنتو.

يبدو جدّيًا، ستقول ربما.

لقد كان الأمر جدّيًا، كان سيقول. لا شيء هزليا غير جديٍّ. وقد كان أعظم كوميديّ في العالم أجمع. لقد انتدبهم، المئات والمئات منهم، وقد كانوا حقيقيين، الشيء الحقيقي، مشرّدين حقيقيّين لفيلمه نجم مشرد. مُنعزلون حقيقيّون، رجال مشرّدون وضائعون حقيقيّون. أراد أن يكون الأمر مثل ساعة الذروة. قال البوليس المحلي إن المشردين لا يفترض بهم أن يحصلوا على أجور من المنتِج حتى يتم اعتقالهم وإعادتهم إلى مدينة ساكرامنتو. لم يريدوهم أن ينتشروا في كل الإقليم. وعندما كان صبيًّا ـ الصبي الذي انتهى ليصبح أحد أغنى الناس، أشهر رجل في العالم ـ عندما كان صبيًّا في ملجأ الأطفال، بيت الأيتام، عندما أُخِذَت أمه إلى المصحة النفسية، تمّ تسليمه كيس حلويات وبرتقالة في فترة عيد الميلاد، وقد تسلمّ كل الأطفال في المكان الشيء نفسه. لكن الفارق، هنا هو الفارق. لقد جعل من ذلك الكيس من الحلوى الذي استلمه في شهر ديسمبر يدوم حتى شهر أكتوبر.

كان سيهزّ رأسه.

عبقريّ، كان سيقول.

ثم يحدّق في إليزابيث بعينين شبه مغمضتين.

آه مرحبا، كان سيقول.

سينظر إلى الكتاب في يديها.

ماذا تقرئين؟ سيقول.

سترفع إليزابيث الكتاب.

كتاب «عالمٌ جديدٌ شُجاع»، ستقول.

آه، ذلك الشيء القديم، سيقول.

إنه جديد بالنسبة لي، ستقول.

لحظة الحوار تلك؟ متخيّلة.

يدخل دانيال الآن في فترة نوم عميقة أطول. أي ممرّض مساعد يحالفه الحظ ليكون في الخدمة فإنه يحرص دائما على أنْ يُفسّر، عندما تجلس إليزابيث معهُ، أنّ ازدياد طول فترة النوم تحدث عندما يقترب الناس من الموت.

إنه جميل.

إنه ضئيل جدا في فراشه. يبدو وكأنّه رأسٌ فقط. إنه صغير وواهن الآن، ضعيف مثل هيكل عظمي لسمكة كرتونية تركها قط كرتوني. تحوّل جسمه إلى لا شيء تقريبًا تحت الأغطية إلى درجة أنه بالكاد يترك فيها أي أثر، فقط رأس وحيدة على الوسادة، رأس بكهف داخلها، والكهف هو فمه.

عيناه مغلقتان ومبلّلتان. ثمة وقت طويل بين كل نفس يدخل ونفس يخرج منه. في ذلك الوقت الطويل ليس ثمة أي تنفّس على الإطلاق، لذلك مع كلّ مرّة يُخرج فيها الهواء من صدره يتجدّد احتمال أنه لن يتنفّس مرّة أخرى، لا يبدو ممكنًا أن لا يتنفّس شخص وقتًا طويلًا جدًّا، ومع ذلك ما يزال يتنفّس وعلى قيد الحياة.

لقد تقدّم به العمر دون أن تبدو عليه ملامح الشيخوخة، عاش بشكل جّيد، يقول الممرّضون المساعدون.

لقد عاش حياته، يقول الممرّضون المساعدون، وكأنهم يريدون أن يقولوا، لن يعيش كثيرا بعد اليوم.

حقًّا؟

لا يعرفون دانيال.

هل أنت أقرب أقربائه؟ لأننا كنا نحاول أن نتّصل بأقرب شخص للسّيد غلاك لكن دون جدوى، قالت موظفة الاستقبال عندما جاءت إليزابيث أوّل مرّة. كذبت إليزابيث دون تردّد. أعطتهم رقم هاتفها المحمول، رقم هاتف بيت أمها وعنوان البيت أيضًا.

سنحتاج إلى وثائق أكثر لإثبات الهوية، قالت موظفة الاستقبال.

أخرجت إليزابيث جواز سفرها.

أخشى أن أقول لك إن جواز السفر هذا قد انتهت مُدة صلاحيّته، قالت موظفة الاستقبال.

نعم، لكن منذ شهر فقط. أعمل على تجديده. من الواضح والجليّ أنّ التي في الصورة هي أنا، قالت إليزابيث.

بدأت موظفة الاستقبال خطابا حول ما هو مسموح به وما ليس مسموحا به. وعندئذ حصل شيء عند الباب الأمامي، انحشرت عجلة كرسي متحرّك في أُخْدودٍ بين المنحدر وحافة الباب، فذهبت موظفة الاستقبال لتبحث عن شخص يساعد في تخليص الكرسي المتحرّك. جاء أحد المساعدين من الباب الخلفي. هذا المساعد، وقد رأى إليزابيث وهي تضع جواز سفرها في حقيبتها، اعتقد أنه قد تم التثبت من جواز السفر وقام بطباعة بطاقة زيارة لإليزابيث.

الآن، عندما ترى إليزابيث الرجل صاحب الكرسي المتحرّك الذي انحشرت عجلته في مدخل الباب الأمامي، تبتسم له. يبادلها النظرات وكأنه لا يعرف مَنْ تكون. حسنًا، ذاك صحيح. إنه لا يعرف.

تأتي بكرسيّ من الرواق إلى الغرفة وتضعه بجانب السرير.

ثم، في حالة ما إذا فتح دانيال عينيه (لا يحب لفت الانتباه)، تُخرج أي كتاب جاءت به معها.

واضعةً الكتاب بين يديها، كتاب «عالم جديد شجاع»، تنظر إلى أعلى رأسه. تنظر إلى البقع الداكنة من الجلد تحت ما تبقّى من شعره.

دانيال، ساكن مثل الموت في السرير. لكنه ما زال حيّا. إنه ما يزال هنا.

إليزابيث، في حيرة من أمرها، تُخرج هاتفها المحمول. تكتب كلمة «ساكن \ ما زال[5]» على الهاتف، فقط لترى ما الذي سيظهر لها على الشاشة.

قدّم لها الانترنت فورًا سلسلة من الجمَل، عارضةً كيفية استخدام الكلمة.

كم **ساكنًا** كان كل شيء!

---

5 كلمة still بالإنجليزية هي كلمة ذات معاني كثيرة تختلف حسب السياق. م.

ما تزال تمسك يد جوناثان.

عندما استداروا، كان ألاكسُ **ما يزال** على صهوة الحصان.

رغم ذلك، **ما تزال** أنيقة.

وقف الحشد في **سكون** وانتظر.

ثم جرّبَ بسماتيك، **وما يزال**، خُطّة أخرى.

لكن عندما **لَزِمَ** الصّمت دون إجابة، واصلَت.

كان الناس الذين عرفوا الأخوين رايتْ **ما زالوا** أحياء.

آه نعم، أورفيلُ وويلُ، الأخوانِ الطيّاران اللّذان بدآ كل شيء، دانيال، يتمدّد هناك دون حركة، تقول دونَ أنْ تقول شيئًا. الصبيّان اللّذان وَهَبا لنا العالم في يوم، والحرب الجوية، وكل طابور أمن يشعر بالملل والضجر في العالم. لكني سأراهنك رهانا (يقول \ لا يقول) أنه ليس عندهم هذه الكلمة على تلك القائمة التي تشكل جزءً من مصنع التقطير.[6]

تُحرّك إليزابيث الفأرة إلى أسفل لتتثبّت.

وتلك العبارة «تحرّك الفأرة إلى أسفل،» يقول دانيال دون أن يقول، تجعلني أفكّر في كلّ اللفافاتالتي ما زالت ملفوفة وغير مقروءة منذ ألفي سنة، ما زالت تنتظر أن تفتح في المكتبة التي لم يتم التنقيب عنها بعد في هركولانيومْ[7].

تحرّك الفأرة نحو أسفل الصفحة.

أنت على حقّ، سيد غلاك. ليس ثمة ويسكي بعد.

ساكنا، دانيال يقول \ لا يقول. أبدو أنيقا فعلا.

يتمدد دانيال هناك ساكنا في الفراش، وكهف فمه، عدم قوله تلكَ الأشياء، هو العتبة لنهاية العالم كما عرفته

---

(6) هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية هي distillery وهي تحتوي على كلمة still التي يدور هذا الفصل حول معانيها المختلفة في اللغة الإنجليزية. م.

(7) مدينة إيطالية قديمة قريبة من مدينة بومبي دمرها أيضا بركان جبل فيزوف. م.

تحدق إليزابيث في مبنى سكني حكومي قديم، مبنى من النوع الذي تراه ينهار تحت ضربات البلدوزر ويتداعى بعضه على بعض في لقطات قديمة من الفترة التي تم فيها تحديث المُدُن البريطانية في الستينيات والسبعينيات.

ما زال قائما لكن في منطقة أتى عليها الخراب. كل بقية البيوت قد وقع استئصالها من الشارع مثل أسنان مسوسة.

تفتح الباب. الرواق مُظلم، والورق الذي يغطي الجدران متّسخ وداكن. الغرفة الأمامية فارغة، لا أثاثَ فيها. ألواح أرضيّتها مكسورة إذْ أنّ مَنْ كان يعيش أو يُقَرْفص هنا قد اقتلعها ليحرقها في المدفأة، فوق رف المدفأة القديم كومة من هباب الفحم تصل تقريبا إلى السقف.

تتخيّل جدرانها بيضاء. تتخيّل كل شيء مدهونًا بالأبيض.

حتى الثقوب التي في الأرضية، التي تبدو من خلال الألواح البيضاء المكسورة، مدهونة بالأبيض.

تطل نوافذ البيت على سياج عال من شجيرات التمر حنة. تخرج إليزابيث لتدهن ذلك السياج بالأبيض أيضا.

في الداخل، جالسة على أريكة قديمة مدهونة بالأبيض، تبدو الحشوة التي تخرج منها متصلبة بفعل مستحلب أبيض، يضحك دانيال على ما تقوم بهِ. يضحك بصمت لكن مثل طفل رجلاه في يديه وهي تدهن الأوراق الخضراء الصغيرة، الورقة بعد الأخرى باللون الأبيض.

يلفت نظرها. يغمزها بعينه. لقد طفح الكَيلُ.

يقف الاثنان في مساحة نظيفة ناصعة البياض.

نعم، تقول. نستطيع الآن أن نبيع هذه المساحة مقابل ثروة. الأغنياء فقط يستطيعون أن يتحمّلوا تكاليف أنْ يكونوا مينيماليست[8] هذه الأيام.

---

(8) Minimalist, minimalism التقليلية (التبسيطية أو الحد الادنى) هي حركة فنية ازدهرت في الستينات خرجت من تحت المدرسة التجريدية وتتميز بتقديم الاعمال الفنية بأقل عدد من العناصر والألوان. وتعتمد على التبسيط وحذف الكثير من التفاصيل. م.

يهز دانيال كتفيه. التاريخ يعيد نفسه.

هل سنتمشّى قليلا يا سيد غلاك؟ تقول إليزابيث.

لكن دانيال قد انطلق وحيدا، عابرا الصحراء البيضاء بسرعة لا بأس بها. تحاول اللحاق به. لا تستطيع. إنه يتقدمها دائما بمسافة كبيرة. يمتد البياض أمامهما إلى الأبد. وعندما تتطلع إلى الوراء من بين كتفيها يمتدّ البياض وراءهما إلى الأبد أيضا.

لقد قتل أحدهم نائبة في البرلمان، تقول لدانيال وهي تحاول جاهدة اللحاق به. لقد أطلق عليها رجلٌ النار وهجم عليها بسكين. وكأن إطلاق النار عليها لا يكفي. لكنها أخبار قديمة الآن. كان يمكن أن يكون هذا الخبر ذات مرة مادة تكفي سنة كاملة من الأخبار. لكن الأخبار الآن مثل قطيع من الأغنام تجري بسرعة متزايدة في منحدر نحو الأسفل.

يومئ دانيال بمؤخّرة رأسه.

كأنه توماس هاردي وقد تناول مخدر «سْبيد»، تقول إليزابيث.

يتوقف دانيال ويستدير. يبتسم بلطف.

عيناه مغلقتان. يتنفس بانتظام. يرتدي ملابس مصنوعة من ملاحف المستشفى. اسم المستشفى مطبوع على الزوايا، تستطيع أن تراه أحيانا، كتابة وردية وزرقاء على أطراف الكُمّ أو على زوايا بطانة أسفل معطفه. يُقشر برتقالة بسكين بيضاء. لفافة القشور تسقط في البياض وكأنها تسقط في ثلج عميق وتختفي.

يراقب هذا الذي يحدث ويُصدر صوتًا يعبّر عن امتعاضه. ينظر إلى البرتقالة المقشّرة في يده. إنها بيضاء. يهزّ رأسه.

يتلمّس جيوبه، صدره، بنطاله، وكأنّه يبحث عن شيء. ثم يخرج، مباشرة من صدره، من بين عظم الترقوة، مثل ساحر، جسمًا عائمًا بلون برتقاليّ.

يرميه مثل رداء كبير على البياض الذي أمامهما. قبل أن يستقرّ الجسم بعيدًا عنه يُثني قليلًا منه حول أصبعه ويلفه حول البرتقالة الشديدة البياض التي ما زال يشدّها.

تعود البرتقالة البيضاء التي في يده إلى لونها الطبيعي.

يومئ.

يسحب اللونين الأخضر والأزرق مثل حبل من مناديل في وسطه. يتحول البرتقالي في يده إلى ألوان بول سيزان.

يحتشد الناس حوله متحمّسين.

يصطف الناس، يجيؤونهُ بأشيائهم البيضاء، ويمدّونها له.

بدأ ناس مجهولون يضيفون تعليقات بحجم تغريدات تويتر حول دانيال تحت حساب دانيال. يعلقون حول قدرته على تغيير الأشياء.

تصبح التعليقات أكثر إزعاجا شيئا فشيئا.

تبدأ في إصدار صوت مثل سرب من الدبابير وتلاحظ إليزابيث ما يبدو مثل براز سائل ينتشر بالقرب من قدمها العارية. تحاول ألا تطأ أيّ بقعة منه بقدمها.

تنادي على دانيال لينتبه إلى أين يضع قدميه أيضا.

هل عندكِ وقت لترتاحي قليلا؟ تقول الممرّضة المساعدة. لا بأس للبعض، أليس كذلك؟

تصحو إليزابيث من غفوتها، تفتح عينيها. يسقط الكتاب من حجرها. تلتقطه.

تنقرُ الممرضة المساعدة على كيس المحلول الوَريديّ. البعض منا يجب أن يعمل من أجل أن يعيش، تقول. تغمز بعينها لإليزابيث.

لقد شرد ذهني، تقول إليزابيث.

هو أيضا، تقول الممرضة المساعدة. رجل طيب جدًّا ومؤدّب. نفتقده أيضا. فترة نوم عميق وأطول. تحدث عندما تصبح الأشياء (تتوقف برهة قبل أن تقولها) في مرحلتها النهائية.

فترات الصمت المؤقتة هي لغة دقيقة، لغة أكثر من اللغة الفعلية، تفتقد إليزابيث.

لا تتحدثي أرجوك عن السيد غلاك وكأنه لا يستطيع أن يسمعك، تقول إليزابيث. يستطيع أن يسمعك تماما كما أسمعك أنا. حتى وإن كان يبدو وكأنه نائم.

تعلق الممرضة المساعدة القائمة التي كانت تتأملها على معلاق مثبت عند نهاية السرير.

كنت أقوم ذات يوم بتحميمه، تقول وكأن إليزابيث ليست هناك أيضا وكأنّها متعوّدة تماما على عدم وجود الناس هناك، أو مجبرة في الوقت نفسه على التصرف وكأن لا أحد هناك.

وكان التلفزيون مفتوحا في غرفة الجلوس، عالي الصوت وكان بابه مفتوحا. يفتح عينيه ويجلس مستقيما في السرير في منتصف الـ .... إعلان، سوبرماركت. تنطلق أغنية فوق رؤوس الناس في المحلِ وكل الناس الذين هم بصدد شراء شيء ما، يسقطون مشترياتهم على الأرضية ويبدؤون في الرقص في كل مكان في المحل، وجلس مستقيما في السرير، قال هذه الأغنية هي أنا، لقد كتبتها.

إنه رجل مثليّ مسنّ[9]، قالت أم إليزابيث هامسة.

لَماذا هو بالذات؟ قالت بصوت طبيعي يمكن سماعه.

لأنه جارنا، قالت إليزابيث.

كان ذلك ذات مساء ثلاثاء في أبريل 1993.

كانت إليزابيث من الثامنة من عمرها.

لكننا لا نعرفه، قالت أمها.

من المفترض أن نتحدث مع جارٍ حول معنى أن تكون جارًا، ثم نقوم بكتابة بورتريه للجار، قالت إليزابيث.

كان من اللازم أن تأتي معي، من اللازم أن أعِدّ سؤالين أو ثلاثة لأطرحَهما على جارٍ لأجل كتابة بورتريه ومن اللازم أن تأتي معي. قلت لك. قلت لك يوم الجمعة. قلت إننا سنفعل. إنه واجب مدرسيّ.

كانت أمها تُصلح المكياج على عينيها.

عن أي شيء؟ قالت أمها. عن كل الفنّ الفُرجَويّ الذي بحوزته هناك؟

عندنا صور، قالت إليزابيث. هل هي فنّ فُرجَويّ؟

نظرت إلى الحائط وراء أمها، صورة النهر والبيت الصغير. صورة السناجب المصنوعة من قطع من أكواز صنوبرية حقيقية. بوستر الراقصين لهنري ماتيس. بوستر المرأة وتنورتها وبرج إيفل. الصور الفوتوغرافية المكبّرة لجدّتها وجدها عندما كانت أمها طفلة صغيرة. صور أمها عندما كانت رضيعة. صورها هي عندما كانت رضيعة.

الصّخرة والثقب الذي يمتد حتى منتصفها. في وسط غرفته الأمامية، كانت أمها تقول. ذلك فن فرجويّ لا علاقة له بالفن. لم أكن متطفّلة. كنتُ مارّة. كان البيت مضاء. كنت أظن أنه من المفترض أن تقومي بِجمع الأوراق الساقطة والتعرّف على أنواعها.

---

(9) بالإنجليزية Old Queen وهي عبارة تحقيرية. م.

كان ذلك منذ ثلاثة أسابيع، قالت إليزابيث. هل ستخرجين؟

ألا نستطيع أن نتّصل بآبي ونسألها الأسئلة عبر الهاتف؟ قالت أمها.

لكننا لم نعد نعيش بجانب آبي، قالت إليزابيث. من المفترض أن يكون شخصا من الجيران الآن. من اللازم أن يكون شخصيا، حوارا شخصيا. ومن المفترض أن أسأل أسئلة حول ظروف المنطقة في الماضي حيث نشأ الجار وعن الحياة عندما كان الجار في عمري.

حياة الناس شأن شخصي، قالت أمها. لا يمكنك أن تذهبي لتتطفّلي على حياتهم طارحة عليهم كل أنواع الأسئلة. وفي كل الحالات. لماذا تريد المدرسة أن تعرف هذه الأشياء حول الجيران؟

إنهم فقط يفعلون، قالت إليزابيث.

ذهبت وجلست على الدرجة العليا للسلالم. ستصبح البنت الجديدة التي لا تقوم بالواجب المدرسي الصحيح. كانت أمها ستقول في أي لحظة الآن إنها ذاهبة للتسوق من متجر «تيسْكو» الذي يظل مفتوحًا لساعات متأخرة من الليل وأنها ستعود خلال نصف ساعة. ستعود بعد ساعتين في الحقيقة. ستفوحُ منها رائحة السجائر. ولن تأتي بشيء معها من متجر «تيسْكو».

إنه عن التاريخ، وكوننا جيرانا، تقول إليزابيث.

قد لا يستطيع الكلام بإنجليزية فصيحة، قالت أمها. لا يمكنك أن تذهبي لتزعجي مُسنّا ضعيفا.

إنه ليس ضعيفا، قالت إليزابيث. ليس أجنبيًا. ليس مسنًّا. لا يبدو محبوسًا على الإطلاق.

لا يبدو ماذا؟ قالت أمها.

يجب أن أقوم بالواجب لأسلّمه غدًا، قالت إليزابيث.

عندي فكرة، قالت أمها. لماذا لا تفبركينَ الحوار؟ تظاهري بأنك تطرحينَ عليه الأسئلة. اكتبي الأجوبة التي تعتقدين أنه قد يقدّمها لك.

من المفترض أن يكون حقيقيًا، قالت إليزابيث. إنه من أجل صفّ الأخبار.

لن يعرفوا أبدا، قالت أمها. فبركيه. الأخبار الحقيقية دائما مفبركة في كل الحالات.

الأخبار الحقيقية ليست مفبركة، قالت إليزابيث. إنها الأخبار.

ذلك نقاش سنعود إليه مرة أخرى عندما تكبرين قليلا، قالت أمها. في كل الحالات. إن فبركة الأشياء أصعب بكثير. أعني، لكي تفبركيها بشكل جيد جدًّا، جيّد بما فيه الكفاية لتكون مقنعة. إن الأمر يتطلب مهارات أكثر بكثير. دعيني أقول لك هذا. إذا قمت بفبركتِها وكانت مقنعة بشكل كافٍ لتقنع الآنسة سيموندسْ أنها حقيقية، فإني سأشتري لك ذلك الشيء الذي اسمه «جميلة والوحش».

شريط الفيديو؟ قالت إليزابيث. حقًّا؟

أجل، قالت أمها، وهي تدور على قدم واحدة بشكل محوري لتنظر إلى نفسها من الجانب.

في كل الحالات جهاز الفيديو الذي نملكه لا يعمل، قالت إليزابيث.

إذا أقنعتها، قالت أمها. فَسَأقتني لك واحدا جديدا.

هل تعنين ما تقولين؟ قالت إليزابيث.

وإذا أزعجتك الآنسة سيموندسْ بسبب فبركة الحوار، فإني سأتصل بالمدرسة وأؤكد لها أنه ليس مفبركا، وأنه حقيقيٌّ، قالت أمها. اتفقنا؟

جلست إليزابيث إلى طاولة الكمبيوتر.

إذا كان الجار مسنًّا جدًّا، فإنه لا يبدو أبدا مثل الناس الذين من المفترض أن يكونوا في مثل سنّه على التلفاز، الذين يبدون دائما وكأنهم علقوا داخل قناع مطاطيّ، ليس فقط قناعا على مقاس الوجه، بل قناع من النوع الذي يتمدّد على مقاس الجسد من الرأس إلى الرجلين، وإذا كان بمقدورك أن تمزّقه أو تفتحه بشقّه إلى نصفين فإن الأمر سيكون مثل العثور على شاب لم يُلْمس ولم يتغيّر داخله، شاب سيخرج بكل بساطة وبمهارة من الجلد القديم المزيف، مثل جلد الموزة بعد استخراج ما بداخلها. لكن، عندما كانوا عالقين داخل ذلك الجلد، فإن عيون الناس، الناس الذي هم في كل الأفلام والبرامج الكوميدية، تبدو يائسة،

وكأنهم كانوا يحاولون أن يرسلوا إشارة للناس في الخارج دون أن يضحّوا باللعبة، أنه قد وقع القبض عليهم من قِبل ذواتهم الهرمة التي تقوم الآن بالحفاظ عليهم على قيد الحياة في داخلهم لسبب شرير، مثل تلك الدبابير التي تضع بيضًا داخل مخلوقات أخرى حتى يكون ليرقاتِها شيءٌ تأكله. باستثناء أنه في المقابل، الذات القديمة تقتات على اليرقات الصغيرة. وكل ذلك الذي تبقّى سيكون العيون، متوسّلة، عالقة خلف المحاجر.

كانت أمّها عند الباب الأمامي.

إلى اللقاء، قالت بصوت مرتفع. أعود قريبا.

جرت إليزابيث عبر البهو.

إذا أردت أنْ أكتب كلمة «أنيق» فكيف أهجّئها؟

انغلق الباب الأمامي.

قامت أمها في المساء التالي بعد العشاء، بطيّ دفتر كتابة الأخبار بشكل مفتوح على الصفحة وخرجت من الباب الخلفي عابرة الحديقة باتجاه السياج الخلفي الذي ما زال تحت أشعة الشمس، حيث انحنت عليه ولوحت بالدفتر في الهواء.

مرحبا، قالت.

كانت إليزابيث تراقب من الباب الخلفي. كان الجار يقرأ كتابا ويشربُ كأسا من النبيذ في ما تبقى من ضوء الشمس. يضع كتابه على طاولة الحديقة.

أهلا، قال.

أنا وِندي ديماندْ، قالت. أنا جارتك. مضى وقت كثير وأنا أنوي أن أجيء لأسلم عليك، منذ أن انتقلنا أنا وابنتي إلى هذا البيت.

دانيال غْلاكْ، قال دون أن يقف عن كرسيّه.

سعيدة بالتعرف عليك يا سيد غْلاك، قالت أمها.

دانيال، من فضلك، قال.

كان لديه صوت قادم من الأفلام القديمة حيث تحدثُ الأشياءُ لطيّاري الطائرات الحربية المتأنّقين في ملابس بيضاء وسوداء.

حسنا، أنا في الواقع لا أريد أن أزعجك، قالت أمها. لكن فجأة خطر على بالي، وآمل ألا تمانع، وألا تظن أن في الأمر وقاحة. فكرت أنك ربما تريد قراءة هذه المقالة الصغيرة التي كتبتها ابنتي عنك كواجب مدرسي.

عني؟ قال الجارُ.

إنها رائعة، قالت أمّها. بورتريه من كلمات عن جارنا. هذا لا يعني أنها كتبت أشياء جميلة عني أنا شخصيا. لكني قرأتها ثم رأيتك في الحديقة، ففكرت، حسنا. أعني إنها جميلة. أعني أنها تسبب لي الإحراج. لكنها كتبت أشياء ساحرة جدا عنك.

شعرت إليزابيث بالفزع. شعرت بالفزع من الرأس إلى القدمين. كان الأمر وكأن فكرة الفزع قد فتحت فمها وابتلعتها كاملة، تماما مثلما يفعل جلد قديم مغطى بالمطاط.

تراجعت خطوة وراء الباب حيث لا يستطيع أحد رؤيتها. سمعت الجار يجرّ كرسيه فوق البلاط. سمعته يتقدم ناحية أمها عند السياج.

عندما عادت من المدرسة إلى البيت في اليوم التالي كان الجار يجلس واضعا رجلًا على رجل على حائط حديقته مباشرة بجوار البوابة الأمامية التي تحتاج أن تعبرها لتصل إلى البيت.

توقفت دون حراك عند زاوية الطريق.

ستمرُّ به وتتظاهر أنها لم تعش في البيت الذي تعيش فيه.

سوف لن يتعرّف عليها. ستكون طفلة من شارع آخر بكل ما في الكلمة من معنى.

عبرت الشارع كما لو أنها كانت تواصل مسيرها. استقام في جلسته ووقف.

عندما تكلم، لم يكن هناك شخص آخر في الشارع، فقد كان بالتأكيد يَعنيها بكلامه. لم يكن هناك مجال للخروج من المأزق.

مرحبا، قال من الجهة الأخرى للشارع حيث يقف. كنت آمل أنّنا قد نتقابل صدفةً. أنا جارك. أنا دانيال غْلاك.

أنا في الحقيقة لست إليزابيث ديماندْ، قالت. واصلت المشي.

آه، قال. أنت لست هي. أفهم.

أنا شخص آخر، قالت.

توقفت على الجهة الأخرى من الطريق واستدارت.

أختي هي التي كتبتها، قالت.

أفهم، قال. حسنا، لقد كان عندي شيء أردت أن أقوله لك بغضّ النظر عمّن كتبها.

ماذا؟ قالت إليزابيث.

أظن أن اسمك في الأصل فرنسي، قال السيد غلاك. أظن أنه يأتي من الكلمتين الفرنسيتين دي وَمونْدْ[10]، وقد وُضعتا معًا، وهذا يعني، عندما تقومين بالترجمة، من العالم.

حقًّا؟ قالت إليزابيث. اعتقدنا دائما أنه يعني شيئا من قبيل السؤال نوعا ما من كلمة ديمانْدْ[11].

جلس السيد غلاك على حافة الرصيف ولف ركبتيه بذراعيهِ. هزّ رأسه بالرفض.

من العالم، أو في العالم، على ما أعتقد، قال. قد تعني أيضا من الناس كما قال إبراهام لنكولن. من الناس، عن طريق الناس، للناس.

(لم يكن مسنًا. كانت على حقّ. لا يمكن في الحقيقة لمسنّ أن يجلس واضعا رجلا على رجل أو حاضنا ركبتيه بذراعيهِ مثل ذلك. لا يستطيع المسنّون أن يفعلوا أي شيء سوى الجلوس في الغرف الأمامية وكأنهم قد صُعقوا بمسدسات كهربائية.)

أعرف أنّ اسم - أختي - المسيحي، أعني الاسم إليزابيث، كان من المقصود أن يعني شيئا حول القيام بوعود لله، قالت إليزابيث. وهو أمر صعب، لأني لست متأكدة تماما أني أؤمن بواحد، أعني، هي تؤمن. أعني، لا تؤمن.

هناك شيء آخر مشترك بيننا، قال، أنا وهي. في الواقع، بناء على التاريخ الذي عشته، فإني أودّ أن أقول إن اسمها، إليزابيث، يعني أنه في يوم من الأيام ستجد

---

(10) De Monde.

(11) Demand.

نفسها ربما، بشكل غير متوقّع تماما وبالرغم من الصعوبات، تُنصّب ملكةً.

ملكة؟ قالت إليزابيث. مثلك أنت[12]؟

إمْمم، قال الجار.

أنا نفسي أظن أن الأمر سيكون رائعا، قالت إليزابيث، بسبب كل الفن الفُرْجَويّ الذي ستكون قادرا على وضعه في كل مكان.

إيه، قال الجار. صحيح.

لكن هل ما زال اسم إليزابيث يعني الشيء نفسه حتى وإن كُتب بحرف s عوضا عن حرف z؟ قالت إليزابيث.

أوه نعم، دون أدنى شك، قال.

عبرت إليزابيث إلى الجهة نفسها من الشارع حيث الجار. وقفت على مسافة قصيرة منه.

ماذا يعني اسمك؟ قالت.

يعني أنني محظوظ وسعيد، قال. هذا فيما يخص غْلاك. وإذا حدث وأنْ أُلقي بي ذات يوم في حفرة مليئة بالأُسود فإني سأخرج منها سالما. ذلك هو معنى اسمي الأول. وإذا كان لديك حلم في أي وقت ولا تعرفين معناه فإنك تستطيعين أن تسأليني. اسمي الأوّل يشير أيضا إلى القدرة على تأويلِ الأحلام.

هل تستطيع فعلا؟ قالت إليزابيث.

جلست أرضا على قطعة الرصيف الخاصة بها بجانب الجار.

في الحقيقة أنا لا أعرف أي شيء عن الموضوع، قال. لكني أستطيع أن أخترع شيئا مفيدا، مسليا، ذكيًا ولطيفا. هذا شيء مشترك بيننا، أنا وأنت. بالإضافة إلى القدرة على أن نصبحَ شخصا آخر، إذا اخترنا.

تقصد أن هذا شيء مشترك بينك وبين أختي، قالت إليزابيث.

نعم، قال الجار. أنا سعيد جدا بالتعرّف عليكما الاثنتين، أخيرًا.

---

(12) يسمى الرجل المثلي المسنّ في اللغة الإنجليزية old queen وهي عبارة استعملتها والدة إليزابيث مسبقًا للإشارة إلى الجار. م.

ماذا تقصد، أخيراً؟ قالت إليزابيث. لقد انتقلنا إلى هنا منذ ستة أسابيع فقط.

أصدقاء العمر، قال. ننتظرهم أحيانا مدى الحياة.

مدّ لها يده. وقفت، عبرت المسافة التي بينهما ومدّت يدها. صافحها.

أراك لاحقا، يا ملكة العالم غير المتوقّعة. التي لا تنسى الناس، قال.

لقد مر أكثر من أسبوع بقليل على التصويت. شريط الأعلام الملونة في القرية، حيث تعيش والدة إليزابيث الآن، معلّقٌ عبر شارع هاي استعدادا للمهرجان الصيفي، أشرطة بلاستيكية حمراء وبيضاء وزرقاء على واجهة سماء كلها تهديدات، ورغم أنها ليست تمطر في الحقيقة الآن والأرصفة جافة، فإن الريح التي تضرب المثلثات البلاستيكية بعضها ببعض تجعل هذه الأصوات على طول شارع هاي تبدو مثل مطر تدق الأرض دقًّا.

القرية في حالة متجهّمة. تمرّ إليزابيث بِبَيتٍ ريفيّ ليس بعيدًا عن محطّة الباص. واجهتُهُ، من الباب وحتى أعلى النافذة، تم دهنها بدهن أسود وكلمات «عُدْ إلى بيتك»[13].

إما أن ينظر الناس إلى أسفل، يشيحون عنها بوجوههم بعيدا، أو يحدّقون فيها حتى تحوّل نظرها عنهم. الناس في المتاجر، عندما تشتري بعض الفواكه، بعض الأدوية المسكنة للألم وجريدة لأمها، يتكلمون بشيء من اللامبالاة. ينظر إليها الناس الذين تمرّ بهم في الطريق من الباص إلى بيت أمها، وإلى بعضهم بعضًا، بنوع جديد من التعالي.

أمها، التي تقول لها عندما تصل البيت إن نصف القرية لا يتكلّم مع النصف الآخر، وإنّ هذا لا يعني أي شيء لها تقريبا بما أنه لا أحد في القرية يتكلّم معها على أيّ حال أو قد كان تكلّم معها على الإطلاق رغم أنها تعيش هناك منذ حوالي عشر سنوات (تبدو أمها ميلودرامية قليلا بخصوص هذا الموضوع)، تدق بالمطرقة مسمارًا في جدار المطبخ لتعليق خريطة قديمة من مصلحة الخرائط للمنطقة التي تعيش فيها الآن، وقد اشترتها أمسِ من متجر كان في الماضي شركة محلية للخدمات والمعدات الكهربائية وهو الآن مكان يبيع نجوم البحر البلاستيكية، أشياء تبدو وكأنها مصنوعة من الفخار، أدوات تقليدية وقفّازات مصنوعة من الخيش للحديقة تبدو وكأنها قد صُمّمت على طراز يوتوبيا نفعية من سنة 1950.

---

(13) GO HOME.

نوعية المتاجر التي تتوفر فيها نوعية الأشياء التي تبدو جيدة، تكلف أكثر مما ينبغي ويُقنعونك أنك إذا اشتريتها فإنك ستعيش النوع الصحيح من الحياة، تقول أمها من بين شفتين ما زالتا تشدان مسمارين صغيرين بينهما.

يعود تاريخ الخريطة إلى 1962. رسمت أمها خطا أحمر بقلم مازكرْ حول كل الساحل لتحدّد أين يوجد الساحل الجديد.

تشير إلى منطقة بعيدة جدا في الداخل، على الخط الأحمر الجديد.

ذلك هو المكان الذي انهار فيه المعقل العسكري من الحرب العالمية الثانية في البحر منذ عشرة أيام، تقول الأم.

تشير إلى الجهة الأخرى من الخريطة، المنطقة الأبعد عن الساحل.

وذلك هو المكان الذي ارتفع فيه السياج الجديد، تقول. انظري.

إنها تشير إلى كلمة مشتركة في عبارة أرض مشتركة.

من الواضح أن سياجا بارتفاع ثلاثة أمتار مع بكرة من الأسلاك الشائكة تمر فوقه قد تمّ بناؤه فوق قطعة أرض ليست بعيدة عن القرية. وقد تمّ وضع كاميرات مراقبة فوق أعمدة على امتداد السياج. إنه يحيط بقطعة من الأرض ليس فيها سوى شجيرات الوزّال والمسطّحات الرملية وأجمات الحشيش الطويل، أشجار غير منتظمة وتجمعات صغيرة من الزهور البرية.

اذهبي وانظري إليها، تقول أمها. أريدك أن تفعلي شيئا بشأنها.

ماذا بوسعي أن أفعل بشأنها؟ تقول إليزابيث. أنا أستاذة محاضرة في تاريخ الفن.

تهز أمّها رأسها.

ستعرفين ما عليك فعله، تقول. أنت شابة. هيّا. سنذهبُ معًا.

تمشيانِ بجانب الطريق الضيقة. الحشيش عال على الجهتين حولهما.

لا أصدق أنه مازال على قيد الحياة، السيد غْلاك (صاحبك)، تقول أمها في الأثناء.

ذلك ما يقوله تقريبا كل شخص أيضا في مِصحّة مالتينغز.بي.آل.مي، تقول إليزابيث.

كان العُمر قد تقدّم به كثيرا في ذلك الوقت، تقول أمّها. يجب أن يكون عمره أكثر من مئة سنة.

يجب أن يكون. كان في الثمانين من العمر في التسعينيات. تذكّري أنه كان يعبر الشارع وقد أحْناه العمرُ.

لا أتذكّر ذلك على الإطلاق، تقول إليزابيث.

وكأنه قد حمل أثقال العالم على ظهره، تقول أمها.

لقد قلت دائما إنه مثل راقص، تقول إليزابيث.

راقص مُسنّ، تقول أمّها. لقد انحنى بشكل كامل.

كنتِ تقولين إنه رشيق، تقول إليزابيث.

ثم تقول،

يا إلهي.

أمامهما، يقطعُ سياجٌ من الأسلاك الحديدية مباشرةً الدرب الذي قد تمشّت فيه إليزابيث مرات كثيرة منذ أن جاءت أمها لتعيش هنا، ويسدّ الطريق على امتداد البصر مهما جلت بعينيك.

تجلس أمّها على الأرض المقلوبة قريبا من السياج.

أنا متعبة، تقول.

لم يبق سوى ميلين، تقول إليزابيث.

ليس ذلك ما أعني، تقول. أنا متعبة من الأخبار. أنا متعبة من الطريقة التي تجعل الأشياء مثيرة رغم خُلوّها من الإثارة، وتتعامل بشكل بسيط مع ما هو فظيع حقًّا. أنا متعبة من النقد اللاذع. أنا متعبة من الغضب. أنا متعبة من السفالة. أنا متعبة من الأنانية. أنا متعبة لأننا لا نفعل أي شيء لإيقاف هذا السمّ.

أنا متعبة من كيفية تشجيع هذا الجوّ. أنا متعبة من العنف المنتشر ومتعبة من العنف الذي هو في الطريق، والذي سيأتي، والذي لم يحدث بعد. أنا متعبة من الكاذبين. أنا متعبة من الكاذبين المنافقين. أنا متعبة من كيفية سماح هؤلاء الكاذبين بحصول هذا. أنا متعبة من الاضطرار إلى التخمين فيما إذا فعلوا هذا

بسبب الغباء أم عن قصد. أنا متعبة من الحكومات الكاذبة. أنا متعبة من الناس الذين لم يعودوا يهتمون سواء كُذب عليهم أم لا. أنا متعبة من جَعلي أشعر بكل هذا الخوف. أنا متعبة من العداء. أنا متعبة من العَدُبْنِ[14].

لا أظن أنَ تلكَ كلمة حقيقيّة، تقول إليزابيث.

أنا متعبة من عدم معرفة الكلمات الصحيحة، تقول أمّها.

تفكّر إليزابيث في أجُرّ المعقل العسكري القديم المنهار تحت الماء، فقاقيع الماء صاعدة من ثقوبها الصغيرة عندما يغمرها ماء المدّ.

أنا أجرّة تحت الماء، تفكّر.

تندفع أمّها، وقد أحسّت بأنها قد فقدت تركيزها، للحظة نحوَ السياج.

تشير إليزابيث، التي قد تعبت من أمّها (الآن، ولم تمض سوى ساعة ونصف على الزيارة)، إلى المشابك الصغيرة الموضوعة في أماكن مختلفة على طول الأسلاك.

انتبهي، تقول. أظن أنها مُكهربة.

---

(14) Pusillanimosity كلمة منحوتة من كلمتين هما العداء والجبن. م.

في جميع أنحاء البلاد، ثمّة كآبة وبهجة.

في جميع أنحاء البلاد، ما كان قد حصل ارتجّ وكأنّ سلكا كهربائيًّا انقطع عن عموده في عاصفة، سلكا كان يهتزُّ مِثل سوطٍ في الهواء فوق الأشجار والسقوف وحركة المرور.

في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنه كان الشيء الخاطئ. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنه كان الشيء الصحيح. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنهم قد خسروا فعلًا. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنهم قد ربحوا فعلًا. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنهم قد فعلوا الشيء الصحيح وأنّ الناس الآخرين قد فعلوا الشيء الخاطئ. في جميع أنحاء البلاد، بحث الناس في غوغل عن: ما معنى الاتحاد الأوروبي؟ في جميع أنحاء البلاد، بحث الناس في غوغل عن: الانتقال إلى إسكتلندا. في جميع أنحاء البلاد، بحث الناس في غوغل عن: مطلب الحصول على جواز سفر إيرلندي. في جميع أنحاء البلاد، (دعى الناس بعضهم بعضًا بأبناء العاهرة). في جميع أنحاء البلاد، كان الناس يضحكون بشكل هستيري. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس بأنهم شرعيّون. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنّهم ثكالى ومصدومون. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنهم فاضلون. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنهم مرضى. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس بالتاريخ على أكتافهم. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أن التاريخ لا يعني شيئا. في جميع أنحاء البلاد، شعر الناس أنه قد تمّ إحصاؤهم لأجل لا شيء. في جميع أنحاء البلاد، علق الناس آمالهم عليها. في جميع أنحاء البلاد، لوح الناس بالأعْلام في المطر. في جميع أنحاء البلاد، رسم الناس صليبا معقوفا على الجدران. في جميع أنحاء البلاد، هدّد الناس ناسا آخرين. في جميع أنحاء البلاد، طلب الناس من ناسٍ أن يغادروا. في جميع أنحاء البلاد، فقدت وسائل الإعلام عقلها. في جميع أنحاء البلاد، كذب السياسيون. في جميع أنحاء البلاد، انقسم السياسيون. في جميع أنحاء البلاد، اختفى السياسيون. في جميع أنحاء البلاد، تلاشت الوعود. في جميع أنحاء البلاد، اختفت الأموال. في جميع أنحاء البلاد، تكفلت وسائل الإعلام

الاجتماعي بالمهمة. في جميع أنحاء البلاد، أصبحت الأشياء رديئة. في جميع أنحاء البلاد، لا أحد تكلم عنها. في جميع أنحاء البلاد، لا أحد تكلم عن أي شيء آخر غيرها. في جميع أنحاء البلاد، كان الغضب العنصري عامًّا. في جميع أنحاء البلاد، قال الناس إن الأمر لم يكن بسبب أنهم لا يحبون المهاجرين. في جميع أنحاء البلاد، قال الناس إن الأمر كان حول السيطرة. في جميع أنحاء البلاد، تغير كل شيء خلال ليلة. في جميع أنحاء البلاد، الذين عندهم والذين ليس عندهم بقوا على حالهم. في جميع أنحاء البلاد، فئة الواحد بالمئة الصغيرة حقّقت أرباحًا كالعادة من النسبة المئوية الكبيرة جدا من الناس. في جميع أنحاء البلاد، أموال أموال أموال. في جميع أنحاء البلاد، ليس هناك مال ليس هناك مال ليس هناك مال.

في جميع أنحاء البلاد، انقسمت البلاد إلى قطع. في جميع أنحاء البلاد، قطّعت البلاد.

في جميع أنحاء البلاد، كانت البلاد مقسّمة، سياج هنا، جدار هناك، خطّ رسم هنا، خطّ تمّ عبوره هناك،

خط لا تعبره هنا،

خط من الأفضل لك ألا تقطعه هناك،

خط من الجمال هنا،

خط من الراقصين يرقصون هناك،

خط لا تعرف حتى أنه موجود هناك،

خط لا تقدر عليه هناك،

خط ناريّ جديد تماما،

خط معركة،

نهاية الخط،

هنا \ هناك.

كان يوم اثنين دافئا بشكل معتاد في أواخر سبتمبر 2015، في نيس، في جنوب فرنسا. كان الناس المتواجدون في الشارع يحدقون في خارج قصر البريفكتيرْ حيث تم للتوّ تعليق علم أحمر طويل بِصليب معقوف من فوق أعلى البناء ليتدلّى نحو الأسفل على واجهة من الشرافات. صرخ بعض الناس بصوت عال. كان هناك هرج ومرج وصراخ وإشارات غاضبة.

هناك وِحدة إنتاج فيلم تقوم بتصوير قصّة مقتبسة من مذكّرات، مستخدمةً القصْر لإعادة تجسيد نُزل إكسلسيور، حيث كان ألويس برونرْ، ضابط وحدات الآس.آس قد اختاره مقرًّا لمكتبهِ وإقامتهِ بعد أن استسلم الإيطاليون للحلفاء، فقام الغيستابو بالتدخّل لملء الفراغ.

قدّمت الديْلي تليغراف في اليوم التالي تقارير عن اعتذار السلطات المحلية لعدم إعطائهم وقتا كافيا لإشعار الناس المقيمين في المدينة ببرامج وِحدة إنتاج الفيلم، وكيف تحوّلت حالة الحيرة والاستياء لدى عامة الناس إلى طوفان من صور السّلفي.

قمت باستطلاع على الانترنت في نهاية التقرير. هل كان السكّان المحليّون على حقّ في أن يغضبوا من العَلَمِ: نعم أو لا؟

صوّتَ تقريبا أربعة آلاف شخص. سبعون بالمائة قالوا لا.

كانت جمعة دافئة بشكل معتاد في أواخر سبتمبر 1943، في نيس، في جنوب فرنسا. حنّة غلاك، التي كانت تبلَغ الثانية والعشرين من العمر (التي لم يكن اسمها الحقيقي على وثائق هويتها، والتي أشارت إلى أن اسمها هو أدريان ألبرت)، كانت تجلس على الأرضية في مؤخرة شاحنة. لقد أخذوا تسعة أشخاص إلى حد الآن، كلهم نساء، لم تعرف حنة أي واحد منهم. تبادلت النظرات مع المرأة الجالسة قبالتها. نظرت المرأة إلى أسفل، ثم نظرت إلى أعلى، تبادلت النظرات مع حنة مرة أخرى. ثم أرخت كل منهما رموش عينيها ونظرتا إلى أسفل حيث الأرضية المعدنية للشاحنة. لم تكن هناك سيارات مصاحبة. كان هناك، في المجموع، سائق وحرس وضابط شاب وحيد في القسم الأمامي، والاثنتان في الخلف، معا وحتى أكثر شبابا.

كان جزء من الشاحنة مفتوحا والجزء الآخر مغطى بقماش من الخيش. من الشارع، يستطيع الناس رؤية رأسيهما والحراس وهم يمرون. كانت حنة قد سمعت الضابط يطلب من أحد الرجال في الخلف أن يحافظ على الهدوء أثناء صعودها الشاحنة.

لكن الناس في الشارع كانوا غافلين، أو تظاهروا بذلك. نظروا ثم أشاحوا بوجوههم. نظروا. لكنهم لم يكونوا ينظرون.

كانت الشوارع لامعة وجميلة. أرسلت الشمس بشكل صادم ضوءها الجميل المنعكس على البنايات إلى مؤخّرة الشاحنة.

عندما توقّفوا على جانب الطريق لأخذ شخصين آخرين، التقت عَيْنا حنة مرة أخرى بِعَيني المرأة الجالسة قبالتها. حرّكت المرأة رأسها بإشارة قبول تكادُ تكون غير مرئية.

ارتجّت الشاحنة عند علامة الوقوف. تعرقلت حركة المرور. لقد ساروا في أكثر الطرق حماقة. حسنا، لقد أخبرتها حاسّة شمها، إنه سوق الجمعة للأسماك، مزدحم كالعادة.

وقفت حنة.

طلب منها أحد الحراس أن تجلس.

وقفت المرأة التي تجلس قُبالتها. واحدة إثر واحدة تلقّت النساء الجالسات في الشاحنة الإشارة ووقفن. صرخ الحارس فيهن أن يجلسن. صرخ كلا الحارسين. لوّح أحدهما لهنّ بسلاحه في الهواء.

لم تتعود هذه المدينة على هذا بعد، فكّرت حنة.

ابتعدْ عن طريقي، قالت المرأة التي أوْمأت لحنّة. لا تستطيع قتلنا جميعًا.

إلى أين تأخذهنّ؟

اقتربت امرأة من جانب الشاحنة وبدأت تنظر إلى الداخل. تبعها حشدٌ صغير من النساء اللواتي كُنّ بالسوق، نساء أنيقات، وبائعات سمك يغطين شعورهن ونساء مُسنّات.

خرج الضابط عندئذ من الشاحنة ودفع المرأة التي سألت إلى أين كانوا يأخذون النساء في وجهها. سقطت وارتطم رأسها بصخرةعمود بولارذ. سقطت قبعتها الأنيقة.

اقتربت النساء في ذلك الحشد الصغير على جانب الطريق من بعضهنّ البعض أكثر. كان صَمْتهن مسموعا. انتشر عبر السوق مثل ظلّ، مثل غطاء من الغيوم.

لقد كان صمتًا، فكّرت حنة، مرتبطًا بالهدوء القادم من الحياة البرية، يحدث لأغاني الطيور، خلال كسوف الشمس عندما يحدث شيء شبيه بالليل لكن في منتصف النهار.

عفوا، سيّداتي، قالت حنة. هذا هو المكان حيث أنزل.

تزاحمت النساء الراكباتُ في الشاحنة جانبًا، فاسحاتٍ لها المجال، سامحاتٍ لها بأن تخرج أوّلا.

كان يوم جمعة آخر في أعياد شهر أكتوبر 1995 . كانت إليزابيث تبلغ من العمر أحد عشر عاما.

سيقوم السيد غلاك، جارنا، بالاعتناء بك اليوم، قالت أمها. يجب أن أذهب إلى لندن مرة أخرى.

لا أحتاج دانيال ليعتني بي، قالت إليزابيث.

عمرك أحد عشر عاما، قالت أمّها. ليس عندك اختيار في هذا الأمر. ولا تناديه بِدانيال. قولي له السيد غلاك. كوني مؤدّبة.

ماذا يمكن أن تعرفي عن الأدب؟ قالت إليزابيث.

نظرت لها أمّها نظرة قاسية وقالت الشيء حَوْل كوْنها تشبهُ والدَها.

طيّب، قالت إليزابيث. لأنني لا أريد أنْ ينتهي بي الأمر إلى أنْ أكون أيّ شيء مثلك.

أقفلت إليزابيث الباب الأمامي بالمفتاح بعد خروج أمّها.

وأقفلت الباب الخلفي أيضا. أسدلت الستائر في الغرفة الأمامية وجلست تُسقط أعواد الثقاب المشتعلة على الأريكة لتختبر مَدى مقاومة قطع الأثاث الثلاثة الجديدة للنار.

رأت من خلال شقّ صغير في الستارة دانيال قادمًا من المدخل الأمامي. فتحت الباب رغم أنها كانت قد قررت أنها لن تفتح له.

مرحبا، قال. ماذا تقرئين؟

أرته إليزابيث يديها الفارغتين.

هل يبدو عليّ أني بصدد قراءة أيّ شيء؟ قالت.

اقرئي دائما شيئا ما، قال، حتى عندما لا تقرئين فعليا. وإلا كيف سنقرأ العالم. فكّري في الأمر كشيءٍ ثابتٍ.

ثابت ماذا؟ قالت إليزابيث.

ولاء ثابت للعالم، قال دانيال.

ذهبا ليتمشّيا على جانب ضفة القنال. كلّما مرّا بشخص، ألقى دانيال عليه التحية. ردّ الناس بالتحيّة أحيانا. ولم يردّوا أحيانا أخرى.

ليس من المناسب حقًّا أن تتكلّم مع الغرباء، قالت إليزابيث.

ليس مشكلة عندما يكون شخصًا في عمري، قال دانيال. لكن الأمر ليس مناسبًا لشخص في مثل عمرك.

أنا متعبة من كَوْني شخصًا في مثل عمري وألا تكون لديّ خيارات، قالت إليزابيث.

لا تهتمّي بذلك الأمر، قال دانيال. سيمرّ ذلك في غضون رفّة جفن. الآن. قولي لي. ماذا تقرئين؟

آخر كتاب قرأته كان جيمخانة جيلْ (Jill's Gymkhana)، قالت إليزابيث.

آه. وفي أيّ شيء جعلك تفكرين؟ قال دانيال.

هل تقصد، ماذا كان موضوعه؟ قالت إليزابيث.

إذا أردتِ، قال دانيال.

كان عن طفلة قد ماتَ والدها، قالت له إليزابيث.

ي شيء من الفضول، قال دانيال. بدا لي وكأن القصة تتحدّث أكثر عن الأحصنة.

هناك كثير من الأشياء عن الأحصنة في القصة، طبعا، قالت إليزابيث. في الواقع، الأب الذي يموت ليس في القصة في حقيقة الأمر. إنه ليس فيها على الإطلاق. غير أن عدم وجوده هناك هو السبب في انتقالهم من البيت، وأمها يجب عليها أن تعمل، وتبدأ الطفلة في الاهتمام بالأحصنة، ويحدث سباق الخيول وهكذا.

لكن أباك ليس ميّتا؟ قال دانيال.

لا، قالت إليزابيث. هو في ليدز.

كلمة جيمخانة، قال دانيال، كلمة رائعة، كلمة نمَت من لغات عديدة.

الكلمات لا تنمو، قالت إليزابيث.

بلى إنها تفعل، قال دانيال.

الكلمات ليست نباتات، قالت إليزابيث.

الكلمات نفسها هي كائنات حيّة، قال دانيال.

كائنات-حيّة، قالت إليزابيث.

نباتية ولغوية، قال دانيال. اللغة مثل الجِراء، جِراء تحبّ تقليب الأرض من

حولها، وعندما يحدث الأمر وتنقلب، تخرج الكلمات النائمة، حمراء لامعة، طازجة، تتمايل. بعدئذ تهتزّ الرؤوس الحاملة للبذور وتسقط حمولتها على الأرض. وبعدئذ تكون هناك لغة أكثر تنتظر للخروج.

هل أستطيع أن أسألك سؤالا لا يتعلق بي أو بحياتي أو بحياةِ أمي بأي حال من الأحوال؟ قالت إليزابيث.

تستطيعين أنْ تسأليني أي شيء تريدين، قال دانيال. لكني لا أستطيع أن أعدك بالجواب على ما تسألين إلا إذا كنت أعرف جوابا جيّدا بما يكفي.

مفهوم، قالت إليزابيث. هل حدث أن ذهبت إلى فندق مع بعض الناس وفي الوقت نفسه ادّعيت لطفل طُلب منك أن تكون مسؤولا عنه أنك تفعل شيئا مختلفا؟

طيب، قال دانيال. قبل أن أجيب على ذلك، أحتاج أن أعرف إذا ما كان هناك حكم أخلاقي ضمنيّ في سؤالك؟

إذا لم ترد أن تجيب عن السؤال الذي طرحته عليك، يا سيد غلاك، فيجب أن تقول ذلك، قالت إليزابيث.

ضحك دانيال. ثم توقف عن الضحك.

حسنا، هذا يعتمد على المقصود من السؤال في الحقيقة، قال. هل هو حول مسألة الذهاب إلى الفندق؟ أم يتعلق بالناس الذين يذهبون أو لا يذهبون إلى الفندق؟ أم هل هو عن الادّعاء؟ أم هو عن مسألة ادّعاء شيء أمام طفل؟

نعم، قالت إليزابيث.

في أي حال، هل هو سؤال شخصي بالنسبة لي، قال دانيال، حول إذا ما كنت أنا شخصيا قد حدث وأن ذهبت إلى فندق مع شخص في أيّ وقت مضى؟ وبِفعلِ هذا إذن اخترت أن أدّعي لشخص آخر أنني لم أكن أفعل ما كنت أفعل؟ أم أنه حول ما إذا كان من المهمّ أنّ الشخص الذي ادّعيت شيئا أمامه كان طفلًا عوضًا عن شخص بالغٍ؟ أم أنّ السؤال عامٌّ أكثر من ذلك، وأنك تريدين أن تعرفي إذا ما كان من الخطأ ادّعاء شيء أمام الأطفال في المطلق؟

كل ما قيل أعلاه، قالت إليزابيث.

أنتِ شابة ذكية جدًّا، قال دانيال.

أنا أخطط للذهاب إلى الكوليج[15] عندما أغادر المدرسة، قالت إليزابيث. إذا كنت قادرة على تحمّل التكاليف.

أوه، لا تريدين أن تذهبي إلى الكوليج، قال دانيال.

أريد، قالت إليزابيث. كانت أمي هي أول فرد ذهب في العائلة إلى الكوليج، وسأكون الثانية.

أريدك أن تذهبي إلى الكولاج[16]، قال دانيال.

أريد أن أذهب إلى الكوليج، قالت إليزابيث، للحصول على تعليم ومؤهلات حتى أصبحَ قادرة على الحصول على عمل جيّد وكسب كثير من المال.

نعم، لكن لدراسة أيّ شيء؟ قال دانيال.

ما زلت لا أعرف، قالت إليزابيث.

الإنسانيات؟ القانون؟ السياحة؟ علم الحيوان؟ السياسة؟ التاريخ؟ الفن؟ الرياضيات؟ الفلسفة؟ الموسيقى؟ اللغات؟ الكلاسيكيات؟ الهندسة؟ الهندسة المعمارية؟ الاقتصاد؟ الطب؟ علم النفس؟ قال دانيال.

كل ما قيل أعلاه، قالت إليزابيث.

لهذا السبب يجب أن تذهبي إلى الكولاج، قال دانيال.

إنك تستعمل الكلمة الخاطئة، يا سيد غلاك، قالت إليزابيث. الكلمة التي تستعملها متعلّقة بِقصّ صور الأشياء أو الأشكال الملوّنة وتلصيقها على الورق.

لا أتّفق معك، قال دانيال. الكولاج هو معهد للتربية حيث كل القوانين يمكن أن تُرمى في الهواء، والمقاسات والفضاء والوقت والمقدمات والخلفيات كلّها تصبح نسبيّة، وبسبب هذه المهارات كل شيء تظنين أنك تعرفينه يُصنع منه شيء جديد وغريب.

---

(15) College اخترت استخدام كلمة كوليج عوضا عن كلمة «كليّة» أو «جامعة» للحفاظ على روح الدعابة من خلال اللعب على الكلمات والأصوات في هذا الفصل. م.

(16) Collage الكولاج. م.

هل ما زلت تستعمل تكتيكات لتجنب الإجابة عن السؤال حول الفندق؟ قالت إليزابيث.

بصدق؟ قال دانيال. نعم. أي لعبة تفضلين أن تلعبي؟ سأعطيك خيارين. الأوّل. كلّ صورة تقول قصة. الثاني. كلّ قصة تقول صورة.

ماذا تعني بكل قصة تقول صورة؟ قالت إليزابيث.

اليوم تعني أني سأقوم بوصف كولاج لك، قال دانيال، وتستطيعينَ أن تقولي لي ما رأيك فيه.

دون أن أراه فعليًا؟ قالت إليزابيث.

من خلال رؤيته في المخيّلة، بالنسبة لك، قال. وفي الذاكرة، بالنسبة لي.

جلسا على مقعد طويل. كان هناك طفلان يجلسان على الصخور التي أمامهما يصطادان السمك. كان كلبهما يقف على الصخور وينفض ماء القنال عن فروهِ. صرخ الطفلان وضحكا عندما تطايرت قطرات الماء من فرو الكلب في الهواء وبلّلتهما.

صورة أم قصة؟ قال دانيال. اختاري.

صورة، قالت.

طيب، قال دانيال. أغلقي عينيك. هل هُما مغلقتان؟

أجل، قالت إليزابيث.

الخلفية شديدة الزّرقة، داكنة، قال دانيال. زرقاء أشدّ زُرقة من السماء. فوق الأزرق الداكن، في منتصف الصورة، هناك شكل مصنوع من الورق الباهت الذي يبدو مثل قَمَرٍ كامل. فوق القمر، وأكبر من القمر، هناك امرأة تلبس ثوب سباحة أسود وأبيض، صورة مقصوص من مجلّة أو جريدة متخصّصة في الأزياء. وثمة بجانبها، وكأنّها تتّكِئُ عليها، يد إنسان عظيمة. واليد العظيمة تمسك بداخلها يدًا صغيرة جدًّا، يدَ رَضيع. بشكل أكثر دقّة، يد الرضيع تمسك أيضا اليد الكبيرة، تمسكها من الإبهام. وتحت كل هذا هناك صورة منمّقة لوجه امرأة، الوجه نفسه مكرّر مرّات كثيرة، لكن بِخُصلات مجعّدة مختلفة وملونة من الشعر الحقيقي المتدلّي على الأنف في كل مرة.

مثلما هو الأمر عند الحلاقة؟ مثل نماذج الألوان؟ قالت إليزابيث.

تماما، قال دانيال.

فتحت عينيها. كانت عيون دانيال مغلقة. أغلقت عينيها مرة أخرى.

وفي مكان بعيد في الصورة، في الزرقة في أسفل الصورة، هناك رسم لسفينة ذات شراع مفتوح، لكنها صغيرة، إنها أصغر شيء في الكولاج بأكمله.

حسنٌ، قالت إليزابيث.

أخيرا، هناك أشياء وردية مزينة بالدانتيلا، أعني أشياء حقيقية، دانتيل حقيقي. ملتصق بالصورة في مكانيْنِ، قريبا من الأعلى، ثم نحو الأسفل قريبا من المنتصف أيضا. وهذا هو. هذا كل ما أتذكّره.

فتحت إليزابيث عينيها. رأت دانيال يفتح عينيه بعد بُرْهة.

لاحقا في تلك الليلة، عندما كانت في البيت والنعاس يغالبها على الأريكة أمام التلفاز، ستتذكر إليزابيث أنها رأت عينيه مفتوحتين، وكيف أن ذلك كان مثل تلك اللحظة عندما يحدث أن ترى أضواء الشارع تُنار فيتملّكك شعورٌ وكأنّك قد وُهِبت هديّة، أو فرصة، أو أنه قد وقع اِنتقاؤك وتمّ اختيارك عن طريق اللحظة الراهنة.

ما رأيك؟ قال دانيال.

أحبّ فكرة الأزرق والوردي معا، قالت إليزابيث.

دانتيل وردي. صبغة زرقاء قويّة، قال دانيال.

أحبّ أنك تستطيع ربما أنْ تلمس الوردي، إذا كان قد صنع من الدانتيل، أعني، وستشعر أنه مختلف عن الأزرق.

حسنًا، ذلك جيّد، قال دانيال. ذلك أمر جيّد جدًّا.

أحبّ الطريقة التي تمسك بها اليد الصغيرة اليد الكبيرة بقدر ما أحبّ الطريقة التي تمسك بها اليد الكبيرة اليد الصغيرة، قالت إليزابيث.

اليوم، بالنسبة لنفسي، أحبّ السفينة بشكل خاص، قال دانيال. سفينة الغليون المرفوعة الأشرعة. إذا كنت أتذكر بشكل جيد. إذا كانت هناك أصلا.

هل ذلك يعني أنها صورة حقيقية؟ قالت إليزابيث. وليست واحدة من اختراعك.

إنها حقيقية، قال دانيال. حسنا، لقد كانت ذات مرّة. رسمها أحد أصدقائي. فنّانة. لكني أشكّلها من الذاكرة. كيف بَدت لمخيّلتك؟

كما لو كنتُ أتعاطى المخدرات، قالت إليزابيث.

توقّف دانيال في طريق القنال.

أنت لمْ تَتناولي المختّرات أبدًا، قال دانيال. أليس كذلك؟

لا، لكن لو فعلتُ، وكانَ كلّ شيء في رأسي في الوقت نفسه، كل أنواع الأشياء التي تتزاحم في الرأس، ستكون نوعًا ما مثل المخدرات، قالت إليزابيث.

يا إلهي! ستقولين لأمّك إننا كنا نتعاطى المخدرات كل فترة ما بعد الظهر، قال دانيال.

هل يمكن أن نذهب لنراها؟ قالت إليزابيث.

نرى ماذا؟ قال دانيال.

الكولاج؟ قالت إليزابيث.

هزّ دانيال رأسه.

لا أعرف أين هي، قال. قد تكون اختفت منذ زمن طويل. الله وحده يعرفُ أين توجد هذه الصور في العالم الآن.

أين رأيتها أول مرّة؟ قالت إليزابيث.

رأيتها في بداية الستينيات، قال دانيال.

قالها وكأنّ الوقت يمكن أن يكون مكانا.

كنتُ هناك اليوم الذي أنجزَتها فيه. قال.

مَنْ؟ قالت إليزابيث.

ذا ويمبلدون باردو[17]، قال دانيال.

مَنْ ذلك؟ قالت إليزابيث.

نظر دانيال إلى ساعته.

---

(17) The Wimbledon Bardot اسم أطلق على فنانة البوب البريطانية بولين بوتي. م.

تعالي، يا طالبة الفن، قال. يا بؤبؤ عيني. لقد حان الوقت لنذهب.

الوقت يطير، قالت إليزابيث.

حسنا، نعم. يمكن أن يطير، قال دانيال. بشكل حرفي. أُنظري.

لا تتذكر إليزابيث كثيرا مِما قيل أعلاه.

لكنها تتذكر، مع ذلك، اليوم الذي كانا يمشيان فيه بجانب ضفة القنال عندما كانت صغيرة ونزع دانيال ساعته من مِعصمه ورماها في الماء.

إنها تتذكر النشوة، حالة عدم الاكتمال المطلقة لما حدثَ.

تتذكّر أنه كان هناك طفلان بالأسفل على الصخور وقد أدارَا رأسيْهما أثناء عبور السّاعةِ الهواءَ فوقَهما بشكل قَوْسيّ، ثم سقوطها في القنال، وتتذكّر إدراكها أنها ساعة، ساعة دانيال، وليس أي حصى قديمة أو قطعة نفايات، تطير في الهواء، وإدراكها أيضا أنّه ليس هناك إمكانية أن يستطيع ذانك الطفلان معرفة هذا، وأنه لا أحد غيرها ودانيال عرف جسامة ما أقْدمَ عليه.

تتذكر أنّ دانيال قد أعطاها الاختيار، أنْ يرمي أو لا يرمي.

تتذكر أنها اختارت أنْ يرمي.

تتذكر أنها قد عادت إلى البيت بِشيءٍ عجيبٍ تقوله لأمّها.

هنا شيء آخر من وقت مختلف، حدث عندما كانت إليزابيث في الثالثة عشرة من عمرها، ولا تتذكّر منه سوى شظايا ومقاطع.

وعلى أيّ حال، لأيّ سببٍ آخر تقضين دائما وقتك مع رجلٍ مِثْليٍّ عجوزٍ؟

(تلك كانت أمها)

لا أعاني من تعلّق مرضيّ بدانيال بسبب غياب أبي، قالت إليزابيث. ودانيال ليسَ مِثليًا. إنّه أوروبيّ.

خاطبيه بالسيد غْلاك، قالت أمّها. وكيف تعرفين أنه ليس مِثليًا. وإذا كان ذلك صحيحا، وهو ليس مِثليًا، فماذا يريد منك إذن؟

وإذا كان مثليًا، قالت إليزابيث، فهو ليس فقط مثليًا. هو ليس فقط هذا الشيء أو ذلك. لا أحد منّا. ولا حتى أنتِ.

أصبحت أمّها فائقة الحساسية وشديدة الانزعاج الآن. كان ذلك بسببِ شيءٍ متعلّقٍ بِكونِ إليزابيث في الثالثة عشرة من عمرها، وليس الثانية عشرة. مهما كان السبب فقد كان مزعجًا بشكل شديد.

لا تكوني وقِحة، قالت أمّها. وعمرك هو ثلاث عشرة سنةً. يجبُ أن تكوني حذرة قليلا من الرجال المسنين الذين يريدون أن يقضوا وقتهم حولَ فتيات في مثلِ عُمرك.

إنه صديقي، قالت إليزابيث.

عمرهُ خمس وثمانون سنة، قالت أمّها. كيف يمكن لرجل في الخامسة والثمانين من عمره أن يكون صديقك؟ لماذا لا تستطيعين أن يكون لديك أصدقاء طبيعيون مثل أطفال طبيعيين في الثالثة عشرة من أعمارهم؟

هذا يعتمد على كيفية تعريفك لما هو طبيعي، قالت إليزابيث. والذي سيكون مختلفا عن تَعريفي لِما هو طبيعيّ. بما أننا كلنا نعيش في النسبيّة ونسبيّتي في هذه اللحظة لن تكون وأشكّ أنْ تصبح في يومٍ ما مثل نسبيّتك.

أين تتعلمين أن تتكلّمي بهذا الشكل؟ قالت أمها. هل هذا ما تفعلين أثناء تلك النزهات؟

نحن فقط نتمشى، قالت إليزابيث. فقط نتكلّم.

عن أيّ شيء؟ قالت أمها.

لا شيء، قالت إليزابيث.

عني؟ قالت أمها.

لا! قالت إليزابيث.

ماذا، إذن؟ قالت أمها.

عن أشياء، قالت إليزابيث.

أي أشياء؟ قالت أمها.

أشياء، قالت إليزابيث. يكلّمني عن الكتب والأشياء.

كتب، قالت أمها.

كتب. أغنيات. شعراء، قالت إليزابيث. يقرأ كيتس. مواسم السديم. افتتاح الأفيونات.

افتتاح ماذا؟ قالت أمها.

يعرف بوب ديلان، قالت إليزابيث.

بوب ديلان؟ قالت أمها.

لا، ديلان الآخر، قالت إليزابيث. يعرفهُ عن ظهر قلب، الكثير منه. مع أنه قابل المغني بوب ديلان ذات مرّة، عندما كان بوب ديلان يعيش مع أصدقائه.

قال لك إن لديه أصدقاء مشتركين مع بوب ديلان؟ قالت أمها.

لا. قابلهُ. كان ذات شتاء. كان ينام على الأرض في بيت أحد أصدقائه.

بوب ديلان؟ على الأرض؟ قالت أمّها. لا أظن ذلك. لقد كان بوب ديلان نجمًا عالميًّا كبيرًا دائما.

ويعرف الشاعرة التي تحبين، الشاعرة التي قتلت نفسها، قالت إليزابيث.

بلاثْ؟ قالت أمها. عن الانتحار؟

لم تفهمي للأسف، قالت إليزابيث.

ما هو الشيء الذي لم أفهمه بالضبط فيما يخصّ رجلا عجوزا يضع أفكارا عن

الانتحار والكثير من الأكاذيب حول بوب ديلان في رأس ابنتي ذات الثلاثة عشر عاما؟ قالت أمّها.

وفي كل الحالات فإنّ دانيال قد قال إنه لا يهمّ كيف ماتت ما دمتِ ما تزالين قادرة على قول أو قراءة كلماتها. مثل السطر عن لا حزن بعد الآن، والسطر عن بنات الظلام اللواتي ما زلن يشتعلنَ مثل جاي

فاكس، قالت إليزابيث.

ذلك لا يبدو مثل شِعْر بلاث، قالت أمها. لا، أنا شبهُ متأكّدة أني لم أرَ أبدًا ذلك السطر في أيّ كتاب ممّا قرأت لبلاث، وقد قرأتُ كلّ ما كتبت.

إنهُ لديلان. والسطر عن كيف أنّ الحُبّ دائما أخضر، قالت إليزابيث.

أيّ شيء آخر يقول لك السيد غْلاك عن الحب؟ قالت أمها.

لا يفعل. يكلّمني عن الرسم، قالت إليزابيث. الصور.

يُريكِ صوراً؟ قالت أمها.

رسمتها لاعبة تنس كان يعرفها، قالت إليزابيث.

إنها صور لا يستطيع الناس في الحقيقة أن يذهبوا ويروها. لذلك يقولها لي.

لماذا لا يستطيع الناس أن يروها؟ قالت أمها.

إنهم فقط لا يستطيعون، قالت إليزابيث.

صور خاصة؟ قالت أمها.

لا، قالت إليزابيث. إنها، مِثل. صور يعرفها.

لِلاعبي تنس؟ قالت أمّها. ماذا يفعل لاعبو التنس هؤلاء؟

لا، قالت إليزابيث.

يا إلهي، قالت أمها. أيّ جُرم اقترفت يداي؟

الذي فعلتهِ هو أنّك استخدمتِ دانيال كمربّيتي غير الرسمية لسنوات، قالت إليزابيث.

قلت لك. خاطبيه بالسيد غلاك، قالت أمّها. وأنا لم أستغلّه. ذلك غير صحيح البتّة. وأريدُ أنْ أعرفَ. أريد أن أعرفَ بالتفصيل. صور ماذا؟

أطلقت إليزابيث صوتا غاضبا.

لا أعرف، قالت. ناس. أشياء.

ماذا يفعل الناس في هذه الصور؟ قالت أمّها.

تنهّدت إليزابيث. أغلقت عينيها.

افتحي عينيك فورًا يا إليزابيث، قالت أمها.

عليّ أنْ أغلِق عينيّ وإلّا فأنّي لن أستطيع رؤيتها، قالت إليزابيث. اتّفقنا؟ طيّب. مارلين مونرو محاطة بالزهور، ثم هناك موجات وردية لامعة وخَضراء ورماديّة مرسومة في كل مكان حولها. باستثناء أنّ الصورة ليست صورة حقيقية لمارلين بشكل حرفي، إنها صورة لصورة لها. ذلك شيء من المهمّ تذكّره.

حقًّا؟ قالت أمّها.

مثلما يحدث لو أخذتُ صورة لك ثم رسمتُ صورة للصورة، وليس أنتِ. والورود تبدو قليلا مثل ورق الجدران المزيّن بالأزهار عِوضا عن ورود حقيقية. لكن الورود قد برزت أيضا من ورق الجدران وتلوْلبت حول عظم ترقوّة مارلين، وكأنها تعانقها.

تعانق، قالت أمها. أفهم.

وهناك شخص فرنسي، شخص كان مشهورًا في فرنسا ذات مرّة، رجل، يرتدي قبعة ونظارات شمسية، وأعلى القبعة كومة من البتلات الحمراء مثل وردة حمراء عظيمة، وهو رمادي وأسود وأبيض مثل صورة في الجريدة، ووراءه كلّ شيء برتقاليّ لمّاع، في جزء منه مثل حقل ذرة أو عُشب ذهبي، وفوقه صف من القلوب.

كانت أمّها تضع يديها على عينيها حول طاولة المطبخ.

واصلي، قالت.

تغلق إليزابيث عينيها مرة أخرى.

إحدى الصور فيها امرأة، ليست شخصا مشهورا، هي فقط مثل أيّ امرأة وهي تضحك، ترمي نوعا ما بيديها عاليا في سماء زرقاء، وخلفها في أسفل الصورة هناك جبال الآلب، لكنها صغيرة جدا، والكثير من الخطوط الملونة المتعرّجة. وعوضا عن أن يكون لها جسد أو ملابس، فإن داخل المرأة مصنوع من الصور، صور أشياء أخرى.

حدّثكِ عن جسد امرأة، عمّا هو داخل جسد امرأة، قالت أمها.

لا، قالت إليزابيث. حدثني عن امرأة صُنع جسدها من الصور عِوضا عن جسد. إنه واضح تماما.

أيّ صور؟ صور ماذا؟ قالت أمها.

أشياء، أشياء تحدثُ في العالم، قالت إليزابيث. نبتة عباد الشمس. رجل بمدفع رشاش كأنه يخرج من فيلم عصابات. مصنع. سياسي بملامح روسية. بومة، سفينة هوائية.

ويخترع السيد غلاك هذه الصور في رأسه ويضعها في جسد امرأة؟ قالت أمها.

لا، إنها حقيقية، قالت إليزابيث. هناك واحدة اسمها «إنه عالم رجال». فيها بيت فخم، والبيتلز وإلفيس بريسلي ورئيس في مؤخرة سيارة يتعرض لإطلاق رصاص.

كان ذلك حين بدأت أمها تصرخ.

فقرّرت إذنْ ألا تقول لأُمّها عن الكولاج الذي فيه رؤوس أطفال مقطوعة ومقصّ عظيم، واليد الكبيرة جدًّا

التي تخرج من سقف بناية ألبيرْ هولْ.

قررت ألا تذكر لوحة المرأة الجالسة دون ملابس على كرسيّ مُدارٍ نحو الخلف، المرأة التي أسقطت حكومة، وكل الألوان الحمراء والبقع السوداء على اللون الأحمر، تبدو، يقول دانيال، مثل غبار نوويّ.

رغم هذا، فقد قالتها أمّها في نهاية حديثهما

(وهذا ما تتذكر إليزابيث، حرفيا، تقريبا بعد عقدين، من الحديث الوارد أعلاه):

غير طبيعي.

غير صحّي.

ليس مسموحًا لك.

ممنوع.

هذا يكفي.

منذ دقيقة كان شهر يونيو. الطقس الآن سبتمبريّ. المحاصيل عالية، على وشك أن يتمّ حصادها، لامعة وذهبيّة.

نوفمبر؟ شيء لا يمكن تصوّره. على بُعدِ شهر واحد.

ما زالت الأيام دافئة، الهواء بارد في الظل. ينزل الليل بسرعة، أكثر بردا، الضوء أقل قليلا كل مرة.

يحلُّ الظلام على الساعة السابعة والنصف. يحلُّ الظلام على السابعة والربع، يحلُّ الظلام على السابعة.

الألوان الخضراء للأشجارِ أصبحت باهتة أكثر منذ أغسطس، بل في الحقيقة منذ يوليو.

لكن الأزهار ما زالت تينع. السياجات النباتية ما زالت تطنّ. مُلِئ المخزن بالتفاح والشجرة ما زالت مغطّاة بالثّمار.

العصافير على الأسلاك الكهربائية.

طيور الخطّاف غادرت منذ أسابيع. إنها على بعد مئات الأميال من هنا الآن، في مكان ما فوق المحيط.

2

لكن الآن؟ يفتح الرجل العجوز (دانيال) عينيه ليجد أنه لا يستطيع أن يفتح عينيه.

يبدو أنه قد حُبس داخلَ شيء يشبه بشكل ملحوظ جذع شجرة صنوبر أسكتلندية.

على الأقل، ستفوح رائحة مثل الصنوبر.

لا يملك وسيلة حقيقية لمعرفة الأمر. لا يستطيع أن يتحرك. ليس هناك مساحة كافية للتحرك داخل الشجرة. فمه مغلق بمادّة الراتينج الصمغية وعيناه أيضا.

هناك مذاقات أسوأ يمكن أن تكون في الفم، والحقيقة تقال، بالإضافة إلى أنّ جذع شجرة صنوبر أسكتلندي عادة ما يكون ضيقًا. مستقيما وطويلًا، لأن هذا هو النوع الجيد من الأشجار لصنع أعمدة الهواتف، للدعامات التي استخدمها البناؤون في حفر المناجم أيام كانت الصناعة تعتمد على الناس الذين يعملون في المناجم والمناجم تعتمد على الأعمدة لرفع أسقف الأنفاق بشكل آمن فوق رؤوسهم.

إذا لم يكن لديك أيّ اختيار إلا الذهاب تحت الأرض، فلتذهب في شكل شيء مفيد. إذا كان لابّد أن يقع قطعك، فإنه من الجيد أن تقضي الآخرة كرسول بين الناس عبر المناظر الطبيعية. أشجار الصنوبر طويلة. إن الأمر أحنّ بكثير منْ أن تكون محشورا في شجرة صنوبر قزمة.

من أعلى شجرة صنوبر أسكتلندية من الممكن أن ترى مسافات بعيدة.

دانيال في السرير، داخل الشجرة، ليس مذعورا. إنه لا يعاني حتى من رهاب الأماكن المغلقة. إنّ الوضع معقولٌ هنا، باستثناء العجز عن الحركة، وربما لن يدوم. لنكن متفائلين. لا، في الواقع الفعلي هو يشعر بالرضا لأن يكون محتجزا دون حركة داخل، ليس أي شجرة، وإنما نوع قديم وقابل للتأقلم ونبيل، نوع من الأشجار الذي ظهر فترة زمنية طويلة قبل الأنواع الأخرى من الأشجار ذات الأوراق؛ شجرة متعددة الاستعمالات، لا تحتاج شجرة الصنوبر الأسكتلندي إلى

كثير من العمق داخل التربة، ممتازة بشكل ملحوظ لتعمّر طويلا، شجرة تستطيع أن تعيش قرونًا كثيرة. لكن أجمل شيء في أن تكون داخل هذه الشجرة بالذات مقارنة مع بقية كل الأشجار هو حقيقة أنها متعدّدة الاستعمالات، حين يتعلق الأمر بالألوان، أكثر من أيّ شجرة عادية. يمكن أن تميل خضرة غابة أشجار صنوبر أسكتلندي نحو الزّرقة. ثمة في الربيع حبوب اللقاح، صفراء صُفرة أصباغ لمّاعة في علبة ألوان الفنّان، وافرة، سريعة الانتشار، سارقة للأضواء مثل دخان حول خدعة ساحرة. في قديم الزّمان، في الأيّام البدائيّة، كان الناس الذين أرادوا أن يظنّ الناسُ الآخرون أنّ لديهم قوى خاصة، يبعثرون حبوب اللقاح هذه حولهم في الهواء. كانوا يأتون إلى الغابة ويجمعونَها ليأخذوها إلى البيت ويستعملوها كجزء من عَرْضهم.

يمكن لأحدهم أن يتخيّل أنّ هذا الأمر يمكن أن يكون مزعجا، أمر أن يُغلق عليك داخل شجرة. يمكن لأحدهم أن يتخيّل، نعم، الحنين. لكن الرائحة تضيء اليأس. إن الأمر ربما يكون مثل ارتداء معطف من الدروع باستثناء أنه أفضل بكثير، لأن الدروع مصنوعة من مادة صقلتها السنوات نفسها.

آه.

بنت.

مَن هي؟

تشبه نوعا ما كل الصور في الجرائد، في ذلك الوقت، مِن،

ما اسمها؟

كيلر. كريستين(*).

نعم. إنها هي.

ربما لم يعد أحدٌ يعرف من هي الآن. ربما ما كان يُعتبر تاريخا في ذلك الوقت ليس الآن سوى هامشٍ، وعلى ذلك الهامش، سَينْتَبِهُ إلى أنها حافية القدمين، وحيدة في ضوء ليلة صيفية في قاعة بيت جليل وعظيم حيث، بالصدفة، (تاريخ، هامش) حَدثَ أنْ عرفَ أنّ أغنية «احكم بريطانيا» قد تم غناؤها أوّل مرّة على الإطلاق. إنها تقف بجانب حائط مغطى بالسجاد وهي تنزلق خارج فستانها الصيفي.

يسقط على الأرضية. تتطاير كل مخاريطه الصنوبرية. يتأوّه. لا تسمع شيئا.

تفك الدرع عن مشجبه وتقسّمه إلى قطع على الأرضية الخشبية. تقيس الجزء الخاص بالصدر على صدرها (رائع جدا، كلّه حقيقي). تضع ذراعيها داخل منطقة الذراعين. ليس هناك غطاء معدني على الإطلاق في المكان حيث توجد الملابس الداخلية السفلية. تضع يدها في الأسفل على الفراغ في المعدن هناك كأنها قد أدركت أنه من المرجّح أنْ تكشف نفسها، من خلال هذا الفراغ، عندما ترتدي كل الدرع.

تهزّ وَسَطها لتتخلّص ممّا تبقى من الملابس الداخلية.

تسقط على الأرض.

يتأوّه.

تخرج منه، تاركة إياه على السجاد الطويل المخصّص للمشي. يتمدّد هناك. يبدو مثل طائر شُحرور أسود دون عظام.

تقيس قطعة خاصة بالفخذ على وركها، ثم القطعة الأخرى. تتأوّه وتصرخ.

(*) كرستين كيلر هي من رسمتها بولين بوتي في لوحة بعنوان "الفضيحة 63 " إشارة إلى قضية بروفومو، وهي فضيحة سياسية بريطانية تتضمن علاقة جنسية قصيرة في عام 1961 بين جون بروفومو، وزير الدولة للحرب في حكومة هارولد ماكميلان، وبين كريستين كيلر (Christine Keeler) (1942 -)، البالغة من العمر 19 عاما حينها، حيث كانت تعمل كـ"عارضة أزياء" مع التشكيك في نشاطاتها تحت هذا الغطاء (البغاء والتجسّس السياسي). وبسبب هذه القضية استقال بروفومو من الحكومة ومن البرلمان.
بعد الكشف عن قضية بروفومو، وردت تقارير تفيد بأن كيلر قد تكون متورطة في وقت واحد مع الكابتن يفغيني ايفانوف، وهو من الملحقيّة البحرية السوفيتيّة، وبالتالي ربما تكون قد تسبّبت بمخاطر أمنيّة محتملة وسرّبت معلومات سريّة. كيلر عرفت كلا من بروفومو وايفانوف خلال صداقتها مع ستيفن وارد، وهو طبيب مختص بتقويم العظام وفنّان تشكيلي أيضًا، وكان قد أخذها تحت جناحه. وبعرض هذه القضية وُلدت شائعات عن فضائح أخرى، ولفت الانتباه الرسمي لأنشطة الطبيب، التي اتُّهِمَ فيها بسلسلة من جرائم الفجور. أُدين بتهمة التكسُّب بطريقة غير أخلاقية من وراء كيلر وصديقتها ماندي رايس ديفيس.
من الصعب على كيلر الهروب من الصورة السلبية المقيتة التي صنعتها لها الصّحافة والقانون والبرلمان خلال قضية بروفومو. ففي الستينيّات سيطرت على وسائل الإعلام البريطانية قصص التجسّس لصالح السوفييت والفضائح السياسية والاستقالات والاعتقالات. في يناير 2014 ، بعد سنوات طويلة، وُضعت القضيّة تحت الاستعراض من قبل لجنة مراجعة القضايا الجنائية، مع إمكانية تحويلها إلى محكمة الاستئناف لاحقًا.

ربما بسبب حافّة حادة، داخل الجزء الثاني من قطع الفخذ؟ تشدّ قطع الفخذ إلى مؤخرتيْ وركيها وتدخِلُ قدما حافية داخل البوط الضخم الأول. تُدخل ذراعها داخل القطع المعدنية الخاصة بالذراع، ترفع الخوذة وتقيسها على شعرها. من خلال الشقوق الموجودة في الجزء الأمامي تنظر حولها باحثة عن القفازات ذات الأكمام الطويلة. تضع واحدة. الآن إلى الثانية.

تدفع واقي الخوذة بيدها المعدنية إلى أعلى وتتطلّع بعينيها إلى الخارج.

تذهب وتقف أمام مرآة كبيرة وقديمة على الحائط. تخرج ضحكاتها برنين قصديري من خلال الخوذة. تضرب واقي الخوذة بحافة القفاز الطويل فينزل إلى الأسفل. الشيء الوحيد البارز منها هو فرجّها.

ثم تنطلق، لكن برفقٍ، حتى لا يسقط أي جزء غير مشدود بشكل جيّدٍ. تعبر الرواق مُصدِرة قعقعة وكأنّ بَذْلة مُدرّعة ليست تقريبا ثقيلة كما تبدو.

عندما تصل إلى الباب تدور وتدفعه. ينفتح. تختفي.

تنفجر الغرفة التي قد دخلتها توًّا إلى ضحكات صاخبة.

هل تستطيع ضحكة أن تكون غنيّة؟

هل تختلف الضحكة القوية عن الضحكة العادية؟

ذلك النوع من الضحكات دائما قويّ.

هناك أغنية حول هذا الأمر، يظن دانيال.

موسيقى بالاذ كريستين كيلر:

Well-heel-er. Dealer. Feeler. Squealer. Conceal her. Steal her. Mrs Peel her

آه، لا. المخلوقة الخيالية السيدة بيلْ (Peel) جاءت متأخّرة، سنتين بعد هذه المخلوقة.

لكن من المرجح أن خلْق السيدة بيلْ قد اعْتمد، جزئيا على الأقل، على السيدة كيلر، هدية صغيرة موحية (ذات إيحاء جنسي) لأذنِ الناظر.

الآن هو محشور بين كل الناس في الرواق العام لمبنى الحكومة - أين الآن؟

قاعة محكمة.

المحكمة الجنائية المركزية أولد بايلي.

ذلك الصيف.

تخيّل فقط كريستين كيلر تقيس الدِرْع. حلم بها، رغم أنه يُشاع أنّ هذا قد حدثَ.

لكن هذا، المذكور أدْناه، على وشك الحدوث، وكان شاهدًا عليه.

أولا، كيلر ضد وارد، صديقها، ستيفن أخصّائي تقويم العظام، فنان البورتريه. ليس هناك بذْلة مدرّعة لكن مع ذلك فهي مدرّعة هنا، صفيحة معدنية فاترة. منيعة. مُقنّعة. مصنوعة بشكل رائع. ميّت بلمسة إكزوتيكية.

تضع المكان في حالة شبه غيبوبة بمجرّد الحديث، مثلما قد يتحدّث واحدٌ في حالة شبه غيبوبة. ذكيّة. فارغة. إنسان آلي مثير للشهوة. دُمية حيّة. مثيرة للأحاسيس. الرواق العام يتحوّل إلى رواق عام. لا أحد يستطيع أن يفكر في أي شيء آخر، باستثناء صديقها ستيفن، الجالس في الأسفل في الصف الأمامي، الذي يخرج قلمه كل يوم ويرسم سكيتشًا لكلّ ما تقع عليه عيناه.

في الأثناء، مرّت أيام.

في الأسفل عند منصة الشهود، شخص آخر الآن، امرأة، واحدة أخرى، آنسة ريكاردو، الحقيقة تقال إنها أيضا تنحدر من طبقة أفقر من المسكينة كريستين كيلر، شابة، شعرها مصفف، لكن بخشونة على الحواف، تكوّم أحمرَ وعاليًا فوق رأسها، راقصة، أحصلُ على المال من خلال زيارة الرجال وتقديم خَدماتي لهم.

أعلنت توًّا لقاعة المحكمة أن الأقوال التي صرّحت بها للبوليس في البداية حول هذه الحالة كانت غير صحيحة.

تدافع الحاضرون في الرواق داخل المحكمة أكثر نحو الأمام. فضيحة وأكاذيب. ما تفعله المومسات. لكن دانيال يرى المرأة، فقط طفلة صغيرة في الحقيقة، تصارع لتحافظَ على وقوفها مستقيمة. يرى كيف أن وجهها، كل سلوكها، قد تحول إلى اللون الأخضر الباهت من الخوف.

شعر أحمر.

فتاة خضراء.

لم أرد أن تذهب أختي الصغيرة إلى الحبس الاحتياطي، قالت البنت. لقد أُخذ رضيعي مني. قال لي رئيس المفتشين إنهم سيأخذونَ مِنّي أختي ورضيعي إذا لم أصرّح بالأقوال. لقد هدّد أيضا بأن يقتل أخي. صدقته ولذلك صرحت بالأقوال. لكني قد قررت أني لا أريد أن أقدم أدلة خاطئة في محكمة أولدْ بايْلي. لقد أخبرت جريدة بيبلْ. أريد أن يعرف الكل لماذا كذبت.

يا إلهي.

إنها خضراء حقا.

لِمحامي الادّعاء شعر كلب صيد الثعالب. يسخر منها. يسألها لماذا بحق السماء توقّع على أقوال أصلًا إذا كان ما توقّع عليه غير حقيقيّ.

تقول له إنها أرادت أن يتركها البوليس وشأنها.

يحتجّ عليها محامي الادّعاء. لماذا لمْ تَشْكُ من أي شيء من هذا قبل الآن؟

لِمَن أستطيع أنْ أشكو؟ تقول.

كاذبة هذه المرأة ومتعمّدة، إذن، أليست كذلك؟

نعم، هي كذلك.

دانيال في الرواق يرى يدًا من يديها، اليد التي على منصة الشهود، مغطاة بالأغصان الجديدة والبراعم. البراعم متفتحة إلى نصفين. هناك أوراق تخرج من أصابعها.

ينصحها القاضي بأن تأخذ وقتها خلال الليل لتقرّر بشكل حذر، أي نسخة من الأقوال ستختار لتقول للمحكمة اليوم.

رفّة جفن.

اليوم التالي.

الفتاة في منصة الشهود مرة أخرى. اليوم هي تقريبا شجرة شابة. الآن وجهها وشعرها فقط ليس عليهما أوراق. خلال الليل، مثل فتاة في أسطورة يتم صيدها من طرف إله قد حزم أمره على النيل منها، قد غيّرت نفسها، أعادت صنع نفسها

كي لا ينال منها أحدٌ.

الرجال أنفسهم يصرخون فيها مرة أخرى. هم غاضبون منها لعدمِ الكذب حول الكذب. يسألها المدّعي العام لماذا قالت قصّتها حول الكذب لصحافي يعمل في جريدة، وليس للبوليس. يقول إنّ هذا لم يكن لائقًا، شيء غير لائق فعله، نوع من الأشياء تقوم بفعله امرأة غير شريفة مثل هذه المرأة.

ما هو المغزى مِنْ أنْ أذهبَ لأقولَ الحقيقة للناس الذين طلبوا مني أنْ أكذبَ؟ تقول.

يتنهّد القاضي. يعود إلى هيئة المحلفين.

اصرفي النظر عن هذا الدليل، يقول. أطالبك بأن تتجاهليه كليًّا.

هناك أغنية حول هذا الموضوع أيضا. يفكر دانيال وهو يشاهد النباح الأبيض يرتفع ويغطي فمها، أنفها، عينيها.

موسيقى بالاذ شجر البتولا الفضي:

High church .Lurch .Besmirch .Soul search

يذهب هو نفسه مباشرة من قاعة المحكمة تلك إلى بيت البنت التي يهيم بها حبًّا.

(إنه مغرم بها. بالكاد يستطيع أن يقول اسمها لنفسه. يحبها حبا كبيرا. لا تحبه. منذ أسابيع قليلة فقط تزوجت شخصا آخر. يستطيع أن يقول اسم زوجها دون مشكلة. اسمه كلايف.

لكنه قد رأى للتوّ شيئا معجزًا، أليس كذلك؟

لقد رأى شيئا يغيّر طبيعة الأشياء.)

يقف تحت المطر في الحديقة الخلفية. لقد انتشر الظلام الآن. يتطلع إلى نافذة البيتِ. توسّخت يداهُ وساعداهُ، وجهه، قميصه الجيّد وبذلته من سِلال القمامة وتسلّقِ السياج، كأنه ما زال شابا بشكل كافٍ للقيام بمثل تلك الأفعال.

هناك قصة قصيرة مشهورة، اسمها «الموتى» كتبها جيمس جويس، فيها يقف رجل شاب وراء بيت ويغني أغنية في ليلة باردة متجمّدة لامرأة يُحبّها. ثم يموت هذا الرجل الشاب وهو في شوق لهذه المرأة. يتعرض إلى نزلة برد في الثلج، ويموت شابا.

قمة الرومنسية! تلك المرأة في تلك القصة، ظلت أغنيةُ ذلك الرجل الشابّ تنخرها مثل سوسة الخشب، بقيّة حياتها.

حسنا، دانيال نفسه ليس رجلًا شابًا. ذلك هو المشكل إلى حدّ ما. المرأة التي هو متأكد جدًّا أنه يحبها أكثر من أي شخص آخر أحبه في حياته، المرأة التي سيلتاعُ قلبه بسببها لأجل لا شيء دون حبّها له، تصغره بعشرين سنة، و، نعم، ليس منذ مدة طويلة، أصبح هناك ذلك المتزوّج كلايف.

وبعد ذلك ثمة المسألة الزائدة الأخرى، مسألة عدم القدرة على الغناء. حسنا، ليس في تناغم. لكنه يستطيع أن يردّد أغنية. يستطيع أن يردّد الكلمات، وهي كلماته، ليست فقط أيّ كلمات قديمة.

وقد عرفتهُ لعشرة أيام فقط قبل أن تتزوّجه، أقصد كلايف. هناك دائما أمل، مع هذه الفتاة بالذات.

موسيقى بالاذ الفتاة التي تستمر في قول لا لي:

Throaty .Gloaty .Wild oat(y) .Grace-note(y) .Misquote(y) Anecdote(y)

Casting vote(y). (Furcoat(y). (Petticoat(y). Torpedo boat(y)

(Terrible.)

I'm billy goaty.

Don't be haughty.

لكن لا ضوء يأتي من أي نافذة من النوافذ. استغرق الأمر حوالي نصف ساعة من الوقوف تحت المطر حتى يسلّم أنه لا يوجد أحد هناك، وأنه كان يقف في باحة يردّد لحنا سيئا على بيت فارغ.

ذلك المقعد الأرجوحة الأنيق الذي وضعوه هناك معلّقا من السقف في غرفة المعيشة سيدور ببطء نحو هذا الاتجاه وذلك الاتجاه من تلقاء نفسه وفي الظلام.

مثير للسخرية. إنه شخص ساذج. لن تعرف أبدًا حتى أنه كان هنا، هل ستعرف؟ (صحيح. لم تعرف أبدًا.

ثم ماذا حصل بعد ذلك، حسنًا، حصل بعد ذلك، والتاريخ، الكلمة الأخرى

للسخرية، شقّ مساره الفكه الآسن، غنى أغنيته الوسخة الفكِهة، والبنت كانت هي مَن ماتت صغيرةً في القصة.

تنخره. سوسة الخشب. حتى نهايته.)

سيكون بعد ذلك الرجل العجوز محشورًا في السرير في الشجرة، دانيال، وهو طفل في قطار يمرُّ عبر غابات تتّوب كثيف. هو نحيل وصغير، يبلغ ستة عشر صيفًا من العمر لكنه يعتقد أنه رجل. إنه الصيف مرة أخرى، إنه في القارّة[18]، كلّهم في القارّة، الأشياء ليست سهلة نوعا ما في القارّة. شيء ما سيحدث قريبا. إنه يحدثُ الآن. كل شخص يعرف. لكن كل واحد يتظاهر بأنه ليس يحدث.

كل الناس في القطار يمكن أن يروا من خلال ملابسه أنه ليس من هنا. لكنه يستطيع أن يتكلم اللغة، لكن لا أحد من الغرباء حوله في القطار يعرف أنه يستطيع، لأنهم لا يعرفون من يكون، أو من تكون، أخته التي بجانبه، لا يعرفون الشيء الأول عنهما.

الناس حولهما يتحدثون عن ضرورة تطوير وسيلة علمية وقانونية لقياس مَن يكون كل شخص وماذا يفعل بالضبط.

هناك أستاذ جامعي في المعهد، الرجل الجالس قبالته يقول للمرأة. وهذا الأستاذ منهمك في اختراع وسيلة حديثة لتسجيل، بشكل علمي كبير، بعض الإحصائيات الفيزيائية.

حقًّا؟ تقول المرأة. تومئ برأسها موافقة.

أنوف، آذان، المسافة الفاصلة، يقول الرجل الجالس قبالةَ دانيال.

إنه يغازل تلك المرأة.

مقاس أعضاء الجسم، وخاصة المتعلّق بملامح منطقة الرأس، يستطيع أن يقول لك باقتضاب كل شيء تريدين أنْ تعرفيه. لون العينين، لون الشعر، حجم الجبين. لقد تم تجريبه من قبل، لكن لم يحدث أبدًا بخبرة، لم يحدث أبدًا

---

(18) هذه هي الكلمة التي يستعملها سكان بريطانيا لوصف بقية أوروبا. م.

بالضبط. إنها حالة متعلّقة أساسا بالقياس والموازنة. لكنها حالة أكثر تعقيدًا بعض الشيء، على المدى البعيد، لغربلة الإحصائيات المجموعة.

يبتسم الطفل لأخته الصغيرة.

تعيش هنا كل الوقت.

إنها تقرأ كتابها بدأب. يلْكزها. ترفع عينيها عنه. يغمزها.

تتكلمها كلغتِها الأمّ. تعرف أن المغازلة هي الطبقة الأشد رقة. تعرف تماما ما يقولون. تدير الصفحة في كتابها، تلقي نظرة عليه، ثم على الناس الجالسين قبالتها.

أسمعهم. لكن هل سأدعهم يوقِفونني عن القراءة؟

تقول هذا بالإنجليزية لأخيها. تخرجُ لهُ لسانها من فمها مُداعبةً. ثم تغرق في قراءة الكتاب.

في الخارج في ممر القطار، عندما يذهب الصبي دانيال إلى غرفة الحمام، يجد رجالا يرتدون قبعات وبوطات يغلقون الممر. كل الذي أمامه جيوب وأحزمة. ذراعاه ممدودتان باسترخاء بين جهتي الممر المؤدي إلى الحمام والعربات الأخرى. إنه يتمايل مع حركات هذا القطار وهو يعبر غابات التنوب والأراضي الزراعية وكأنه جزءا عاملا من بنيته الميكانيكية.

هل يمكن أن يكون الاتساع الهائل لصدرِ أحدهم غادرا؟

نعم، يمكن أن يكون.

بكسل، بالتأكيد، يبتسم للصبي، ابتسامة جندي في استراحة. يرفع ذراعًا إلى الأعلى حتى يستطيع الصبي أن يمر. أثناء مرور دانيال تنزل ذراع الجندي بشكل كاف لتحتكّ من خلال قماش قميصه بالشعر على أعلى رأسه.

تفضّل، قال الجندي.

صبيٌّ في القطار.

غمزةُ عين.

رجلٌ مسنّ في السرير.

الرجل المسنّ في السرير مقيّد.

معطف من الخشب.

(ي).

اقطعْ هذه الشجرة التي أعيش فيها حتى تهوي. جوّف جذعها.

أعدْ خلقي من جديد بما أخرجت من جذعها.

أعدْ برفق الأنا الجديد إلى داخل الجذع القديم.

أحرقني. أحرقْ الشجرة. بعثر الرماد، من أجل الحظّ، حيث تريد أن ينمو المحصولُ السنة القادمة.

لِذْني مرة أخرى من جديد

أحرقني والشجرة

تحت شمس الصيف القادم

لتتأكّد من قدوم الشمس في منتصف الشتاء

ما زلنا في شهر يوليو. تذهب إليزابيث إلى عيادة طبيب والدتها في منتصف البلدة. تنتظر في الطابور مع الناس. عندما تصل إلى مقدمة الطابور، تقول لموظفة الاستقبال إن أمها مسجلة في هذه العيادة وأنها هي نفسها ليست مسجّلة هنا لكنها تشعر بالتعب وتودّ أن تتحدث مع طبيب، ربما ليس بشكل مستعجل، لكنها تشعر أنه ثمة شيء ليس على ما يرام.

تبحث موظفة الاستقبال عن اسم أمّ إليزابيث في الكمبيوتر. تقول لإليزابيث إن أمّها ليست مسجلة في هذه هذه العيادة.

بلى، إنها مسجلة هنا، تقول إليزابيث. إنها بالتأكيد مسجلة هنا.

تضغط موظفة الاستقبال على ملف آخر ثم تذهب إلى الجزء الخلفي من الغرفة وتفتح درجا في خزانة ملفات. تُخرج ورقة، تقرأها، ثم تعيدها وتغلق الدرج. تعود وتجلس.

تقول لإليزابيث إنها تخشى أن تقول لها إنّ أمها لم تعد مسجلة في قائمة المرضى.

إن أمي بالتأكيد لا تعرف ذلك، تقول إليزابيث. إنها تظن أنها مسجلة هنا في قائمة المرضى. لماذا شطبتموها من القائمة؟

تقول موظفة الاستقبال إن هذه معلومات سرية وأنه ليس مسموحا لها أن تقول لإليزابيث أي شيء عن أي مريض آخر غير إليزابيث نفسها.

حسنا، هل أستطيع أن أسجّل وأرى الطبيب على أيّ حال؟ تقول إليزابيث. أشعر أني مريضة حقًّا. أود فعلا أن أتحدث مع أحد الأطباء.

تسألها موظفة الاستقبال إذا كان عندها بطاقة تعريف.

تُري إليزابيث موظفة الاستقبال بطاقة المكتبة الجامعية.

صالحة حتى أفقد عملي، على الأقل، تقول، ستفقد كل الجامعات الآن 16% من تمويلها.

تبتسم موظفة الاستقبال ابتسامة مريض. (ابتسامة تبتسمها خاصّة للمرضى.)

أخشى أننا نحتاج إلى شيء عليه عنوان بيتك الحالي ومن المفضل أن يكون مصحوبا بصورة فوتوغرافية لك، تقول.

تريها إليزابيث جواز سفرها.

هذا الجواز مُنتهِ الصلاحية، تقول موظفة الاستقبال.

أعرف، تقول إليزابيث. أنا بصدد تجديده.

أخشى أننا لا نستطيع أن نقبل بطاقة تعريف منتهية الصلاحية، تقول موظفة الاستقبال. هل معك رخصة قيادة؟

تقول إليزابيث لموظفة الاستقبال إنها لا تسوق السيارة.

ماذا عن فاتورة مَرافِق؟ تقول موظفة الاستقبال.

ماذا، معي؟ تقول إليزابيث. الآن؟

تقول موظفة الاستقبال إنها فكرة جميلة دائما أن تحمل معك فاتورة مَرافق دائمًا للاستظهار بها في حالة أراد شخص أن يتثبت من هويّتك.

ماذا عن كل هؤلاء الناس الذين يدفعون فواتيرهم على الإنترنت ولم تعد تصلهم فواتير ورقية؟ تقول إليزابيث.

تنظر موظفة الاستقبال بشوق إلى هاتف يرنّ على الجهة اليسرى من مكتبها. تقول لإليزابيث دون أن ترفع عينيها عن الهاتف الذي ما يزال يرنّ، إنّه من السهل تماما أن تطبعي فاتورة باستخدام طابعة عادية.

تقول إليزابيث إنها تقيم حاليا مع أمها، وأنها بعيدة ستين ميلا من هنا، وأن أمها لا تملك طابعة.

تبدو موظفة الاستقبال في الحقيقة غاضبة من فكرة أنّ أم إليزابيث ربما لا تملك طابعة. تتحدث عن المنطقة التي تغطيها الخدمة الطبية وتسجيل المرضى. تدرك إليزابيث أنها تريد أن تقول بما أن أمها تعيش خارج المنطقة التي تغطيها الرعاية الطبية لهذه العيادة فإنها لا ينبغي أن تكون هنا في هذه البناية.

من السهل تماما أيضا أن تقلّد فاتورة وتنسخها. وأن تتظاهر بأن تكون شخصا حقيقيا، تقول إليزابيث. وماذا عن كل الناس الذي يقومون بالاحتيال؟ كيف يمكن لوجود اسمك على ورقة مطبوعة أن يجعلك تكون من تكون؟

تخبر موظفة الاستقبال عن المحتال الذي يسمي أو تسمي نفسها آنا بافلوفا،

الذي ما فتئ تصله كشوفات الحسابات البنكية من بنك «ناتوسث» خلال السنوات الثلاث الماضية على عنوان شقتها، رغم أنها قد أخبرت بنك «ناتوسث» بشكل متكرر وتعرف بالتأكيد أنه لم يعش هناك أحد باسم آنا بافلوفا خلال عشر سنوات على الأقل وهي الفترة التي عاشتها هي نفسها هناك.

ماذا تستطيع قطعة من الورق أن تثبتَ، بالضبط، في النهاية إذن؟ تقول إليزابيث.

تنظر موظفة الاستقبال إليها وقد بدت تعابير وجهها قاسية. تسأل إذا كان بوسع إليزابيث أن تتركها لحظة. ترد على الهاتف.

تطلب من إليزابيث بحركة من عينيها أن تتنحى جانبا بعيدا عن المكتب حين ترد على المكالمة. ثم ولتكون أكثر وضوحا تضع يدها على سماعة الهاتف وتقول، اسمحي لي بأن أطلب منك أن أمنح المتكلم الخصوصية الضرورية.

هناك طابور صغير من الناس الذين يصطفون خلف إليزابيث وكلهم ينتظرون دورهم للحديث مع موظفة الاستقبال.

تذهب إليزابيث لمركز البريد عوضا عن البقاء هنا.

يكاد مركز البريد يكون خاليا اليوم، باستثناء طابور الناس الذين ينتظرون دورهم لاستخدام ماكينات الخدمة الذاتية. تأخذ إليزابيث تذكرة. 39. تتم الآن خدمة الرقمين 28 و29، بالرغم من أنه ليس هناك أي شخص على النافذة إطلاقا، سواء من جهة مركز البريد أو جهة العملاء.

بعد عشر دقائق تأتي امرأة من الباب الخلفي. تنادي بصوت عال على الرقمين 30 و31. لا أحد يجيب.

فتقوم بتقديم الماكينة المضاءة حتى تصل الأرقام الأخيرة من الثلاثينيات، منادية على الأرقام في الأثناء.

تأتي إليزابيث إلى النافذة وتقدم للمرأة الظرف الذي يحتوي على مطلب جواز سفرها والصور الجديدة، التي يبدو فيها مقاس وجهها صحيحا (لقد قامت بقياسها). تريها الإيصال الذي يثبت أنها قد دفعت 9,75 جنيهات لخدمة «تثبت

وأرسل» الأسبوع المنصرم.

متى تنوين السفر؟ تقول المرأة.

تهز إليزابيث كتفيها. لا خطط بعد، تقول.

تنظر المرأة إلى الصور.

هناك مشكلة للأسف، تقول المرأة.

ماذا؟ تقول إليزابيث؟

الشعرة التي هنا يجب أن تكون خارج محيط الوجه.

إنها خارج محيط الوجه، تقول إليزابيث. تلك جبهتي. إنها لا تلمس الوجه.

يجب أن تكون إلى الوراء خارج محيط الوجه، تقول المرأة.

إذا أخذت صورة لنفسي بالشعرة حيث هي ليست في المكان الذي هي فيه الآن، تقول إليزابيث، فإني لنْ أشبه نفسي في الواقع.

ما هو الهدف من صورة جواز سفر لم تشبهني في الواقع؟

سأقول إنها تلمس العينين، تقول المرأة.

تدفع المرأة كرسيها إلى الخلف وتأخذ الصور إلى الزاوية حيث يتم إصدار البطاقات النقدية للمسافرين. تريها لرجل هناك. يأتي الرجل إلى النافذة معها.

ربما هناك مشكلة مع صورتك، يقول، بسبب لمس شعرك لوجهك.

على أي حال، الشعر لا علاقة له بالموضوع. عيناك صغيرتان أكثر مما ينبغي.

يا إلهي، تقول إليزابيث.

يعود الرجل إلى شباك خدمة تقديم البطاقات النقدية للمسافرين. تقوم المرأة بإدخال صور إليزابيث في حركة تنزلق صعودا وهبوطا داخل ظرف بلاستيكي شفاف مسطّر ذي قياسات وعلامات داخل مربعات مختلفة مطبوعة عليه عرضا وطولا.

عيناك في الصورة ليستا متموضعتين بشكل يتناسب مع القواعد المسموح بها داخل المنطقة المظلّلة، تقول. إنّها ليست متناظرة. هذا يجب أن يكون في الوسط، كما ترين، إنه بجانب أنفك. للأسف، لا تتوفر في هذه الصور الشروط المطلوبة. سيكون أحسن إذا ذهبت إلى محل سنابي سنابش للتصوير، عِوضا عن كشك التصوير.

ذلك تماما ما قاله الرجل الذي رأيته هنا الأسبوع الماضي، تقول إليزابيث. ما هو سر هذه العلاقة بين مركز البريد هذا ومحل سناپي سنابش للتصوير؟ هل يعمل أخُ أحدٍ ما في محل سناپي سنابش للتصوير؟

لقد نُصحْتِ إذن أن تذهبي إلى محل سناپي سنابش للتصوير لكنك قررتِ ألا تذهبي، تقول المرأة.

تضحك إليزابيث. ليس بوسعها ألا تضحك؛ تنظر المرأة بصرامة وعبوس شديدين إليها احتجاجا على عدم ذهابها إلى محل سناپي سنابش للتصوير.

ترفع المرأة الظرف البلاستيكي الشفاف وتُري إليزابيث مرة أخرى صورة وجهِها تحت صندوق مظلّل.

للأسف الجواب هو لا، تقول المرأة.

انظري، تقول إليزابيث. فقط أرسلي هذه الصور إلى مكتب الجوازات. سأتحمّل المسؤولية. أظن أن كل شيء سيكون على ما يرام.

تبدو المرأة وكأنها قد تعرّضت لإهانة.

إذا لم يقبلوها، تقول إليزابيث، فإني سأعود وأراك مرة أخرى قريبا وأقول لك إنك قد كنتِ على حق وإني قد كنت مخطئة، كان شعري جزءا من المشكلة وكانت عيناي في المكان الخاطئ تماما.

لا، لأنك إذا قمت بتقديم هذا المطلب من خلال «خدمة تثبت وأرسل» اليوم، فإن هذه ستكون المرة الأخيرة التي سيكون لهذا المكتب أي علاقة بهذا المطلب، تقول المرأة. بمجرد أن يتم تقديم المطلب، فإنّ مكتب الجوازات يصبح هو الجهة التي ستقوم بالاتصال بك بخصوص المواصفات التي لمْ تتمّ تلبيتها.

تماما، تقول إليزابيث. شكرا. أرسليها. سأجرّب حظي. وهل تستطيعين أن تقدمي لي خدمة؟

تبدو المرأة في حالة شديدة من القلق.

هل تستطيعين أن تبلغي سلامي لزميلك الذي يعمل هنا والذي يعاني من حساسية من المأكولات البحرية؟ قولي له إن المرأة ذات الرأس بالمقاس الخاطئ

ترسل لك أجمل الأمنيات وترجو أن تكون بخير.

ذلك الوصف؟ تقول المرأة. اعذريني، لكن. يمكن أن يكون أيّ شخص. واحد من آلاف.

تكتبُ بقلم حبر جاف على إيصال إليزابيث: اختارت العميلةُ أن ترسل الصور على مسؤوليتها.

تقف إليزابيث خارج مكتب البريد. تشعر بتحسن. الطقس بارد، ممطر.

ستذهبُ وتشتري كتابا من متجر الكتب المستعملة.

ثم ستذهبُ لترى دانيال.

يحتاج الأمرُ إلى جزءٍ من جزء من الثانية لتدخلَ بياناتُ إليزابيث إلى الكمبيوتر. بعدئذ تعيدُ لها موظفةُ الاستقبال بطاقةَ هويّتها بعد أن تقوم بتصويرها بتقنية المسح الضوئي.

دانيال نائم. تقوم، الممرضة المساعدة، وهي واحدة أخرى مختلفة اليوم، بتنظيف الغرفة بممسحة تفوح منها رائحة مواد منظفة بعطر الصنوبر.

تتساءل إليزابيث عما سيحدث لكل الممرضات المساعدات. تدرك أنها لم تلتقِ إلى حد الآن بأي ممرضة مساعدة ليست من مكان آخر في هذا العالم. ذلك الصباح كانت قد سمعت على الراديو أحد المتحدثين الرسميين يقول، لكن ليس فقط أننا كنا نشجع خطابيًا وعمليًا عكس الاندماج بالنسبة <u>للمهاجرين</u> في هذه البلاد. المسألة هي أننا كنا نشجع <u>أنفسنا</u> خطابيا وعمليا على اللّااندماج. لقد فعلنا هذا كإجراء للإشراف الأمني الذاتي منذ أن علّمتنا تاتشر[19] أن نكون أنانيين وأنه ليس ثمة شيء اسمه المجتمع.

بعدئذ قال المتحدث الرسمي الآخر في الحوار، حسنا. تستطيع أن تقول ذلك. عليك أن تتخلص من هذه العقدة وتتصرف مثل شخص بالغ. لقد انتهى وقتك. الديمقراطية. لقد خسرت.

وكأن الديمقراطية توجد في قارورة يستطيع أحدهم أن يهدّد بتهشيمها وإحداث شيء من الضرر بها. لقد أصبح الوقتُ وقتَ ناس يقولون أشياء بعضهم لبعض دون أن يكونوا قادرين أبدا على الخوض في حوار بشكل فعلي.

إنها نهاية الحوار.

تحاول أن تفكر متى بالضبط تحول الأمر إلى ما هو عليه، ولكم من الوقت كان على مثل هذا الحال دون أن يثير انتباهها.

---

(19) مارغريت هيلدا ثاتشر (1925-2013) هي سياسية بريطانية، وهي المرأة الأولى التى شغلت منصب رئيسة وزراء في تاريخ بريطانيا العظمى ومدة حكمها هى الأطول. وفى الأونة الاخيرة أصبحت واحدة من أهم الشخصيات الهامة والمؤثرة في تاريخ المملكة المتحدة. وبسبب السياسات التى اتبعتها مارغريت ثاتشر خلال فترة حكمها كرئيسة للوزراء ظهرت العديد من الجماعات التى أيدتها، وعلى صعيد آخر وقف ضدها العديد من أحزاب المعارضة. م.

تجلس بجانب دانيال. سقراط النائم.

كيف حالك اليوم، يا سيد غْلاك؟ تقول بهدوء مقتربة من أذنه النائمة.

تخرج كتابها الجديد \ القديم وتفتحه على الصفحة الأولى: هدفي هو أن أخبر عن أجساد تحولت إلى هيئات مختلفة عن نوعها الأول. يا أيتها القوى السماوية، بما أنك مسؤولة عن تلك التغييرات، كما كنت مسؤولة عن كل التغييرات الأخرى، باركي محاولاتي، وأديري خيطا غير مكسور من الشعر، من البدايات الأولى للعالم، باتجاه أزمنتي.

يبدو دانيال اليوم مثل طفل، لكن برأس رجل عجوز.

بينما تراقبه ينام، تفكر في آنا بافلوفا، ليست الراقصة، وإنما المحتال الذي فتح حسابًا بنكيًّا في بنك ناتوستْ على عنوان إليزابيث.

أي نوع من المحتالين تسمي نفسها - على افتراض أنها أنثى - على اسم راقصة باليه؟ هل كانت فعلا تظن أن العاملين في بنك ناتوستْ لن يشكّوا في شخص يستخدم اسم آنا بافلوفا؟ أم أن الحسابات البنكية يتم فتحها عن طريق الآلة الآن والآلات لا تعرف كيف تقيس تلك الأمور؟

علاوة على ذلك، ماذا تعرف إليزابيث؟ من الممكن أن يكون اسما ليس بتلك الدرجة من الغرابة. ربما هناك مليون آنا بافلوفا وآنا بافلوفا الآن في العالم. ربما «بافلوفا» هو المرادف الرّوسيّ للَقَب «سميث» واسع الشّيوع.

محتالة مثقفة. محتالة حساسة. راقصة باليه أولى خفيفة على رجليها معبّرة بشكل عبقري وموهوبة بشكل استثنائي ومحتالة أسطورية. محتالة من نوع الأميرة النائمة والبجعة المحتضرة.

تتذكر أمها وقد اقتنعت في وقت ما، منذ فترة طويلة خلال البداية، أنّ دانيال، ولأنه قد كان نحيلا جدا، ويبدو مثل عفريت شقيّ ورشيق - بشكل كبير إلى درجة أنه وهو في الثمانين كان أفضل من أمها في صعود السلم إلى العلّية، أمّها التي كانت حينها في الأربعين - كان في وقت ما من حياته راقص باليه، كان ربما راقصا مشهورا قد تقدّم به العمر.

أيّهما تختارين؟ قال دانيال ذات مرة. هل يجب أن أُرضي فضولها وأقول لها إنّ تخمينها صحيح، وأني راقص باليه متقاعد من «فرقة رامبارت» للرقص؟ أم هل يجب أن أقول لها الحقيقة العادية عارية كما هي؟

قل لها كذبة بالتأكيد، تقول إليزابيث.

لكن فكّري بما سيحدث إذا فعلت، قال دانيال.

ستكون فكرة عبقرية، قالت إليزابيث. ستكون فكرة مسلّية حقا.

سأقول لك ما الذي سيحدث، قال دانيال. هذا. أنا وأنت سنعرفُ أنني قد كذبت، لكن أمك لن تعرف. أنا وأنت سنعرفُ شيئا لا تعرفه أمك. سيجعلنا ذلك الأمر نشعرُ بالاختلاف ليس فقط نحو أمك لكن نحو بعضنا. سيُدقُّ إسفينٌ بيننا. ستتوقّفين عن منحي ثقتك، وهذا عين الصواب، لأني سأكون كذّابا. سَيَقِلّ شأنُ كلّ منا بسبب الكذبة. إذن. هل ما زلت على رأيك في اختيار الباليه؟ أم هل يجب أن أقول لها الحقيقة الأكثر حزنًا وأسى؟

أريد الكذبة، قالت إليزابيث. إنها تعرف أشياء كثيرة لا أعرفها. أريد أن أعرف أشياء لا معرفة لها بها.

قوة الكذبة، قال دانيال. دائما ما تكون مغرية لمن لا قوة لهم. لكن كيف ستُساعد مسألة كوْني راقصًا متقاعدًا بأيّ شكل فِعْلِيّ في مسألة مشاعر الضّعف لديك؟

هل كنتَ راقصا؟ قالت إليزابيث.

ذلك سرّي، قال دانيال. لنْ أُفشِيَه أبدًا لأيّ إنسان. لن أُفشِيَه أبدًا مقابل أيّ أموال.

كان يوم ثلاثاء في شهر مارس سنة 1998. كانت إليزابيث في الثالثة عشرة من عمرها. وكانت تتمشّى في الخارج في ضوء المساء الباكر مع دانيال، رغم أن أمها قد طلبت منها ألا تفعل.

تمشّيا عابرين الحوانيت، ثم اتّجها إلى الحقول حيث كانت تقام المباريات الرياضية الصيفية بين المدارس، وحيث أُقيمَ المهرجان والسيرك. كانت إليزابيث قد جاءت آخر مرّة إلى الحقل مباشرة بعد رحيل السيرك، لتلقي نظرة بشكل خاص على المكان الخالي والمسطّح الذي نصب فيه السيرك خيمته. كانت تحب أن تفعل أشياء تبعث على الكآبة مثل هذه. لكنك الآن لا تستطيع أن تجزم أنّ أيًّا من هذه الأنشطة الصيفية قد حدثت على الإطلاق. كان ثمة حقلٌ خالٍ فقط. أصبحت الملاعب الرياضية باهتة وامّحت خطوطها. العشب المسوّى بالأرض، الأماكن التي تحولت إلى طين حيث تمشّت الجموع بين ألعاب قطارات الملاهي والمقطورات المفتوحة والمليئة بألعاب الرماية وسيارات السباق الصغيرة، حلقة السيرك الشبح: لا شيء سوى العشب.

لسبب ما لم يكن هذا الشعور يُشبه في أيّ جانب منه الشعوربالكآبة. كان شيئا آخر، يتعلق بكيفية أنّ الكآبة والنوستالجيا لم تكونا مرتبطتين بالموضوع في حدّه الأدنى. لقد حدثت الأشياء ببساطة. ثم انتهت. وهكذا مرّ الوقت. لقد شعرت بالانزعاج نوعا ما وحتى قلة الأدب بسبب التفكير بذلك الشكل. وشعرت جزئيًّا بالرضا والارتياح نوعا ما.

وراء الحقل كان هناك حقل آخر. بعدئذ كان هناك النهر.

أليست مسافة بعيدة قليلا أن نمشي على امتداد مجرى النهر؟ قالت إليزابيث.

لم تكن تريده أن يضطر للمشي مسافة بعيدة إذا كان فعلا مسنّا جدًّا كما كانت والدتها دائما تقول.

ليس بالنسبة لي، قال دانيال. مجرّد شيء تافه.

ماذا؟ قالت إليزابيث.

تافه، قال دانيال. لا شيء. شيء تافه.

ماذا سنفعل خلال المسافة هناك ذهابا وإيابا؟ قالت إليزابيث.

سنلعب لعبة البغاتيلة، قال دانيال.

وهل البغاتيلة لعبة حقا؟ قالت إليزابيث. أمْ أنك قد اخترعتها للتو؟

أعترف أنها لعبة جديدة جدًّا بالنسبة لي أيضا، قال دانيال. تريدين أن تلعبي؟

هذا يعتمد على أمور أخرى، قالت إليزابيث.

طريقة اللعب هي: أقول لك السطر الأول من قصة، قال دانيال.

طيب، قالت إليزابيث.

ثم تروين لي القصة التي تخطر على بالك عندما تسمعين ذلك السطر الأول، قال دانيال.

مثل، قصة موجودة بالفعل؟ قالت إليزابيث. مثل جولدي لوكس والدببة الثلاثة (Goldilocks and the three bears)؟

هؤلاء الدببة المساكين، قال دانيال. تلك الفتاة السيئة الشريرة الوقحة المخربة. تذهب إلى بيتهم دون أن تكون مدعوة أو حتى تعلن عن مجيئها. تكسر أثاثهم. تأكل مؤونتهم. تكتب اسمها ببخّاخ الطلاء على جدران غرف نومهم.

إنها لا تكتب اسمها على جدرانهم، قالت إليزابيث. ذلك ليس في القصة.

من قال؟ قال دانيال.

تعود أصول القصة إلى زمن بعيد، ربما قبل أن يوجد بخّاخ الطلاء، قالت إليزابيث.

من قال؟ قال دانيال. من قال إن القصة ليست تحدث الآن؟

أنا، قالت إليزابيث.

حسنا، ستخسرين في لعبة البغاتيلة، إذن، قال دانيال، لأن مغزى البغاتيلة هو أن تستهيني بالقصص التي يعتقد الناس أنها منحوتة في الصخر. ولا، ليس ذلك النوع من الاستهانة.

أعرف، قالت إليزابيث. يا إلهي. لا تقلّل من شأني.

أقلّل من شأنك؟ قال دانيال. أنا (قالها بالفرنسية)؟ الآن. أي نوع من القصص

تريدين أن تستهيني بها معي؟ تستطيعين أن تختاري.

وصلا إلى مقعد طويل على جانب النهر؛ كانت الحقول وراءهما على مسافة بعيدة. كانت أول مرة تجتازها فيها إليزابيث دون أن تشعر بأن الأمر استغرق وقتا طويلا.

ما هو الاختيار المتاح؟ قالت إليزابيث؟

يمكن أن يكون أي شيء، قال دانيال.

مثل الحقيقة أو الكذب؟ ذلك النوع من الاختيار؟

متعارضان قليلا، لكن نعم، إذا اخترت، قال دانيال.

هل أستطيع أن أختار بين الحرب والسلم؟ قالت إليزابيث.

(كانت هناك حربٌ في نشرة الأخبار كل يوم. ثمّة حصارات، وصور أكياس تحتوي جثثا. كانت إليزابيث قد بحثت عن كلمة «مذبحة» في القاموس لتتأكّد ممّا تعني حرفيّا. إنها تعني أن تقتل كثيرا من الناس بشكل خاص جرّاء التعنيف والقسوة.)

أنت محظوظة، هناك بعض الخيارات في المسألة، قال دانيال.

أختار الحرب، قالت إليزابيث.

بالتأكيد تختارين الحرب؟ قال دانيال.

هل جُملة بالتأكيد تختارين الحرب هي أوّل سطر في القصة؟ قالت إليزابيث.

يمكن أن يكون، قال دانيال. إذا كان ذلك ما تختارين.

من هي الشخصيات؟ قالت إليزابيث.

تخترعين واحدة وأخترع واحدة، قال دانيال.

رجل مسلّح، قالت إليزابيث.

حسنا، قال دانيال. وأنا أختار رجلا قد وصل متنكرا على شكل شجرة.

ماذا؟ قالت إليزابيث. غير ممكن. من المفترض أن تقول شيئا مثل رجل مسلّح آخر.

لمَ عليّ أن أقول ذلك؟ قال دانيال.

لأنها الحرب، قالت إليزابيث.

عندي بعض الإضافات للقصة أيضا، وأنا أختار شخصا يرتدي زيّا على هيئة شجرة، قال دانيال.

لماذا؟ قالت إليزابيث.

لن يُريحَ الإبداعُ شخصيّتَك في هذه اللعبة، قالت إليزابيث. شخصّيتي تمتلك سلاحا.

ليس ذلك كل ما تملكين وليست مسؤوليتك الوحيدة هنا، قال دانيال. عندك أيضا شخص يملك القدرة على أنْ يُشبه شجرة.

الرصاصات أسرع وأقوى من زيّ على شكل شجرة وسوف تخترق ذاك الزيّ وتتلفه، قالت إليزابيث.

هل هذا هو العالم الذي تريدين أن تخترعيه؟ قال دانيال.

ليس هناك فائدة من اختلاق عالم، قالت إليزابيث، عندما يكون هناك عالم حقيقي.

هناك العالم فقط، وهناك الحقيقة حول هذا العالم.

تقصدين، هناك الحقيقة، وهناك النسخة المختلقة منها التي تقال لنا حول العالم، قال دانيال.

لا. العالم موجود. القصص يتمّ اختراعها، قالت إليزابيث.

لكنها ليست أقلّ حقيقية بسبب ذلك، قال دانيال.

ذلك حديث مجنون جدا، قالت إليزابيث.

ومَن يخترع القصة يخترع العالم، قال دانيال. حاولي إذن أن ترحبي دائما بالناس في بيت قصّتك. ذلك ما أقترحُهُ عليك.

كيف يرحّب اختراع القصص بالناس؟ قالت إليزابيث.

ما أقترحه، قال دانيال، هو أنه، إذا كنتِ تحكين قصة، فافترضي دائما حسن النية في شخصياتك وبالقدر نفسه كما كنت تودّين أن يعاملك الآخرون.

كما هو الحال حين نعيش على الإعانة الاجتماعية؟ مثل إعانة البطالة؟

قالت إليزابيث.

افتراض حسن النية ضروري، قال دانيال. وإمنحيهم الاختيار دائما ـ حتى تلك الشخصيات التي تحب شخصا لا يملك شيئا غير زيّ على شكل شجرة بينه وبين رجل مسلّح. وأعني هنا شخصيات يبدو أنها لا تملك أي اختيار على الإطلاق. امنحيهم بيتًا دائما.

لماذا يتوجب عليّ فعل هذا؟ قالت إليزابيث. أنت لم تمنح جولدي لوكس بيتا.

هل منعتها ولو للحظة من الذهاب إلى ذلك البيت حاملة بخاخ الطلاء؟ قال دانيال.

ذلك لأنك لم تستطع منعها، قالت إليزابيث، لأن ذلك كان جزءا من القصة تفعله كل مرة تُروى فيها القصة ـ تمشي إلى بيت الدببة. يتوجب عليها أن تفعل ذلك. وإلا لما كانت هناك قصة. أليس كذلك؟ باستثناء الجزء المتعلق ببخّاخ الطلاء. الجزء الصغير الذي قمتَ أنتَ باختراعه.

هل أنّ علبة بخاخ الطلاء هذه أكثر اختراعا من بقية القصة؟ قال دانيال.

نعم، قالت إليزابيث.

ثم فكرت في المسألة.

آه، قالت. أقصد، لا.

وإذا كنت الحكواتي فإني أستطيع أن أحكي القصة بأي شكل أريد، قال دانيال. وهكذا دواليك. إذا كنت ـ

كيف نستطيع إذن أن نعرف ما هو حقيقيّ؟ قالت إليزابيث.

الآن أصبح للحديث معنى، قال دانيال.

وماذا لو، طيّب، قالت إليزابيث، ماذا لو كانت جولدي لوكس تفعل ما تفعله لأنه لم يكن لديها اختيار؟ ماذا لو كانت مثلًا متضايقة جدا بسبب العصيدة الساخنة أكثر من اللازم، وذلك ما جعلها تعبث ببخّاخ الطلاء بشكل مجنون؟ ماذا لو كانت العصيدة الباردة تجعلها دائما متضايقة بسبب شيء من ماضيها؟ ماذا لو كان قد حدث شيء في حياتها وكان فظيعا جدا والعصيدة قد ذكرتها به، ولذلك

كانت متضايقة جدا إلى درجة أنها قد كسرت الكرسي وعبثت بالأسرّة المرتّبة؟

أوْ ماذا لو كانت مجرد مُخرّبة؟ قال دانيال، مخرّبة ذهبت إلى أماكن وشوّهتها لا لسبب سوى ما قررتُهُ أنا الشخص المسؤول عن القصة، وهو أن كل جولدي لوكس هي فقط هكذا؟

أنا شخصيا يجب أن أفترض فيها حسن النية، قالت إليزابيث.

أنت الآن جاهزة، قال دانيال.

جاهزة لأي شيء؟ قالت إليزابيث.

جاهزة لتلعبي لعبة البغاتيلة كما هي، قال دانيال.

التصوير بأسلوب تايمْ لابسْ لمليونِ مليار زهرة تفتح رؤوسها، لمليونِ مليار زهرة تنحني، تغلق رؤوسها مرة أخرى، لمليون مليار زهرة جديدة تتفتّح محلّها، لمليون مليار برعم تصبح أوراقا ثم تسقط هذه الأوراق لتتحلّل في الأرض، لمليون مليار غُصَين تنقسم إلى مليون مليار برعم جديد.

إليزابيث، جالسة في غرفة دانيال في مصحة مالتينغز.بي.آل.سي بعد أقل من عشرين سنة بقليل، لا تتذكر شيئا من ذلك اليوم أو تلك الجولة على الأقدام أو الحوار المذكور في الجزء السابق. لكن ها هي القصة التي رواها دانيال فعلا، محفوظة، وقد تم إنقاذها كاملة من مكان في مخزن خلوي بالدماغ البشري يبقى سليما لكنه يُحفظ بعيدا أبعادَ كل شيء نعيشه (بما في ذلك الهواء الأكثر اعتدالا لمساء شهر مارس، رائحة الفصل الجديد في الهواء، ضجيج حركة المرور في البعيد وكل شيء آخر فهمته أحاسيسها واِستوعبتْهُ مداركها من الزمان والمكان وحضورها فيهما).

من المستحيل أن أتحمل عناء التفكير في قصة فيها شخصية ترتدي زيّا على شكل شجرة، قالت إليزابيث. لأنه لا أحد في كامل مداركه العقلية يستطيع أن يجعل تلك القصة أفضل.

هل هذا تحدّ لمَداركي العقلية؟ قال دانيال.

دون شك، قالت إليزابيث.

طيب إذن، قال دانيال. ستقبلُ مداركي العقلية التحدي.

هل أنت متأكدة أنك تريدين الحرب؟ قال الشخص الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة.

كان الشخص الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة يقف وأغصانه إلى أعلى في الهواء مثل مَن يرفع يديه في الهواء. رجل ذو سلاح كان يوجه السلاح باتجاه الشخص الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة.

هل تهددني؟ قال الرجل الذي يحمل سلاحا.

لا، قال الرجل الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة. أنت مَن يحمل السلاح.

أنا شخص مسالم، قال الرجل الذي يحمل سلاحا. لا أحب المشاكل. هذا هو السبب الذي يجعلني أحمل سلاحا. وهذا لا يعني أنه لدي أية مشاكل مع ناس مثلك عموما.

ماذا تقصد بناس مثلي؟ قال الشخص الذي يرتدي زيّا مثل شجرة.

الذي قد قلته. الناس الذين يرتدون زيّ الفنّ الإيمائي الغبي، زيّا على شكل شجرة، قال الرجل الذي يحمل سلاحا.

لكن لماذا؟ قال الرجل الذي يرتدي زيًّا على شكل شجرة.

فكر فيما سيصبح عليه الحال لو ارتدى كل شخص زيّا على شكل شجرة، قال الرجل الذي يحمل سلاحا. سيصبح الحال كما لو كنا نعيش في غابة. ولسنا نعيش في غابة. لقد أصبحت هذه البلدة بلدة من قبل أن أولد. إذا كانت مناسبة بشكل كافٍ لوالديَّ وأجدادي وأجداد أجدادي.

ماذا عن الزيّ الذي ترتديه؟ قال الشخص الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة.

(كان الرجل الذي يحمل سلاحا يرتدي بنطال جينز، قميصًا دون ياقة وقبعة بيسبول.)

هذا ليس زيّا، قال الرجل. هذه ملابسي.

حسنا، هذه ملابسي. لكني لا أنعت ملابسك بالغباء، قال الشخص الذي يرتدي زيّا على شكل شجرة.

أها، لأنك لا تتجرّأ، قال الرجل الذي يحمل سلاحا.

لوّح بسلاحه مهدّدًا.

وفي كل الحالات، ملابسك غبيّة قطعًا، قال. الأشخاص الأسوياء لا يخرجون إلى الشارع مرتدين أزياء على شكل شجرة. على الأقل، لا يفعلون ذلك هنا. الله أعلم ماذا يفعلون في المدن والبلدات الأخرى، حسنا، الأمر متروك لهم. لكن إذا تصرفت كما يحلو لك فإنك ستجعلُ أطفالنا يرتدون أزياء على شكل شجرة ونساءنا يرتدين أزياء على شكل شجرة. لابدّ من القضاء عليها في المهد.

رفع الرجل المسلّح سلاحه ولوح به مهدّدًا. دعَم الرجل الذي يرتدي زيا على

شكل شجرة نفسه بطبقة كثيفة من القطن. أوراق العشب الصغيرة المرسومة حول أسفل الزي ارتجفت حول العروق المرسومة. نظر الرجل من خلال مِهداف سلاحه. ثم أبعد السلاح عن عينيه. ضحك.

كما ترى، الشيء الممتع هو، قال، خطر للتو على بالي أنه في أفلام الحروب، عندما يكونون على وشك إعدام شخص، يوقفونهم أمام صف من الأشجار أو الأعمدة. إطلاق النار عليك إذن يشبه قليلا عدم إطلاق النار على أي أحد على الإطلاق.

وضع السلاح أمام عينيه. سدّد باتجاه جذع الشجرة، تقريبا نحو المكان الذي خمن أنه قلب الشخص الموجود داخل الزيّ الشجرة.

إذن. ذلك أنا وقد قُضي عليّ، قال دانيال.

لا تستطيع أن تتوقف هناك! قالت إليزابيث. السيد غلاك!

أليس في وسعي أنْ أفعل ذلك؟ قال دانيال.

تجلس إليزابيث في الغرفة الباهتة بجانب دانيال، ماسكة كتابا مفتوحًا، تقرأ حول المسخ. حولهما، غير مرئيين، ممددين عبر الكون، كل الموتى بالرصاص من شخصيات المسرح الإيمائي. السيدة ماتت. الأخوات القبيحات متن. سندريلا والجنيّة العرّابة وعلاء الدين والقط ذو الجزمة وديك وتنغتون، قُتلوا شرّ قتلة، محصول ذرة إيمائي، مذابح إيمائية، كوميديا تراجيديّة، ميت، ميت، ميت.

فقط الرجل الذي يرتدي زيا على شكل شجرة ما زال واقفا.

لكن في اللحظة التي كان فيها الرجل المسلح أخيرا على وشك إطلاق الرصاص، تحول الرجل الذي يرتدي زيا على شكل شجرة أمام عيني الرجل المسلح إلى شجرة حقيقيّة، شجرة عملاقة، شجرة مران عظيمة شاهقة الطول تلوح بأوراقها الفاتنة.

مهما بلغت قوة إطلاق الرجل المسلح النار على الشجرة فإنه لن يستطيع قتلها بالرصاص.

لذلك يضرب برجليه جذعها الغليظ. يقرّر أنه سيذهبُ ليشتري مزيل أعشاب ليرشّهُ على جذورها، أو أعواد ثقاب وبنزينًا ليحرقها بشكل كامل. يستدير ليذهب

ـ وحينئذ يتلقى ضربة على الرأس من نصف الحِصان الإيمائي الذي لم يخطر على باله أن يطلق عليه النار.

يسقط على الأرض، ميّتًا فوق جثث الموتى من شخصيات المسرح الإيمائي. إنّها رؤيا سرياليّة للجحيم.

ما معنى سريالية، يا سيد غلاك؟

هذا هو. هناك يتمددون. المطر يهطل. الريح تهب. تمر الفصول ويطال الصدأُ السلاحَ، والأزياء ذات الألوان البراقة تبهت وتبلى، والأوراق من كلّ الأشجار التي حولها تسقط عليها، تتكوّم عليها، تغطيها، وينمو العشب حولها ثم يبدأ في النمو عليها ومنها، من خلالها، من خلال الضلوع وثقوب العيون، ثم تظهر الزهور في العشب، وعندما تتعفن الأزياء والأجزاء القابلة للتلف أو تأتي عليها مخلوقات سعيدة بالتهامها، ليس هناك شيء يتبقى منها، الشخصيات الإيمائية البريئة أو الرجل المسلّح، غير العظام في العشب، العظام في الأزهار، والأغصان المورقة من شجر المُران فوقها. وهو ما يتبقى، في النهاية، منّا كلنا، سواء كنا نحمل سلاحا حين نكون هنا أم لا. إذن. ما دمنا هنا. أقصد، ما دمنا ما نزال هنا.

جلس دانيال على المقعد الطويل وعيناه مغمضتان بُرهة. أصبحت البرهة أطول. أصبحت حينًا من الدهر أقرب منه إلى برهة.

يا سيد غلاك، قالت إليزابيث. السيد غلاك؟

دفعت مرفقَهُ.

آه. نعم. كنتُ، كنت ـ ماذا كنت؟

قلتَ الكلماتِ، بينما نحن هنا، قالت إليزابيث. قلتها مرتين. بينما نحن هنا. ثم توقفت عن الكلام.

أهذا صحيح؟ قال دانيال؟ بينما نحن هنا. حسنا. بينما نحن هنا، لنعلّق الآمال دائما على الشخص الذي يقولها.

يقول ماذا، يا سيد غلاك؟ قالت إليزابيث.

هل أنت متأكدة أنك تريدين الحرب؟ قال دانيال.

أمّ إليزابيث أكثر سعادة هذا الأسبوع، الحمد لله. هذا لأنها تلقّت رسالة إلكترونيّة تُعلمها أنه قد وقع اختيارها لتشارك في برنامج تلفزيوني اسمه مطرقة المزاد الذهبية، حيث يخوض أشخاص من عامة الناس مسابقات ضد مشاهير وخبراء التّحَف الأثريّة من خلال التسوق في محلات التّحَف بميزانية ثابتة وشراء شيء يقوم في النهاية بجمع أكبر قدر من الأموال في مزاد علنيّ. إن الأمر كما لو أنّ الملاك جبرائيل قد ظهر بباب حياة أمها، ساجدًا، أحنى رأسه وقال لها: في محلّ مليء بالخردة، في مكان ما بين الآلاف والآلاف من الأشياء المهملة، المكسورة، المنتهية الصلاحية، الباهتة، المباعة المتروكة المنسيّة، هناك شيء أكثر قيمة من أن يستطيع أي شخص إدراكه، والشخص الذي اخترناه لنضع فيه ثقتنا ليقوم باستخراجه من بين تفاهات الوقت والتاريخ، هو أنتِ.

تجلس إليزابيث حول الطاولة في المطبخ بينما تقوم أمها بتشغيل حلقة قديمة من برنامج مطرقة المزاد الذهبية لتريها ما الذي يتوقعونه منها. في الأثناء تفكر في رحلتها إلى هنا، وخاصة حول الزوجين الإسبانيين في طابور محطة التاكسي.

من الواضح أنهما قد وصلا للتو من أجل قضاء العطلة، كانت حقائبهما حول أقدامهما. صاح الناس الواقفون في الطابور وراءهما فيهما. صاحوا فيهما أن يعودا إلى بلادهما.

صاحوا، هذه ليست أوروبا. عودوا إلى أوروبا.

كان الناس الواقفون أمام الإسبانيين في طابور التاكسي لطفاء جدا؛ حاولوا نزع الفتيل وذلك بالسماح للإسبانيين بأن يأخذوا التاكسي التالي. على أيّ حال، شعرت إليزابيث أنّ ما كان يحدث في ذلك الحادث العابر هو جزء من شيء بركانيّ.

هذا ما يبدو عليه الإحساس بالعار، تفكّر.

في الأثناء على الشاشة يبدو الربيع في آخره والخردة من الماضي تستحق الأموال. ثمة الكثير من الناس الذين يقودون سيارات قديمة تعود لعقود خلت. هناك الكثير من التوقف والقلق من الدخان المنبعث من أغطية محركات السيارات القديمة على جانب الطريق.

تحاول إليزابيث أن تفكر في شيء تقوله لأمها حول برنامج مطرقة المزاد الذهبية.

في أي نوع من السيارات الكلاسيكية يا ترى سَيُتاح لك أنْ تركبي؟ تقول.

لا، لأن الناس من العامة لا يُسمح لهم بذلك، تقول أمّها. فقط المشاهير والخبراء هم من تتاح لهم الفرصة. هم يَصِلون. نحن سنكون هناك في المحل منتظرين لنلتقي بهم.

لماذا لا يسمح لكم بالذهاب في سيارة؟ تقول إليزابيث. ذلك أمرٌ مهين.

لا معنى من تخصيص ساعات البث التّلفَزِيّ لأناس لا يعرفهم أحد وهم يقودون سيارات قديمة حول المكان، تقول أمها.

تنتبه إليزابيث إلى الجمال الخلاب لنباتات السرفيل على جانب الطرقات الخلفيّة في لقطات برنامج مطرقة المزاد الذهبية، الذي كان يبث مشاهد قديمة، من حلقة صورت في أكسفوردشاير وغلوسترشاير، إنها مصورة، تقول لها أمها، السنة الماضية. يقف نبات السرفيل بشكل مهيب ومسموم في الهواء بينما يهذي المشاهير بشأنه (ليس لإليزابيث أي فكرة من يكونون ولمَ هم مشاهير). أحدهم يغني أغنية بوب من السبعينيات ويتحدث عن الفترة التي كان يملك فيها سيارة داتسن ذهبيّة اللون. الأخرى تدردش بشكل ودّي حول أيّامها كَكومبارس في مسرحية أوليفر تويست! تمرّ السيارات الكلاسيكية عبر إنجلترا نافثة الدخان. خارج نوافذ السيارة يبدو نبات السرفيل طويلا، مزيّنا بقطرات المطر، قويًّا وأخضر. إنه أمرٌ عارض. هذه الصدفة، تجد إليزابيث نفسها تفكّر، بيان عميق. نبات السرفيل له لغته الخاصة، لغة لا أحد في البرنامج أو من مُعِدّي البرنامج يعرفها أو ينتبه إلى أنها مستخدمة.

تخرج إليزابيث هاتفها وتسجل ملاحظة. لعلّ هناك محاضرة في هذا.

ثم تتذكر أنه من الممكن ألا يكون عندها قريبا عمل لتقدّم أيّ محاضرة على أيّ حال.

تضع هاتفها على جانبه المضاء على الطاولة. تفكر في الطلّاب الذين درّستهم، الطلاب الذين يتخرجون هذا الأسبوع مثقلين بالديون وحالمين الآن بمستقبلٍ يقع في الماضي.

تتوقف السيارات في البرنامج التلفَزي خارج مستودع في الريف. هناك كثير من الناس الذي يخرجون من السيارات. على باب المستودع يلتقي المشاهير والخبراء بالشخصين من عامّة الناس، واللذيْنِ يرتديانِ بدلاتٍ رياضية لتظهر أنهم من عامّة الناس. يتصافحون كلهم بالأيْدي. ثم ينطلقون كلهم، المشاهيرُ والخبراءُ والناسُ العاديون، في اتجاهات مختلفة في أنحاء المستودع.

يشتري واحدٌ من الأعضاء العاديين من عامة الناس ماكينة تسجيل نقود قديمة أو ما يطلق عليه مالك المحل «آلة تسجيل نقد كلاسيكية»، بثلاثين جُنيها إسترلينيا. إنها لا تعمل لكن لونها الأبيض اللامع وأزرارها الحمراء المنتصبة على صدرها المقوس ذكرته، يقول الشخص العادي، بمعطف جدّه العسكري الذي كان يرتديه عندما كان يعمل بوابا في قاعة سينما في الستينيات. ينتقل المشهد إلى أحد المشاهير الذي لمح مجموعة من صناديق جمع التبرعات في شكل أحجام حقيقية صغيرة -كلاب وأطفال- تقف معا على باب المستودع مثل مجموعة من نماذج قروية من الماضي، أو من مشهد خيال علمي حيث يصطدم المستقبل بالماضي. إنها الصناديق التي كانت توضع خارج المحلات للعابرين لكي يضعوا فيها الفكّة وهم يغادرون أو يدخلون. هناك فتاة ورديّة لامعة تحمل دبا صغيرا؛ طفل رث الثياب مدهون باللون البني ويحمل ما يبدو مثل جورب قديم؛ فتاة حمراء لامعة محفور على صدرها كلمة شكرًا وحول رجلها دعامة؛ كلب من نوع سبانيل مع جروينِ، عُيونهم البلورية تبدو متوسلة، صناديق صغيرة حول أعناقها، شقوق لإدخال النقود في الصناديق، وشقوق بديلة لإدخال النقود في رؤوسها.

إحدى الخبيرات تصبح متحمسة للغاية. تفسّر للكاميرا أن صندوق التبرعات الذي يبدو على شكل طفل بُنّي، طفل الدكتور برناردو، هو أكثر قطعة كلاسيكيةً قديمةً في المجموعة. تشير إلى أنّ الطباعة على القاعدة التي يرتكز عليها الطفل تعود إلى ما قبل سنوات 1960، وأن الجملة القصيرة المكتوبة على القاعدة -أرجو أن تتبرع لكي يحيا- هي ذاتها أثر من زمان مختلف. ثم تومئ برأسها للكاميرا وتغمز وتقول إنه لو كان الأمر بيدها فإنها ستختار الكلب السبانيلْ مهما كان الأمر، لأن

الأشياء التي تكون على هيئة كلب تحصل دائما على قيمة عالية في أسواق المزاد، وأن الطفل الذي يرتدي ملابس بنية، ورغم أنه يتمتع بقيمة كلاسيكية، فإنه من غير المتوقع أن تكون قيمته بحجم ما ينبغي أن تكون عليه، إلا إذا كان المزاد على شبكة الإنترنت.

ما لا يقولونه، تقول أمها، وربما لا يقولونه لأنهم لا يعرفونه، هو أن تلك الصناديق قد أتت إلى الوجود بسبب كلاب حقيقية في نهاية القرن الماضي كانت مهمتها التجوال بين أماكن مثل محطات القطارات تتدلّى من أعناقها صناديق ليضع فيها الناس بعض القروش. صدقةً.

آه، قالت إليزابيث.

صناديق الكلاب تلك، مثل ذلك الذي يقبع هناك، صُمّمت على شكل الكائنات الحيّة الحقيقية، قالت أمها. وفوق ذلك. وبعد أن تموت الكائنات الحية الحقيقية فقد كانت أحيانا تُحشى عن طريق محنّط حيوانات ويتم وضعها بعد ذلك في المحطة أو في أي مكان آخر من الأمكنة العامة التي قضت حياتها تعمل فيها. تذهبين إذن إلى المحطة وهناك تجدين «نيب» جالسا هناك، أو «ريكس»، أو «بوب»، ميتا، محشوا، لكنه ما يزال يحمل الصندوق حول عنقه. وذلك، وأنا متأكدة، هو مصدر فكرة تصميم صناديق جمع التبرعات.

تبدو إليزابيث منزعجة إلى حد ما. انتابها هذا الشعور لأنها تحب أن تتخيل أنّ أمّها لا تعرف شيئا حول أي شيء.

في الأثناء خرج المتسابقون على الشاشة مندفعين من الباب متحمّسين بسبب مجموعة من الفناجين الكبيرة مطبوعا على أحد جوانبها وثيقة السياسة المالية لإبراهامْ لنكولنْ. خارج المستودع، في الأرض الخضراء الخالية المحيطة به، هناك فراشة على الشاشة خلف رؤوس مقدّمي البرنامج، فراشة صغيرة بيضاء تنتقل من زهرة إلى زهرة.

وفي حالة جيدة بشكل مدهش، يقول أحد المشاهير.

«هورنسي»، 1974، تقول أمها. حُلم جامعي التّحف النادرة.

منتصف السبعينيات، يوركشاير، يقول الخبير الذي قام بشرائها. علامة «هورنسي» واضحة بشكل جيّد على القاعدة من مجموعة الرؤساء الأمريكيين، علامة النّسر. بدأت شركة «هورنسي» العمل في سنة 1949 بعد الحرب، وخضعت للحراسة القضائية منذ خمس عشرة سنة وقد ازدهرت في السبعينيات. وفوقَ كل هذا فإنه من غير المألوف رؤية سبعة من هذه الفناجين الكبيرة معا على هذا النحو. إنه حلم بالنسبة لجامعي التحف.

هل تفهمين؟ تقول أمها.

نعم لكنك شاهدت هذه الحلقة من قبل. لذا فإن معرفة مصدر هذه المجموعة ليس اكتشافا عظيما، تقول إليزابيث.

أعرف ذلك. قصدت أني أتعلّم، تقول أمها. قصدت أني أعرف الآن قيمتها.

وأستطيع أن أقول إن تلك المجموعة هي التي تتسبّب بقلقي أكثر من غيرها في سوق المزادات، يقول أحد الخبراء من خلال تعليق صوتي بينما يُقدّم البرنامج صورًا لصناديقِ التبرعات المشحونة بالبريد، أحد الناس من العامة يهزّ البنت الحمراء ذات الدعامة على رجلها ليتأكد إذا كان هناك أيّ مال باقٍ فيها.

لا أستطيع أن أشاهد مزيدًا من هذا، تقول إليزابيث.

لمَ لا؟ تقول أمها.

أعني أنني قد رأيت ما يكفي، تقول إليزابيث. لقد رأيت الكثير. شكرا. إنه لأمر رائع أنك ستكونين في البرنامج.

تقوم أمها في الأثناء بأخذ حاسوب اللابتوب لتري إليزابيث أحد المشاهير الذين سيكونون في البرنامج الذي ستشارك فيه معهم.

تظهر على شاشة صورة امرأة في الستين من عمرها. تلوّح أمها باللابتوب في الهواء.

انظري! تقول. إنه لأمر رائع، أليس كذلك؟

ليس لديّ أيّ فكرة عَمَّن تكونُ، تقول إليزابيث.

إنها جُونّي! تقول أمها. من برنامج كالْ بوكْس كيدس *(Call Box Kids)*

المرأة الستينية كانت على ما يبدو شخصية تلفزيّة عندما كانت أم إليزابيث طفلة صغيرة.

في الحقيقة لا أستطيع تصديق الأمر، تقول أمها. لا أصدق أني سأتمكن من لقاء جونّي. لو كانت فقط جدتك على قيد الحياة. لو أستطيع فقط أنْ أزفّ لها الخبر. لو أستطيع فقط أن أزفّ الخبر للطفلة ذات العشر سنوات التي كنتُ. الطفلة التي كنتُ قد تموت من الحماس. ليس فقط لفرصة اللقاء. فرصة الظهور في البرنامج. مع جونّي.

تدير أمّها اللابتوب نحوها وعليه صفحة يوتيوب.

هل رأيت؟ تقول.

طفلة في الرابعة عشر من عمرها تقريبا ترتدي قميصا ذا خطوط متقاطعة وشعرها مشدود على شكل تَسْريحة ذَيْلِ الحصان، طفلة ترقص رقصة محسوبة الخطوات في أستوديو تلفَزيّ صُمّم ليبدو مثل شارع في لندن، والراقص الذي ترقص معه يلبس ملابس تشبه كشك هاتف، حتى أن الأمر يبدو تماما وكأن كشك هاتف عمومي يرقص مع الطفلة. يبدو كشك الهاتف على نحو ما فاقدًا لمرونةِ الراقصين والطفلة قد جعلت نفسها تبدو أقل مرونة أيضا وتحرك خطواتها مثل كشك هاتف. الطفلة ذكية، دافئة ومحبوبة، والراقص داخل زيّ كشك الهاتف يحاول جاهدًا أن يرقص كما قد يرقص كشك هاتف. أغلقت المحلات في الشارع وتوقف الناس لمشاهدةِ الرقص. ثم تخرج من باب الكشك المفتوح سماعة الهاتف، على الكابل المرن مثل ثعبان مسحور، وتقوم الطفلة بأخذه وتضعُه على رأسها ثم تنتهي الرقصة عندما تقول كلمة: مرحبا.137

أتذكر في الحقيقة مشاهدة هذه الحلقة بالذات، تقول أم إليزابيث. في غرفتنا الأمامية. عندما كنت طفلة صغيرة.

يا إلهي، تقول إليزابيث.

تشاهد أمها الحلقة مرة أخرى. تتصفح إليزابيث جريدة اليوم على هاتفها لتطّلع على التغييرات الكبيرة والمعتادة التي حصلت في النصف ساعة الأخيرة.

تضغط على رابط لمقالة عنوانها «انظر في عينيّ»: غادر. إستشارت حملة البقاء في الاتحاد الأوروبي منوّمًا مغناطيسيًا تلفزيًا. تنتقل إلى الأسفل وتتصفّح شاشة الهاتف بسرعة. قوّة التأثير. أستطيع أن أجعلك سعيدا. ربط المعدة بالتنويم المغناطيسي. المساعدة في إنتاج الإعلانات لوسائل التواصل الاجتماعي. هل أنت مشغول البال؟ هل تشعر بقلق؟ ألم يحن الوقت بعد؟ أن تكون مستغرقا في البث التلفزيوني لهو أمر يساوي التنويم المغناطيسي. الوقائع لا تفيد. تواصل مع الناس عاطفيا. ترامب. بدأت أمّها ترقص رقصة السنوات الأربعين التي مضت مرّة أخرى؛ تبدأ الموسيقى المرحة مرّة أخرى.

تطفئ إليزابيث هاتفها وتذهب إلى الصالون لتأخذ معطفها.

سأخرج قليلا، تقول.

تومئ أمها، التي ما تزال أمام الشاشة، برأسها موافقة وتحيّيها بيدها دون أن تنظر إليها. عيناها تلمعان بما قد يكون دموعًا.

لكنه يوم جميل.

تمشي إليزابيث مارة بوسطِ القرية، متسائلة إذا كانت صناديق التبرعات تلك المصممة على شكل أطفال، وبما أن الكلاب قد صُمّمت على شكل كلاب حقيقية، قد صُمّمت أيضًا على شكل أطفال شحاذين، شحاذين صغار، أطفال شحاذين بدعامات لسيقانِهم الضعيفة، وصناديق تتدلى من أعناقهم. ثم تتساءل إذا كان هناك مخطّط يجري على قدم وساق في ما مضى لتحنيط أطفال حقيقيين وعرضهم في المحطّات.

وهي تعبر البيت الذي ما زالت عليه كلمات «عودوا» و«إلى بيوتكم» مكتوبة على واجهته تلاحظ أنّ أحدهم قد أضاف تحت هذه الكتابة عبارة «نحن في بيتنا. شكرا» ورسم صورة شجرة بجانبها، وصفًّا من الأزهار الحمراء البرّاقة تحتها. هناك أزهار، الكثير من الأزهار الحقيقية، في السيلوفان والورق، على رصيف البيت، يبدو إذن وكأن حادثا قد جدّ هناك أخيرا.

تأخذ صورة للشجرة المرسومة والأزهار. بعدئذ تتمشى بالاتجاه المؤدي إلى

خارج القرية عابرة ملعب كرة القدم لتجد نفسها بعد ذلك في الحقول وهي تفكر في نبات السرفيل، والأزهار المرسومة. تخطر على بالها الصورة التي رسمتها بولينْ بوتي[20]، الصورة المعنونة بـ«مع حبي لجيْن بولْ بيلْموندو[*]». ربما وجدت فيها شيئا سواء حصلت على وظيفة أم لا، شيئا حول استخدام الألوان كلغة، الاستخدام الطبيعي للألوان بجانب الاستخدام الاستيطيقي، اللمعان المرح والمتوحش مرسوما على واجهة ذلك البيت في وقت عصيب، بالإضافة إلى فعل الرسم مثل ذلك لدى «بوتي»، وفيه ذاتٌ بِبُعديْنِ مُتوّجة بألوان شهوانيّة، محاطة بالبرتقالي والأخضر والأحمر، ألوان صافية وكأنها خرجت لتوّها من الأنبوب إلى خيش اللوحة، وليس فقط بالألوان لكن عن طريق بتلات خيالية، تشكيل الزهرة فوق القبّعة والذي يبدو مثل عضو تناسلي داكن اللون، على رأس صورة «بيلْموندو» وكأنها أرادت أن تضغط عليهِ بحنوّ إلى أسفل وفي الوقت نفسه ترفعه بحنوّ إلى أعلى.

نبات السرفيل. الأزهار المرسومة. ألوان «بوتي» الحمراء الصافية المحضة في تخيّل الصورة. ضعها معا وماذا وجدت؟ أي شيء مفيد؟

تتوقف لتكتب ملاحظة على هاتفها: التخلي والحضور. تكتب.

إنها المرة الأولى التي تشعر فيها أنها قد عثرت على نفسها منذ وقت طويل...

الهدوء يلتقي الطّاقة /

الخدعة تلتقي الطبيعيّ /

الطاقة الكهربائيّة /

سلك كهربائيّ طبيعي /

---

(20) بولين بوتي (1938-1966) أحد مؤسّسي حركة فنّ البوب آرت الفنيّة في بريطانيا، والسيّدة الوحيدة ضمن مجموعة المؤسّسين. عبّرت لوحات بوتي وكولاجاتها عن الاستمتاع والثقة بالنفس الأنثويّة وجنسانيّتها، ضد عالم الرّجال الذي كانت تعيش فيه. شخصيّتها هذه جعلت منها رمزًا للحراك الحقوقي النسويّ في السبعينيات. م.

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (With Love to Jean-Paul Belmondo) التي رسمتها لأحد أشهر الممثلين الفرنسيين، دان بول بلموندو، الذي كان شهيرًا في الستينيات. ارتبط اسمه بالموجة الجديدة في السينما الفرنسية.

تنظر إلى أعلى. تلاحظ أنها على بعد أمتار فقط من السياج المقابل للساحة العامة، النوع الآخر من الأسلاك الكهربائية.

لقد تضاعف السياج منذ آخر مرة رأته. إذا لم تخنها عيناها فقد أصبح الآن سياجين متوازيين.

إنها الحقيقة. وراء الطبقة الأولى من السياج، وعلى مبعدة عشرة أقدام، من المساحة التي سُوّيت بشكل متقن بين السياجين، هناك سياج شبكي آخر مطابق وضعت فوقه الأسلاك الشائكة نفسها ذات المنظر القاسي بشكل غير مبرّر. السياج الآخر مكهرب أيضا، وبينما كانت تمشي بجانبِهما كانت تجربة الإحساس بالضوء الساطع على شكل مكعبات ألماس من السياج الشبكي تجعلها تشعر بما يشبه حالة صرع.

تلتقط إليزابيث صورة لها بهاتفها. ثم تلتقط صورة أو صورتين لمظاهرِ عودة الحياة للأعشابِ الطفيلية من خلال الطين المقلوبِ حول الأعمدة الفولاذية.

تنظر حولها. الأعشاب الطفيلية والأزهار في كل مكان.

تمشي بمحاذاة السياج مسافة نصف ميل تقريبًا قبل أنْ تلتحق بها سيارة دفع رباعي سوداء تسير بين السياجين على المساحة المنبسطة. تتجاوزها ثم تتوقّف أمامها. يتوقّف المحرّك. عندما تصل إلى السيارة تُفتح النافذة. يُخرِجُ رجلٌ رأسه. تومئ له بالتحيّة.

يوم جميل، تقول.

لا تستطيعين المشي هنا، يقول.

نعم أستطيع، تقول.

تومئ له مرة أخرى وتبتسم. تواصل المشي. تسمع صوت تشغيل محرك السيارة ذات الدفع الرباعي مرة أخرى وراءها. عندما يلحق بها ويصبح بمحاذاتها تماما يترك المحرك يشتغل ببطء مجاني، يسوق السيارة بالسرعة نفسها التي تمشي بها. يخرج رأسه من النافذة.

هذه أرض خاصة، يقول.

لا، إنها ليست كذلك، تقول. إنها أرض عامة. تعريف الأرض العامة هو أنها ليست خاصة.

تتوقف. تتجاوزها السيارة. يقودها الرجل إلى الوراء.

عودي إلى الطريق، يصرخ من النافذة وهو يقود السيارة إلى الخلف. أين سيارتك؟ يجب أن تعودي إلى حيث تركت سيارتك.

لا أستطيع أن أفعل ذلك، تقول إليزابيث.

لم لا؟ يقول السائق.

ليس عندي سيارة، تقول إليزابيث.

تبدأ في المشي مرة أخرى. يزيد السائق من سرعة المحرك ويسوق سيارته مبتعدا عنها. يتوقف على بعد أمتار منها، يوقف المحرك ويفتح باب السيارة. يقف بجانب السيارة بينما هي تمشي مقتربة منه.

إنك تقومين بمخالفة القانون بشكل واضح، يقول.

مخالفة ماذا؟ تقول إليزابيث. تستطيع أنْ تقول عني ما تشاء. حسنا. يبدو من هنا أنكَ في سجن.

يفتح جيب قميصه ويخرج هاتفا. يرفعه إلى أعلى وكأنه بصدد التقاط صورة لها أو البدء في تصوير فيلم.

تشير إلى الكاميرات على أعمدة السياج.

ألا تملكُ ما يكفي من اللقطات المصوّرة لي؟ تقول.

إذا لم تغادري المنطقة فورًا، يقول، فإنه سيقع إخراجك من هنا بالقوة عن طريق الأمن.

ألسْتَ واحدًا من عناصر الأمن، إذن؟ تقول.

تشير إلى الشعار المرسوم على الجيب الذي أخرج منه الهاتف. يتكون الشعار من هذه الحروف SA4A.

وهل تلك الحروف هي تقريبا معادل كلمة «أكثر أمنا» أم أنها قريبة من كلمة

«أريكة» 21، تقول.

يبدأ رجل SA4A في تدوين شيء على هاتفه.

هذا هو ثالث إنذار لك، يقول. يتمّ إنذارك الآن للمرة الأخيرة أنه سيتم اتخاذ إجراءات ضدك إذا لم تغادري المنطقة فورا. إنك تقومين بالتعدي على ممتلكات الغير بشكل غير قانونيّ.

مقابل التعدّي على ممتلكات الغير بشكل قانوني؟ تقول.

وأيضا أيّ مكانٍ قريبٍ من المحيط حين أمرّ من هنا في المرّة القادمة.

محيط ماذا؟ تقول.

تنظر من خلال السياج إلى المنطقة المسيّجة وكل ما تستطيع أن تراه هو مناظر طبيعية. ليس هناك ناس. ليس هناك بنايات. هناك فقط سياج، ومناظر طبيعية.

سيؤدي ذلك إلى تهم قانونية موجهة إليك، يقول الرجل، وقد يترتب الأمر على إيقافك والحصول على معلوماتك الشخصية والاحتفاظ بنموذج من بصمتك الوراثية.

سجن للأشجار. سجن لنباتِ الوزال، للذباب، للفراشات البيضاء والفراشات الزرقاء الصغيرة. مركز اعتقال صائد المحار.

ما هو السبب الحقيقي لوضع هذا السياج؟ تقول. أم أنه ليس مسموحا لك أن تقول لي؟

ينظر إليها نظرة بعيون تشبه عيون الموتى. يكتب شيئا على هاتفه، ثم يرفعه ليلتقط لها صورة. تبتسم بشكل ودود، كما يفعل الناس حين تلتقط صورهم. ثم تستدير وتبدأ في المشي مرة أخرى بمحاذاة السياج. تسمعه

يتصل بشخص ما ويقولُ شيئا، ثم يصعد إلى سيارته ذات الدفع الرباعي ويقودها إلى الخلف بين السياجين. تسمع صوت السيارة وهي تنطلق في الاتجاه المعاكس.

---

(21) تشبه حروف الشعار كلمتي safer وsofa اللتين وقعت ترجمتهما إلى «أكثر أمنا» و«أريكة». م.

لم تقل أعشاب القُرّاص شيئا. لم تقل البذور على رؤوس جذوع الأعشاب شيئا. الزهور البيضاء الصغيرة على سيقانها، لا تعرف إليزابيث أسماءها لكنها تقول لا شيئَهَا المنعش.

تقولها أزهار الحوذان بابتهاج. تقولها شُجيرة الرتم بشكل غير متوقع، لا شيء صفراء براقة، ناعمة ولينة وهشّة، ضدّ اللا شيء الأخضر الأخرس للأشواك.

في ذلك الوقت في المدرسة كان هناك ولد قد عقد العزم على أن يجعل إليزابيث، التي كانت تبلغ السادسة عشر من عمرها في الأثناء، تضحك. (لقد كان مصرًا على النوم معها أيضا، ها ها). لقد كان شابا مرِحًا. أحبّته. كان اسمه مارك جوزيف وقد كان يعزف على آلة الكونترباصْ في فرقة قامت بتأدية أغان قديمة تعود إلى فترة بداية التسعينيات؛ كان أيضا عبقريا في الكمبيوتر متقدما على كل شخص آخر، وقد كان هذا في فترة عندما لم يعرف معظم الناس ما معنى محرّك بحث، واعتقد كل شخص أن سنة الألفية الجديدة ستقوم بتعطيل كل كمبيوترات العالم، الأمر الذي جعل مارك جوزيف يقوم بمحاكاة ساخرة ويضعها على الإنترنت، صورة لعيادة بيطريّة على الطريق المحاذي للمدرسة، وتحتها تعليق يقول «اضغط هنا للحماية من كلب الألفيّة».

كان الآن يتبعها في المدرسة ويحاول أن يجد طرقا ليجْعلها تضحك.

لقد قبّلها، عند المدخل الخلفي للمدرسة. وكانت قُبلة لذيذة.

لماذا لا تحبينني؟ قال لها بعد ثلاثة أسابيع.

لقد وقعتُ في حبّ شخص آخر، قالت إليزابيث. ليس من الممكن أن أقع في حب أكثر من شخص واحد.

تمرّغت فتاة من الجامعة تدعى ماريالْ سيمي صحبة إليزابيث، عندما كانت إليزابيث في الثامنة عشرة من عمرها، على أرضية الطابق الذي تسكن فيه إليزابيث، وقد كانتا تحت تأثير مواد مخدرة تضحكان من الكلمات الغريبة التي يقوم المغنون المساعدون بتأديتها أحيانا. أسمعتْها ماريال سيمي أغنية قديمة قام فيها المغنّون المساعدون بتأدية عبارة «محاكاة صوتية» ثماني مرات. أسمعت إليزابيث ماريال سيمي أغنية لـ«كيلف ريتشاردْ» يقوم المغنون المساعدون فيها بتأدية كلمة «نعجة». بكيتا من الضحك، ثم وضعت ماريالْ سيمي بعد ذلك، التي كانت فرنسية، ذراعها حول إليزابيث وقبّلتها. وكانت قبلة لذيذة.

لماذا؟ قالت، بعد أشهر. لا أستوعب الأمر. لا أفهم. إنه جميل جدا.

لا أستطيع أن أكذب، قالت إليزابيث. أحب الجنس. أحب أن أكون معك. إنه

لأمر رائع. لكن عليّ أن أكون صادقة. لا أستطيع أن أكذب بخصوص هذا الأمر.

من يكون؟ قالت ماريال سيمي. هل هو حبيب سابق؟ هل ما زال يعيش قريبا؟ هل ما زلتما تتواعدانِ؟ أم هل أنها هي؟ هل هي امرأة؟ هل كنت على اتصال به أو بها طيلة كل الوقت الذي كنت تواعدينَني فيه؟

إنها ليست ذلك النوع من العلاقة، قالت إليزابيث. إنها ليست جسدية على الإطلاق. لم تكن كذلك قط. لكنها علاقة حب. لا أستطيع أن أدّعي أنها ليست كذلك.

إنك تستخدمينَ هذا الأمر لإنكار علاقتنا، قالت ماريال سيمي. إنك تضعين هذه التعلّة بينك وبين عواطفك الحقيقية لأجل ألا تكون لديك مشاعر.

هزت إليزابيث كتفيها.

لدي مشاعر كافية، قالت.

قابلت إليزابيث، التي كانت حينها في الحادية والعشرين من عمرها، تومْ ماكفرلانْ في حفلة تخرّجها. كانت حفلة التخرج من قسم تاريخ الفن (صباحا) وكانت حفلة تخرجه في الدراسات التجارية (مساء). مرت على علاقة توم وإليزابيث ست سنوات. انتقل ليعيش معها في شقتها المستأجرة منذ خمس سنوات. كانا يفكران في جعل علاقتهما علاقة دائمة. كانا يتحدثان عن الزواج والحصول على رهن عقاري لشراء بيت.

ذات صباح عندما كان يضع فطور الصباح على طاولة المطبخ سأل توم فجأة،

من يكون دانيال؟

دانيال؟ قالت إليزابيث.

دانيال، قال توم مرة أخرى.

هل تقصد السيد غْلاك؟ قالت.

ليس لديّ أي فكرة، قال دانيال. من يكون السيد غلاك؟

جار قديم من جيران أمي، قالت إليزابيث. عاش في البيت المحاذي لبيتنا عندما كنت طفلة صغيرة. لم أره لسنوات كثيرة. سنوات كثيرة حقًّا. زمن طويل. لماذا؟

هل حصل شيء؟ هل هاتفت أمي؟ هل حصل شيء لدانيال؟

لقد ذكرتِ اسمه وأنت نائمة، قال توم.

هل فعلت ذلك؟ متى؟ قالت إليزابيث.

البارحة. لم تكن المرة الأولى. إنك كثيرا ما تذكرينه وأنت نائمة، قال توم.

كانت إليزابيث في الرابعة عشر من عمرها. كانت تمشي صحبة دانيال حيث تلتقي القناةُ بالريف، حيث ينحصر الطريق وينتهي في الغابة على منحنى التلّة. أصبح الطقس باردا جدا على نحو مفاجئ رغم أن الخريف كان ما يزال في بدايته. كان المطر قادما، كان بوسعها أن ترى ذلك وهما يصعدان إلى التلة، كان يتحرك خلال المشاهد الطبيعية مثل شخص يظلّل السماء بقلم رصاص.

كان دانيال يلهث. لم يصل به الحال عادة إلى هذه الدرجة من التعب.

لا أحب فكرة انتهاء الصيف وقدوم الخريف، قالت.

وضع دانيال يديه على كتفيها وأدارها. لم يقل لها أي شيء. لكن كل شيء عبر المناظر الطبيعية التي وراءهما كان ما يزال أزرق وأخضر تحت أشعة الشمس.

تطلعت إليه وهو يريها كيف أن الصيف ما يزال هنا.

لا أحد يتكلم مثل دانيال.

لا أحد لم يتكلم مثل دانيال.

كان الشتاء في آخره؛ كان هذا شتاء 2002-2003. كانت إليزابيث في الثامنة عشرة من العمر. شهر فبراير. ذهبت إلى لندن لتشارك في المظاهرة. ليس باسمها. فعل الناس نفس الشيء عبر البلاد والملايين من الناس فعلوا الشيء نفسه عبر العالم.

في يوم الاثنين الموالي، تجولت في المدينة؛ من الغريب أن تمشي في شوارع كانت الحياة فيها تسير بشكل طبيعي، حركة السيارات والناس مستمرة جيئة وذهابا بشكل عادي بمحاذاة شوارع خالية من الحركة. عندما مشت في الطريق نفسه لكن منذ يومين، شعرت أنّ هذه الشوارع تنتمي إلى المليونين من الناس، هذه الشوارع التي امتدت من أقدامهم على الرصيف على طول الطريق وحتى السماء بسبب شيء متعلّق بالحقيقة.

كان ذلك هو يوم الاثنين الذي عثرت فيه على كاتالوج أحمر قديم بغلاف من الورق المقوّى في متجر الفنون على شارع شارينغ كروسْ. كان رخيصا، 3 جنيهات إسترلينية. كان في صندوق الكتب التي خُفّضَت أسعارها.

كان يتعلق بمعرض أقيم منذ سنوات. **بولينْ بوتي، أعمال الستينيّات، رسّامة فن البوب.**

بولين مَنْ؟

رسامة فن بوب بريطانية؟

حقّا؟

كان هذا أمرًا مثيرا بالنسبة لإليزابيث، التي كانت تدرس تاريخ الفن كأحد تخصصاتها في الجامعة وقد كانت في الأثناء تخوض جدالا مع الأستاذ المشرف عليها، الأستاذ الذي قال لها إنه لم يكن هناك أبدا، وبشكل قاطع، شيء اسمه رسامة فن بوب بريطانية، ليس هناك أي واحدة ذات شأن، وهذا هو السبب أنه لم يتم تسجيل أي واحدة ما عدا بعض الهوامش في تاريخ فن البوب البريطاني.

لقد أنجزت الفنانة أعمالا من الكولاج، الرسم، الزجاج المعشّق والديكور

المسرحي. لقد كان لديها قصة حياة مثيرة. لم تكن فقط رسامة بل عملت أيضا في المسرح والتلفزيون كممثلة، رافقت بوب ديلان في جولة حول لندن قبل أن يسمع أي شخص ببوبْ ديلانْ، ظهرت على الراديو لتعلن على الملأ ما معنى أن تكون امرأة شابة في العالم في ذلك الوقت وكادت أن تظهر في فيلم في دور حصلت عليها جولي كريستي عوضا عنها.

لقد كان كل المستقبل أمامها في لندن مدينة الشباب الثائر، ثم ماتت، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها بسبب مرض السرطان. ذهبت إلى الطبيب لأنها كانت حاملا فاكتشفوا الورم. رفضت الإجهاض، مما يعني أنها لن تستطيع العلاج بالأشعة؛ التي يمكن أنْ تلحق ضررا بالجنين. ستلد وستموت بعد أربعة أشهر.

ورم الغدة التوتية هو ما ذكر في قائمة الأشياء تحت كلمة كرونولوجيا على ظهر الكاتالوج.

كانت قصة حزينة، ولا شيء يشبه الرسومات التي كانت فكهة ومرحة ومليئة بألوان غير متوقعة ومتجاورة مما جعل إليزابيث، التي كانت تتصفح الكاتالوج، تنتبه إلى أنها كانت تبتسم. ركزت الرسومات الأخيرة للفنانة على مؤخرة أنثوية كبيرة وجميلة، لا شيء آخر، مؤطرة بالقوس المرح الذي يعلو خشبة المسرح فبدت وكأنها كانت تملأ كل الإطار. تحتها، بلون أحمر لامع، كانت هناك كلمة بحروف كبيرة وهائجة.

BUM

ضحكت إليزابيث بصوت عال(*).

يا لها من طريقة غريبة في الرحيل عن هذا العالم.

كانت رسومات الفنانة تعج بصور أناس من ذلك الوقت، إلفيس، مارلين، وشخصيات سياسية. كانت هناك صورة للوحة مفقودة الآن رُسمت عليها امرأة هي

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (BUM).

السبب وراء الفضيحة التي جسّدتها بوتي في لوحة "الفضيحة 63 "(*)، المرأة التي تجلس عارية إلى الوراء على كرسيّ فريد التصميم وقد كانت متورطة في السياسة في ذلك الوقت.

ثم مسكت إليزابيث الكاتالوج مفتوحا على صفحة عليها لوحة محددة.

كانت تسمى «دون عنوان» (امرأة عباد الشمس) بتاريخ 1963.

كانت فيها امرأة على خلفية زرقاء لامعة(**).

كان جسمها كولاجا من صور مرسومة. شكّلَ رجلٌ يحمل سلاحا رشاشا موجها إلى الشخص الذي ينظر إلى اللوحة صدرَها. وتتشكّل ذراعها وكتفها من صورة مصنع.

ملأت زهرة عباد شمس جذعها.

وملأت سفينة هوائية منفجرة منطقة ما بين الفخذين.

بومة.

خطوط متعرجة ملونة.

كان ثمة في آخر الكتاب نسخة بالأبيض والأسود لأحد الكولاجات. كان فيه يد كبيرة تمسك بيد صغيرة كانت هي بدورها تمسك باليد الكبيرة.

في أسفل الصورة كانَت هناك سفينتان في البحر وسفينة صغيرة مملوءة بالناس.

ذهبت إليزابيث إلى غرفة الدوريات في المكتبة البريطانية حيث جلست إلى طاولة عليها مجلة فوغ، عدد شهر سبتمبر1964. في هذا العدد: ٩ سبوت لايت ٩٢ باولا. نموذج أميرة ١١٠ دمية حية: بولين بوتي حاورها نيل دان ١٢٠ فتيات في النعيم الزوجي. بقلم إدنا براون. إلى جانب إعلانات لمعطف يونغ جاغرْ الأحمر البراق، إسفنجة بودرة ذا غويا غولدن غيرل بيوتي، حمالات صدر باندو وسراويل طويلة

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (Scandal 63). اللوحة مفقودة، وقد رأت بوتي صورة لكرستين كيلر صوّرها لويس مورلي، تجلس على كرسي بينما ظهرُ الكرسي يواجه الجزء الأمامي من جسدها العاري (انتهى لويس إلى تصوير بوتي نفسها مع لوحاتها). رسمَ ت بوتي الصّ ورة ورسمت فوقها وجوه الأشخاص الذين برزت أسماؤهم كرجال ربطتهم علاقات جنسية سياسيّة مع كرستين.

(**) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (Sunflower Woman)

مثل سراويل الرجال لتجعلكِ تشعرين بالحرية، كانت: بولين بوتي. شقراء، ذكية، ٢٦. تزوجت منذ سنة وزوجها فخور بنجاحاتها بشكل كبير، ويتباهى أنها تحصل على مداخيل كثيرة من خلال ممارستها الرسم والتمثيل.

لقد اكتشفت من خلال التجربة أنها تعيش في عالم حيث تحرير المرأة هو كلمة السر وليس واقعا - إنها جميلة، لذلك لا ينبغي لها أن تكون ذكية.

الصورة التي تغطي كامل الصفحة، والتي التقطها دايفيدْ بايلي، كانت صورة التقطت من مسافة قريبة لوجه بوتي ووجه دمية صغيرة جدا في الزاوية العليا وراءها مباشرة.

بولينْ بوتي: أظن أنّي أحمل صورة فانتازية. إن الأمر يعود إلى أني أحب فعلًا أن أجعل الآخرين سعداء، وهو شعور أناني على الأرجح، لأنهم سيقولون، كما تعلمين، في قرارة أنفسهم «يا لها من طفلة جميلة». لكن الأمر يعود أيضا إلى أني لا أحب أن يلمسني الناس. لا أقصد الناحية الجسدية بشكل محدد، رغم أن ذلك جزء من الحقيقة. لذلك أحب أن أشعر دائما أني أطفو على السطح نوعا ما وبما أني هناك أحيانا فإني أراهم. إني أميل جدا إلى لعب أدوار يختارها شخص ما لي، خاصة عندما أقابل أحدًا أوّل مرّة. أحد الأسباب وراء قبولي الزواج من كلايف هو أنه قد قبّلني في الحقيقةِ كإنسان، كشخص ذي عقل.

نيل دان: تقصدين أن الرجال يفكرون فيك كفتاة جميلة فقط؟

بولين بوتي: لا. إنهم فقط يجدون الأمر مخجلا حين تبدئين في الحديث. كثير من النساء هن أذكى معرفيا من كثير من الرجال. لكن يصعب على الرجال القبول بهذا الفكرة.

نيل دان: إذا بدأت الكلام حول الأفكار فإنهم سيفكرون أنك تدّعين المعرفة وتتظاهرين؟

بولين بوتي: ليس أنك تتظاهرين بالمعرفة. إنهم يعتبرون الأمر مخجلا إلى حد ما، أنك لا تفعلين الشيء الصحيح.

قامت إليزابيث بنسخ الصفحات من المجلة. أخذت كاتالوج بولين بوتي إلى

الكلية ووضعته على مكتب الأستاذ المشرف عليها.

آه، صحيح. بوتي، قال الأستاذ المشرف.

هزّ رأسه بالرفض.

قصة تراجيدية، قال.

ثم قال، إنها عديمة الجدوى. رسومات بائسة. ليست جيدة. إنها تشبه الممثلة جولي كريستي. فتاة رائعة. ثمة فيلم لها، مع المخرج كين راسل، بدت فيه غريبة الأطوار على ما أتذكر، وكانت ترتدي قبعة القندس السوداء الطويلة محاكية الممثلة الأمريكية شيرلي تمبل، أقصد أنها جذابة وما إلى ذلك لكنها مروّعة بشكل كبير.

أين أستطيع أن أجد ذلك الفيلم؟ قالت إليزابيث.

ليس عندي أي فكرة على الإطلاق، قال الأستاذ المشرف. كانت فاتنة. لكنها لا تُذكر كرسامة لأيّ شيء ما عدا أشياء قليلة الأهمية. لقد سرقت كل شيء مهم في عملها من أندي وارهول وبيتر بلايك.

ماذا عن طريقتها في استعمال الصور كصور؟ قالت إليزابيث.

يا إلهي، كل شخص كان يقوم بذلك صحبة كلبه في ذلك الوقت، قال الأستاذ المشرف.

ماذا عن كل شخص وكلبته؟ قالت إليزابيث.

أنا آسف، قال الأستاذ المشرف.

ماذا عن هذا؟ قالت إليزابيث.

فتحت الكاتالوج على صفحة طبع عليها لوحتان جنبا إلى جنبٍ.

واحدة كانت تتعلق بلوحة لصورِ رجال من العصور القديمة ورجال من العصور الحديثة. في الأعلى، كان ثمة سماء زرقاء فيها طائرة من القوات الجوية الأمريكية. في الأسفل، كان ثمة رسم بألوان ملطخة يصور إطلاق النار على جون كينيدي في سيارته في دالاس، بين صور سوداء وبيضاء للينين وأنشتاين. فوق رأس الرئيس المصاب كان هناك مصارع ثيران، ورقة حمراء قانية، بعض الرجال المبتسمين في بذلات رسمية، واثنين من فرقة البيتلز.

الصورة الأخرى كانت لشريط غليظ من الصور مرصوفة فوق منظر طبيعي إنجليزي أزرق \ أخضر، اكتمل مع بنية معمارية صغيرة من طراز بالاديو. داخل الشريط كانت هناك عدة صور لنساء شبه عاريات في وضعيات شبيهة بالمجلات البورنوغرافية توحي بالشهوة والغنج. لكن في قلب هذه الوضعيات التي تتظاهر بالحياء كان هناك شيء صاف، نقيّ وفاضح، جزء أمامي كامل من جسد امرأة عارٍ مقطوع من جهتي الرأس والركبتين.

هز الأستاذ المشرف رأسه.

لا أرى أي شيء جديد هنا، قال.

تنحنح.

هناك الكثير والكثير من الصور ذات المحتوى الجنسي في فن البوب، قال.

ماذا عن العنوان؟ قالت إليزابيث.

(كان عنوانا اللوحتين «إنه عالم رجال 1» و«إنه عالم رجال 2»).

تورّدت خدود الأستاذ المشرف واحمرت من الخجل.

هل هناك، أوكان هناك، أي شيء آخر مثل هذا قد رسمته امرأة في ذلك الوقت؟ قالت إليزابيث.

أغلق الأستاذ المشرف الكاتالوج. تنحنح مرة أخرى.

لماذا علينا أن نتخيل أن للجندر أهمية هنا؟ قال الأستاذ المشرف.

ذلك في الحقيقة سؤالي أيضا، قالت إليزابيث. في الواقع، لقد جئت لأراك اليوم لأغيّر عنوان أطروحتي. أريد أن أعمل على موضوع تمثيل التمثيل في أعمال بولينْ بوتي.

لا تستطيعين، قال الأستاذ المشرف.

لماذا لا أستطيع؟ قالت إليزابيث.

ليس هناك تقريبا مواد كافية متوفرة حول بولينْ بوتي، قال الأستاذ المشرف.

أظن أنه هناك ما يكفي، قالت إليزابيث.

ليس هناك تقريبا أي مواد نقدية، قال.

ذلك أحد الأسباب التي جعلتني أعتقد على وجه الخصوص أنه سيكون من المفيد القيام بهذا العمل، قالت إليزابيث.

أنا المشرف على أطروحتك، قال الأستاذ، وها أني أقول لك، أنه ليس هناك موادّ كافية وأن الفكرة ليست جيدة. إنك تسيرين في طريق مسدود. هل تفهمين كلامي؟

أودّ في تلك الحالة أن أتقدّم بمطلب لنقلي للعمل تحت إشراف أستاذ آخر، قالت إليزابيث. هل أقوم بهذا الإجراء هنا أم عليّ الذهاب إلى الإدارة؟

بعد سنة، عادت إليزابيت إلى البيت خلال عطلة عيد الفصح. كان ذلك حين بدأت أمها تفكر في الانتقال، ربما إلى الساحل. استمعت إليزابيث إلى الخيارات واطلعت على تفاصيل البيت التي أرسلها الوكلاء العقاريون في نورفوكْ وسافوكْ إلى أمها.

بعد أن مر الوقت المناسب من الحديث عن البيوت، سألت إليزابيث عن دانيال.

لن يكون لديه من يساعده في البيت، قالت أمها. لن تصله مساعدات من الوجبات الجاهزة إلى بيته. لن يسمح لأي كان بأن يعدّ له فنجانًا من الشاي أو القهوة أو يغسل ملابسه أو يغير له غطاء سريره القديم. تنبعث من البيت رائحة قوية جدا، لكن إذا ذهب أي شخص هناك عارضا أي شيء، عارضا المساعدة، فإنه يجعلك تجلسين، ثم يعد لك كأس شاي بنفسه، إنه لن يسمح لأي أحد بأن يساعده حتى في ذلك. تسعون سنة على الأقل. إنه لم يعد يقدر على هذه الأشياء. لقد أخرجتُ خنفساء ميتة في آخر كأس شاي أعده لي.

سأخطف رجلي لأراه، قالت إليزابيث.

مرحبا، قال دانيال. تفضلي. **ماذا تقرئين؟**

انتظرته إليزابيث حتى يُعدّ لها كأس الشاي. ثم أخرجت من حقيبتها كاتالوج المعرض الذي وجدته في لندن ووضعته على الطاولة.

عندما كنت صغيرة، يا سيد غلاك، قالت، لا أعرف إذا كنت تتذكر، لكن عندما كنا نذهب في جولات على القدمين كنت أحيانا تصف لوحات لي، ويبدو لي، أني قد تمكنت أخيرا من رؤية بعضها.

وضع دانيال نظّارته على عينيه. فتح الكاتالوج. احمرّ وجهه ثم أصبح باهتا.

نعم نعم، قال.

تصفّح الكاتالوج. أضاء وجهُهُ. أومأ برأسِهِ وهزّهُ.

أليستْ أعمالاًبديعةً؟ قال.

أعتقد أنها رائعة فعلا، قالت إليزابيث. إنها حقًّا باهرة. إنها مثيرة للانتباه من ناحية الموضوع والشكل أيضا.

أدار دانيال صورة ناحيتها، لعملينِ تجريديينِ بالأزرق والأحمر، ألوان سوداء وذهبية وزهرية في دوائر وانحناءات.

أتذكّرُ هذه بشكل جليّ، قال.

إني أتساءل يا سيد غلاك، قالت إليزابيث. بسبب حواراتنا، وأنت تعرفها جيّدًا، أتساءل عن مصير الصور. أعْني أنها كانت مفقودة لعقودٍ. لقد اكتشفتُ للتو، حقًّا. ولا أحد في عالم الفنّ يعرفُ عنها شيئا، باستثناء، من خلال ما استطعت معرفته، الناس الذين عرفوها بشكل شخصيّ. ذهبت وسألت عنها في الغاليري حيث عرضوا هذه الصور، منذ ما يقارب السبع أو الثماني سنوات، وقد التقيت بهذه المرأة التي عرفت امرأةً كانت تعرف بولينْ بوتي قليلا، وقد قالت لي إنّ المرأة التي تعرفها ما زالت تجدُ نفسها أحيانا غارقة في بحر من الدموع، حتى بعد حوالي أربعين سنة، كلما تذكرتْ صديقتها. إني أتساءل إذنْ. لقد خطر على بالي. أنك ربما تكون قد عرفت بولينْ بوتي أيضًا.

حسنا حسنا، قال. جميل!

كان ما يزال ينظر إلى الرسم التجريدي الأزرق المعنون بـ Gershwin(*)

لم أعرف أبدا أنها وضعت لها ذلك العنوان، قال.

وعندما تنظر إلى صورها، قالت إليزابيث. لقد كانت جميلة بشكل لا يوصف. ما حدث لها في حياتها مُحزن جدًّا، وأيضا الأشياء المحزنة التي حدثت بعد موتها المحزن، لزوجها، ومن ثمة لطفلتها، إنها فقط مأساة بعد مأساة، محزنة بشكل لا يُحتمل، إلى درجة.

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (Gershwin).

رفع دانيال يده إلى أعلى طالبًا منها أن تتوقّف، ثم يده الأخرى، رفع يديه الاثنتين مفتوحتين إلى أعلى.

صمت.

عاد إلى الكتاب المفتوح على الطاولة بينهما. فتحه على الصفحة التي فيها امرأة مصنوعة من ألسنة اللهب، والرسم التجريبي الأصفر المقابل، الرسوم الحمراء، الزهرية والزرقاء والبيضاء.

انظري إليها، قال.

أومأ برأسه.

إنها شيء عظيم حقًّا، قال.

قلّب كل الصفحات واحدة بعد الأخرى. ثم أغلق الكتاب ووضعه على الطاولة.
رفع عينيه إلى إليزابيث.

لقد كان هناك الكثير من الرجال والنساء في حياتي الذين تمنيتُ وأردتُ أن يحبوني، قال. لكني، أنا نفسي، أحببت بتلك الطريقة مرّة واحدة فقط. ولم يكن شخصا مَنْ وقعت في حبّه. لا، لم يكن شخصا على الإطلاق.

ضرب على غلافِ الكتاب.

من الممكن، قال، أنْ نقع في حبّ عينيْ الشخص وليس الشخص ذاته. أقصد، أن نقع في حُبّ كيفَ أنّ

العينين اللتين ليستا عينيك تجعلانك ترى أينَ أنتَ ومَنْ أنتَ.

أومأت إليزابيث برأسِها كأنّها فهمث.

ليس شخصا.

نعم، وروح عصر الستينيات، قالت، هي.

رافعًا يديه إلى أعلى، قام دانيال بإيقافها مرة أخرى.

علينا أن نأمل، كان دانيال يقول، أنْ يكون الناس الذين يحبّوننا والذين يعرفونّنا قليلا قد رأونا في النهاية فعلًا. في النهاية، لا شيء آخر يَهُمّ.

لكن شعورا بالبرودة كان يتغلغلُ في كل جسدها، يمسحها فتصبحُ واضحة مثل

نافذة مُغطّاة بالصّابون، نافذة ينظّفها عامل تنظيف النوافذ نزولا من الأعلى إلى القاعدة بِشفرةِ المِمْسحة المطاطيّة.

أومأ برأسه، للغرفة أكثر ممّا لإليزابيث.

إنها المسؤولية الوحيدة التي تقع على عاتق الذاكرة، قال. لكن، طبعا، الذاكرة والمسؤولية غريبتان. إنهما أجنبيتان بعضهما عن بعض. تتصرف الذاكرة دائما بشكل مستقل بغض النظر تماما عن كل شيء.

ستكون إليزابيث قد بدت وكأنها تُنصت، لكن كان ثمة داخل رأسها هسهسة حادة، صوت الدم وهو يجري داخل عروقها جاعلا نفسه مسموعا أكثر من أي شيء آخر.

ليس شخصا

دانيال ليس ـــــــ

دانيال لم يكن أبدا ـــــــ

دانيال لم يعرف أبدا ـــــــ

شربت الشاي. استأذنت. تركت الكتاب على الطاولة.

لحق بها في البهو وهو يعرج حاملا الكتاب معه بينما هي تتأهب لفتح الباب الأمامي.

لقد تركتهُ لك عن قصد، قالت. ظننت أنه قد يعجبك. لن أحتاج إليه. لقد سلّمت أطروحتي.

هز رأسه العجوز.

احتفظي به، قال.

سمعت الباب ينغلق وراءها.

كان يوما من أيام الأسبوع في أحد الفصول في إحدى السنوات، ربما في سنة 1949، ربما 1950، أو 1951، في كل الحالات كان ذلك في وقت ما في تلك الفترة.

كانت كريستين كيلر، التي ستصبح مشهورة بعد حوالي عقد من ذلك الوقت، لكونها واحدة من الأفراد الذين عن قصد \ من دون قصد قد ساهموا في تغييرات كبيرة على مستوى الطبقة والأعراف الجنسيّة للستينيّات، بنتًا صغيرة تلعب في الخارج قريبا من النهر مع بعض الأولاد.

استخرجوا شيئا معدنيا من الأرض. كان دائريا من جهة ومدبّبا من الجهة الأخرى. كان هذا الشيء المعدني قنبلة كبيرة بحجم الأجزاء العلوية من أجسامهم. عرفوا أنها قنبلة. لذلك قرّروا أنْ يأخذوها إلى البيت لعرْضها على والد واحدٍ من الأولاد. من المفترض أن يكون قد خَدم في الجيش. سيعرف ماذا يجب أن يفعل بها.

كانت مغطاة بالتراب بسبب كل هذه السنوات التي ظلت فيها مدفونة تحت الأرض لذلك نظفوها ربما بأعشاب مبتلة وكُمّي سُتْرة، أولا. ثم تناوبوا على حملها إلى شارعهم. أسقطوها مرتين. وعندما حدث ذلك فروا مثل معاتيه مخافة أن تنفجر.

أوصلوها إلى بيت الولد. جاء أبوه ليرى ماذا يريد الأولاد خارج البيت.

يا إلهي.

جاء أفراد من القوات الجوية الملكية. قاموا بإجلاء كل الناس من البيوت المتواجدة على جانبي الشارع ثم البيوت المجاورة لهذا الشارع.

في اليوم التالي كانت أسماء هؤلاء الأطفال في الجريدة المحلية.

وردت تلك القصة في أحد الكتب التي كتبتها حول حياتها. هذه واحدة أخرى. تم إرسال كريستين كيلر، عندما كان عمرها أقل بقليل من عشر سنوات، لتعيش في دير لفترة وجيزة. واحدة من قصص قبل النوم التي كانت ترويها الراهبات للفتيات الصغيرات هناك كانت تتحدث عن ولد صغير اسمه راستوسْ.

راستوسْ يحب فتاة بيضاء صغيرة. لكن الفتاة الصغيرة تمرض ويبدو أنها ستموت. يقول أحدهم لراستوسْ إنها ستموت بمجرد سقوط أوراق الشجرة

التي أمام البيت. لذلك يقوم راستوش بجمع كل خيوط الأحذية التي يستطيع جمعها. سيقوم ربما أيضا بفك خيوط سترته وسيقصّ خيوط الصوف إلى قطع صغيرة. سيحتاجُ إلى قطع كثيرة. يصعد الشجرة التي تقع أمام بيت البنت. يربط الأوراق بالأغصانِ.

لكن ريحا عاتية هبت ذات ليلة وأسقطت كل الأوراق عن الشّجرة.

(قبل أن تولد كريستين كيلر بأربعين سنة، لكن ربما في وقت يبدو أن كثيرًا من هؤلاء الراهبات قد حكيْنَ فيه قصصًا مثل هذه للفتيات الصغيرات اللواتي كنّ في رعايتهنّ وكنّ يكبرن أو كنّ شابات في مقتبل العمر، كان راستوش اسمًا شعبيًّا في عروض المغنين ذوي الوجوه السوداء. أصبح اسم شخصية، رمزا عنصريا لشخص أسود، في الأفلام الأولى، في انعطافة قرن من التخييل، وعبر كل الأشكال للإعلام الترفيهي في مراحله الأولى.

في الولايات المتحدة، من بداية القرن وحتى منتصف العشرينيات، كانت الشخصيات السوداء المسماة بِراستوش تستخدم في إعلانات عصيدة القمح من ماركة كْريم أوفْ ويث. كان يلبس قبّعة رئيس الطهاة وقميصه في كل صوره وفي أحد الرسوم كان ثمة رجل أسود كبير بلحية بيضاء وعصا، يتوقف ليلقي نظرة على صورة راستوس في بوستر إعلاني مكتوب عليه «كْريم أوفْ ويثْ لفطوركم» والتعليق الذي تحتها يقول: «أظنّه أكثر الرّجال حظًّا في العالم»

في منتصف العشرينيات، استبدلت ماركة «كْريم أوفْ ويثْ» اسم شخصية راستوش باسم شخصية فرانك آلْ وايث، مع أن الرسومات على البوسترات وفي الإعلانات بقيت تقريبا كما هي. كان فرانك آل وايت رجلا حقيقيا قد أصبحت صورة وجهه، المأخوذة حوالي سنة 1900 عندما كان رئيس طهاة في شيكاغو، الصورة المعتمدة في إعلانات كْريمْ أوفْ ويث. ليس مسجلا في أي مكان إذا كان السيّد وايت قد تلقّى أجرًا مقابل استخدام صورته.

لقد مات سنة 1938.

وقد احتاج الأمر إلى سبعين سنة أخرى ليتم وضع حجر يدلّ على قبره بشكل

رسميّ.

نعود إلى كريستين كيلر.)

هناك قصة أخرى تحكي فيها عن نفسها في الكتابين اللذين كتبتهما بالاشتراك مع كُتّابها الأشباح.

هذه القصة من وقت مختلف من طفولتها. إنها عن اليوم الذي وجدت فيه فأر حقل. لقد أحضرته إلى البيت كحيوان أليف.

الرجل الذي تدعوه بابا قتله. لقد وقفَ فوقه، بينما كانت، كما يفترضُ، تشاهد أمام عينيها ما يحدثُ.

تماما مثل كلّ الأوقات الأخرى، دانيال نائم.

بالنسبة للناس الذين هم هنا، هو ربما مجرد هيئة أخرى في سرير يحافظون عليه نظيفا بشكلٍ مُرْضٍ. ما زالوا يقومون بتغذيته عن طريق الوريد، رغم أنهم أعلموا إليزابيث برغبتهم في الحديث مع أمها حول ما إذا كانت تريد إيقاف التغذية الوريدية أم لا.

نريد منكم، أنا وأمي نريد منكم بشكل قاطع، خاصة أمي، أن تواصلوا تغذيته، قالت إليزابيث عندما طرحوا عليها لسؤال.

مصحة مالتينغز.بي.آل.سي حريصة جدا على الحديث مع أمها، قالت لها موظفة الاستقبال عندما وصلت.

سأقول لها، تقول إليزابيث. ستتّصل بكم.

تقول موظفة الاستقبال إنهم يودّون أن يلفتوا انتباه والدتها وبكلّ لطف إلى قلقهم بخصوص التأخّر في دفع فواتير خدمة الرعاية التي يتلقاها السيد غلاك في مصحة مالتينغز.بي.آل.سي.

ستتصل بكم حتمًا بشأنها قريبا جدًّا جدًّا، تقول إليزابيث.

تعود موظفة الاستقبال إلى جهاز الأيباد، الذي كانت تتابع عليه حلقة معادة من مسلسل جرائم. تُلقي إليزابيث نظرة على الشاشة لحظةً أو لحظتين. امرأة ترتدي ملابس رجال شُرطة يقوم رجل شاب بدهسها بسيارته. يمر فوقها بسيارته في الطريق ثم يعيد الكَرّة مرة ثانية. ثم يعيدها مرة أخرى.

تذهب إليزابيث إلى غرفة دانيال وتجلس بجانب السرير.

إنهم ما يزالون بالتأكيد يقومون بتغذيته وريديًّا.

خرجت واحدة من يديه من تحت الغطاء واتجهت نحو فمه. كانت إبرة التغذية قد شُدت إلى قفاها بينما شُد الأنبوب إلى جانبها. (ينكسر وتر رقيق مشدود داخل صدر إليزابيث عند مرأى الأنبوب والإبرة.) يلمس دانيال، الذي ما يزال ينام نوما عميقا، شفته العليا، لكن برقة، مثلما يفعل شخص وهو يمسح فتات خبز أو كرْواسّون. كأنه يحاول أن يختبر بالشكل الأقل وضوحا، أو يتأكد أنه ما يزال

يملك فما، أو أن أصابعه ما تزال قادرة على الإحساس بما تلمس. بعدئذ تعود اليد لتختفي في الأسفل تحت الأغطية.

تلقي إليزابيث نظرة خاطفة على القائمة المثبتة على مؤخرة سرير دانيال، الرسوم البيانية ومؤشرات درجة الحرارة وضغط الدم.

تشير القائمة في صفحتها الأولى إلى أنّ عمر دانيال هو مائة وسنة.

تضحك إليزابيث بينها وبين نفسها.

(أمها: كم تبلغ من العمر يا سيد غلاك؟

دانيال: عمري ليس قريبا البتة من عدد السنوات التي أنوي أن أعيش يا سيدة ديماند.)

يبدو اليوم مثل سناتور روماني، رأسه النائم نبيل، عيناه مغلقتان وخاليتانِ من التعبير مثل تمثال، عيناه مجرد لحظتين متجمّدتين.

إنه لامتياز أن نراقب شخصا ينام، تقول إليزابيث لنفسها. إنه لامتياز أن نكون شاهدين على شخص هنا وليس هنا في الوقت نفسه. إنه لشرف أن نكون جزءا من غيابه، شرف يدعونا لأن نلتزم الهدوء. ويطالبنا بالاحترام.

لا. إنه أمر شنيع.

اللعنة، إنه شنيع بشكل مقرف.

إنه لأمر شنيع أن تكون على الجانب الآخر من عينيه بشكل حرفي.

سيد غلاك، تقول.

تقولها بصوت هادئ، واثق قريبا من أذنه اليُسرى.

شيآن. لست متأكدة مما يمكن فعله بخصوص الأموال التي يريدونك أن تدفعها. أتساءل إذا كان هناك شيء تريدني أن أفعله بشأنها. والشيء الآخر. يريدون أن يعرفوا ما الذي يجب فعله بخصوص تغذيتك عن طريق الوريد. هل تريد أن يستمروا في تغذيتك؟

هل تريد أن تغادر؟

هل تريد أن تبقى؟

تتوقف إليزابيث عن الحديث. تجلس مرة أخرى مستقيمة الظهر بعيدا عن رأس دانيال النائم.

يستنشق دانيال الهواء. ثم يخرجه من رئتيه. ثم، لوقت طويل، يتوقف عن التنفس. ثم يبدأ من جديد.

تأتي واحدة من الممرضات المساعدات. تبدأ في مسح جوانب السرير والجزء السفلي من إطار النافذة بمواد تنظيف.

إنه رجل عظيم، تقول معطية ظهرها لإليزابيث...

تلتفت.

ماذا فعل في حياته الرائعة الطويلة؟ بعد الحرب، أقصد.

تدرك إليزابيث أن لا فكرة لديها.

كتب أغنيات، تقول. وقد ساعدني كثيرا في طفولتي. عندما كنت صغيرة.

لقد دُهشنا جميعا، تقول الممرّضة المساعدة، عندما حدثنا عن الحرب، عندما اعتقلوهم. رغم أنه إنجليزي في الحقيقة فقدْ اختار أن يكون هناك مع أبيه الألماني العجوز، مع أنه كان بوسعه أن يبقى خارج المعتقل لو أرادَ. وكيف أنه حاول أن يرسل أخته إلى بريطانيا لكنهم رفضوا.

يتنفّس.

يتنفّس.

توقّفٌ طويل.

هل قال لك ذلك؟ تقول إليزابيث.

تدندن الممرضة المساعدة بلحن. تمسح مقبض الباب، ثم حوافّ الباب. تأخذ عصا طويلة مصنوعة من البلاستيك الأبيض مشدودة إلى قطعة قطن مستطيلة من إحدى الجهتين ثم تمسح بها أعلى الباب وغِطاء المصباح الكهربائي.

لمْ يتكلم أبدًا عن أي شيء من ذلك القبيل، لم يفعل ذلك معنا، تقول إليزابيث.

هو فرد من عائلتك، تقول الممرضة المساعدة. من الأسهل الحديث مع شخص لا نعرفه. لقد توفرت لنا فرص كثيرة استمتعنا فيها بالدردشة قبل أن يدخل في

غيبوبة. قال ذات يوم شيئا مهما جدا. عندما تكون الدولة غير عادلة، قال. كنا نتحدث عن التصويت، كان موعده قريبا، لقد فكرت في الأمر كثيرا، منذ ذلك الوقت. عندئذ يصبح الناس أعلاقًا، قال. رجل حكيم، جدك. رجل ذكيّ.

تبتسم لها الممرضة المساعدة.

ما تفعلينه شيء رائع، جميل أن تأتي لتقرئي له. شيء لطيف.

تدفع الممرضة المساعدة عربتها خارج الغرفة. تراقب إليزابيث ظهرها العريض وهي تخرج، وشكل قماش المئزر المشدود عليه وتحت ذراعيها.

لا أعرف أي شيء، لا شيء حقا، حول أي شخص.

ربما لا أحد يعرف.

يتنفّس.

يتنفّس.

توقّفٌ طويل.

تُغمِضُ عينيها. ظلام.

تفتح عينيها مرة أخرى.

تفتح كتابها بشكل عشوائي. تبدأ في القراءة، من حيث فتحته، لكن بصوت عال هذه المرة. أخوانه، حوريات الربيع، أقمن الحداد على أخيهن وقطعن شعورهن إكراما له. حوريات الغابة أقمن الحداد عليه أيضا، وغنت إيكو لازمتها لأجل مراثيهن.

محرقة الجثث، المشاعل التي ستلقى على الجثة والنعش، كلها جاهزة، لكن جسده لم يتم العثور عليه بعد. وجدوا عوضا عن جثته، زهرة ذات دائرة من البتلات البيضاء حول مركز أصفر.

عمري ثلاث عشرة سنة في تلك الصورة، كانت أمها تقول. إجازة بجانب البحر. ذهبنا كل سنة. تلك أمي. أبي.

كان جارهم الذي يعيش في البيت المحاذي ينتظر في الغرفة الأمامية.

كان ذلك مباشرة بعد أن قالت له إليزابيث إن لها أختا. إنها تخشى الآن أن يفضح الجار لعبتها معه ويسأل أمها عن البنت الأخرى.

لم يقل شيئا بعد إلى حد الآن.

كان ينظر إلى صور أمها العائلية على الحائط في الغرفة الأمامية.

تلك الصور، كان يقول، رائعة تماما.

لم تعدّ أمها القهوة فقط وإنما قدمتها في الفناجين الفاخرة.

اعذريني يا سيدة ديماند، قال الجار. أقصد، الصور رائعة. لكن العلامات المصنوعة من الصفيح هي الشيء الحقيقي.

ماذا يا سيد غلاك؟ قالت أمها.

وضعت الفناجين على المائدة وجاءت لتلقي نظرة.

ناديني باسمي دانيال فقط أرجوك، قال الجار.

أشار بيده إلى الصورة.

آه، قالت أمها. تلك الصور. نعم.

هناك لوحات دعائيّة للمثلجات في واحدة من الصور القديمة، وراء أمها التي تبدو فيها طفلة صغيرة. هذا ما كانا يتحدثان عنه.

6 بنسات، قالت أمها. كنت ما أزال طفلة صغيرة عندما تم إدخال النظام العشري. لكني أتذكر البنسات الثقيلة. والقطع النقدية من فئة نصف التاج.

كانت تتكلم بصوت عال أكثر مما ينبغي بعض الشيء. لم يبد أنّ الجار، دانيال، قد انتبه أو انزعج من الأمر.

انظري إلى ذلك الإسفين من اللون الوردي الداكن على الوردي اللامع، قال دانيال. انظري إلى ذلك الأزرق، وكيف تتكثف الظلال هناك حيث تتغير الألوان.

نعم، قالت أمها. صورة رائعة.

جلس دانيال على الأرض بجانب القطة.

ما اسمها؟ قال لإليزابيث.

باربرا، قالت إليزابيث. سميناها على اسم مغنية.

المغنية التي تحبها أمها، قالت الأم.

غمز دانيال لإليزابيث وقال، لكن بصوت خافت، مقتربا منها وكأنه يبوح لها بِسرّ حتى لا تتمكّن أمها، التي ذهبت إلى رفّ الاسطوانات وهي الآن تقوم بفرزها، من سماعه، وكأنّه لم يُردْها أن تسمعه.

بعد أن غنّت المغنيةُ في حفلة ذاتَ مرّة أغنيةً، صدّقي أو لا تصدّقي، كتبتُ كلماتها. وقد حصلتُ على مبلغ جيد مقابل ذلك. لكنها لم تسجّلها أبدًا. كنت سأصبح مليارديرًا لو فعلتْ. غنيًّا بما يكفي لأسافر عبر الزمن.

هل تستطيع أن تغنّي؟ قالت إليزابيث.

لا أبدا، قال دانيال.

هل تودّ فعلا أن تسافر عبر الزمن؟ قالت.

إذا استطعت، أقصد، وكان السفر عبر الزمن شيئا حقيقيّا؟

أودّ ذلك بالتأكيد، قال دانيال.

لماذا؟ قالت إليزابيث.

السفر عبر الزمن شيء حقيقي، قال دانيال. نفعل هذا كل الوقت. لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة.

نظر إلى إليزابيث بعينين مفتوحتين على اتساعهما. ثم وضع يده في جيبه، أخرج قطعة نقدية من فئة عشرين بنسا، رفعها أمام القطة باربرا. فعل شيئا بيده الأخرى فاختفت القطعة النقدية! لقد جعلها تختفي!

ملأت الأغنية التي تتحدث عن كوْنِ الحب أريكة مريحة في الغرفة. ما زالت القطة باربرا تنظر غير مصدقة إلى يد دانيال الفارغة. ترفع قدميها إلى أعلى، تشدّ اليد وتضع فمها داخلها باحثة عن القطعة النقدية. كانت الدهشة تغمر وجهها القططي.

انظري كيف أنّ الأمر عميقٌ في طبيعتنا الحيوانيّة، قال دانيال. أمرُ ألاّ نرى ما يحدث مباشرة أمام أعيننا.

أكتوبر قصير مثل غمضة عين. التفّاحات التي كانت تتدلى من الشجرة منذ دقيقة، اختفت، وأوراق الشجرة قد اصفرّت وصارت خفيفة. جعل الصقيع ألوان ملايين الأشجار عبر البلاد ساطعة. الأشجار التي ليست دائمة الخضرة أصبحت مزيجا من الجمال والزينة، أوراقها حمراء برتقالية وذهبية، ثم بُنيّة، ثم تتساقط على الأرض.

الأيام معتدلة بشكل غير متوقع. لا يبدو أن الصيف قد ولّى، ليس حقًّا، لولا قرصة برد، حركة الظلام المزينة بالدانتيلا ورطوبة حوافه، النباتات هادئة تلتف على نفسها، خرزات الندى على خيوط العنكبوت المعلقة بين الأشياء.

ينتابك شعور في الأيام الدافئة وكأنه ثمة شيء خاطئ، أوراق كثيرة تتساقط.

لكن الليالي تتراوح بين الاعتدال والبرودة.

العناكب في الأكواخ والبيوت تحرس أكياس بيضاتها في أركان السقوف.

كانت بيضات فراشات السنة القادمة محفوظة تحت الجوانب السفلية لأوراق العشب، مُنقَّطةً السيقان التي تبدو ميّتة في الأرض اليباب، مُموّهة غير مرئيّة على الشجيرات والأغصان التي تبدو مثل أجمة.


3

هذه قصة قديمة وجديدة جدًّا إلى درجة أنها ما زالت في طور الحدوث، تكتب نفسها الآن دون معرفة أين ستنتهي أو كيف. رجل كبير في دار رعاية مرضى ينام في السرير على ظهره والوسادة تحت رأسه مرفوعة إلى أعلى. قلبه يدقّ ودمه يجري في عروق جسمه، يتنفّس، هو نائم ومستيقظ وهو ليس سوى ورقة مهملة ممزّقة على سطح جدول جارٍ، عروق خضراء وأشياء من ورق الأشجار، ماء وتيار، دانيال غُلاك يأخذ ورقة حواسّه في النهاية، لسانه ورقة خضراء عريضة، الأوراق تنمو من خلال محاجر عينيه، الأوراق تندفع (كلمة جيّدة جدًّا للسّياق) خارجة من أذنيه، تخرج الأوراق من كهوف منخاريه في شكل لولبي مثل نبتة معرّشة حتى يلتفّ بالأوراق، جلد من الأوراق، تضاريس وشعور بالإرتياح.

وها هو الآن، يجلس إلى جانب أخته الصغيرة.

لكن اسم أخته الصغيرة يغيب عليه الآن. هذا أمر مفاجئ. إنها واحدة من الكلمات التي ظلت تعزّ عليه كل حياته. لا يهمّ. ها هي هنا بجانبه. يدير رأسه وهي هناك. إنّ رؤيتها أمر جميل بشكل لا يحتمل! إنها تجلس بجانب الرسامة. الرسامة التي رفضته بشكل متكرّر، حسنا، تلك هي الحياة، يستطيع أن يشمّ حتى رائحة العطر الذي تضعه، «أوا دي لندن»، ساطع، لذيذ، بنكهة الخشب، عندما عرفها لأول مرة، ثم تقدم بها العُمر وأصبحت جديّة أكثر فغيّرت عطرها إلى ماركة «ريف غوش»، التي يستطيع أن يشمّها أيضا.

الاثنتان، أخته والرسامة، تتجاهلانه. لا شيء جديد هناك. إنهما تتحدثان مع رجل لا يعرفه، شاب، شعره طويل، مظهره جاد، يرتدي ملابس قديمة من الماضي أو ربما من كومة أزياء تراكمت بعضها على بعض بأسفل ركن مسرح؛ يسوّي الرجل طرف كُمّه العريض حول معصمه، يتحدّث عن كيف أنه يحبّ حقلًا مليئًا بعيدان الزرع المتبقية بعد الحصاد أكثر من خضرة الربيع الباردة. يقول. تتّفق أخته والرسامة معه أما دانيال فيجد أنه قد بدأ يشعر بشيء من الغيرة، الحقل المحصود يبدو دافئا. يلتفتُ الرجل الشاب إلى الرسامة، بنفس الطريقة التي تبدو بها بعض الصور دافئة، تومئ الرسامة برأسها موافقة، دون عينيّ، تقول، بشظايا

صوتها اللامعة والبرّاقة، لا وجود لي.

يحاول أن يجذب انتباه أخته الصغيرة.

يلكزها من مرفقها.

تتجاهله.

لكن ثمة شيء كان ينتظر ليقوله لأخته الصغيرة، أراد أن يقوله لها لستين سنة، منذ أن فكر فيه، وكل مرّة فكر فيه مرة أخرى، تمنى لو كانت على قيد الحياة ولو لنصف دقيقة. كانت ستجد الأمر مثيرا جدًا. (يريدها أن تنبهر، أيضا، لمجرد أنه فكّر فيه) كاندينسكي، يقول. بول كلي، أنا متأكّد. إنهما قد يرسمان الصور الأولى التي تناولت هذا الموضوع على الإطلاق. رسْمٌ لمناظر طبيعية جديدٌ بشكل كلّي. إنهما يلتقطان المنظر من داخل العين، لكن تحديدًا أثناء حدوث الصّداع النصفي!

أخته الصغيرة تعاني من الصداع النصفي.

أقصد، كل الأصفر الساطع، المثلثات الوردية والسوداء التي تهتز بمحاذاة الانحناءات والخطوط.

تتنهد أخته الصغيرة.

يجلس الآن على الجزء السفلي من إطار نافذة غرفتها. عمرها اثنتا عشرة سنة. عمره سبع عشرة سنة، أكبر منها بكثير. لماذا إذن يشعر أنه صغير؟ أخته الصغيرة عبقريّة. تجلس إلى مكتبها غارقة في قراءة كتاب، تُغطي كتبٌ نصف مفتوحة مكتبَها، الأرضيّة والسرير. تحبّ القراءة، تقرأ كل الوقت، وتفضّل أن تقرأ أشياء كثيرة في الوقت نفسه، تقول إن ذلك يمنحها أفكارًا ووجهاتِ نظر لا نهائية. إنهما يتشاجرانِ ويتنازعانِ كل الصيف. سيغادرُ صحبة والده غدًا عائدًا إلى المدرسة، في إنجلترا، حيث لا يشعر تماما بالانتماء. يحاول أن يكون لطيفا. تتجاهله. كلما كان ألطف كلما احتقرته. أمر احتقارها له شيء جديد. كان السنة الماضية وكل السنوات التي قبلها بطلَها. كانت السنة الماضية ما تزال تحبّ النكت التي كان يتلوها على مسامِعها، والقطع النقدية التي تختفي بين يديه. هذه السنة تشيحُ عنه بوجهها. تبدو المدينة، على قِدمها، أيضا جديدة نوعا ما وغريبة. لا شيء قد تغيّر لكن كل

شيء مختلف. الجوّ معطّر برائحة الأشجار القديمة نفسها. إنهُ مرَح الصيف. لكن مرح هذه السنة يبدو مثل تهديد مفتوح.

دخلت عليه أمس غرفته فوجدته غارقا في الدموع. فتحت الباب. طلب منها أن تغادر. لم تتركه. وقفت بدلا عن ذلك في المدخل. ما هي المشكلة؟ قالت. هل أنت خائف؟ قال لها لا. كذب عليها كذبة واضحة وضوح الشمس. قال لها إنه قد كان يفكّر في موتزارت وكمْ كان شابًّا ومفلسًا حين مات، وكم خفيفة كانت الموسيقى، وكل هذا جعله يبكي. فهمتُ، قالت في مدخل الغرفة. لقد عرفتْ بشكل لا يقبل الشك أنه كان يكذب. ليس لأنّ موتزارت لا يستطيع أن يجعله يبكي، وكثيرا ما يفعل، من خلال النوتات العالية الحلوة التي تجعله يشعر بما يشبه أورغازْمات صغيرة، رغم أنه لم يقل تلك الأشياء التي لا تقال بصوت عالٍ لأيّ كان، فما بالك بأخته الصغيرة. لكن في الحقيقة؟ لم يكن ذلك ما جعله يبكي في تلك اللحظة. هذا غير معقول، يا أخي الصيفي (هذا هو الاسم الذي أطلقته عليه وكأنه ليس أخاها بشكل دائم، هو فقط أخ في الصيف)، قالت وهي تدقّ بأصابعها على إطار الباب. هذا ليس سببا يدعو للبكاء.

ترفع اليوم رأسها عن المكتب وتتظاهر بالمفاجأة أنه ما زال هناك.

سأذهب، يقول.

لكنه يبقى هناك جالسا على الإطار السفلي للنافذة.

حسنا، إذا كنت ستجلس هناك ناشرًا مثل تلك الكآبة، قالت، فهل تستطيع أن تجد شيئا تفعله؟ عوضَ أن تجلس مثل شخص عليل؟

عليل؟ يقول.

«هكذا يعبر مجد العالم»، قالت بلغة لاتينية. ها ها.

إنها كائن لا يُحتمل. يكرهها.

لا تجلس هناك مثل دمية مقطوعة الخيوط، تقول. كن هنا. افعل شيئا. قل لي شيئا.

أقول لك ماذا؟ يقول.

لا أعرف، تقول. لا أهتم. أي شيء. قل لي ماذا تقرأ.

أوه، أقرأ أشياء كثيرة، يقول.

تعرف أنه ليس بصدد قراءة أيّ شيء. إنها هي التي تقرأ وليس هو.

قل لي شيئا من أحد الكتب الكثيرة التي تقرأها، تقول.

إنها تحاول أن تذلّه، بسبب مشاعره أوّلا، ولأنّهُ لا يقرأ مثلما تقرأ ثانيا.

لكن هناك قصة أجبروا على قراءتها، في المدرسة، في دروس اللغة الفرنسية. هذا سيتكفل بالأمر.

إني بصدد قراءة أحد الكتب في الحقيقة، يقول، القصة المعروفة عالميا للرجل العجوز الذي يملك جلد عنز سحريّا. لكن بسبب تقدمه في العمر، فَعُمرهُ يساوي تقريبا عمر الأسطورة ذاتها، فهو سيموت قريبا.

لأن الكائنات البشرية لا تستطيع أن تكون كائنات أسطورية، ما دامت قابلة للموت، تقول.

آه، طيب، يقول.

تضحك.

وهو يريد أن يترك جلد العنز السحري لشخص آخر، يقول.

لماذا يريد أن يفعل ذلك؟ تقول.

لا يستطيع أن يفكر في جواب. ليس لديه فكرة عن السبب.

حتى لا يذهب السحر هدرًا، يقول. حتى، آه، حتى ....

من أين جاء بفكرة جلد العنز السحريّ في المقام الأول؟ تقول.

ليس لديه أي فكرة. لم يكن منتبهًا إلى الأستاذ في الفصل.

هل كان هناك عنز سحريّة في يوم ما؟ تقول. على حافة المنحدر؟ واحدة تستطيع أن تقفز من أي ارتفاع ومن أي زاوية وتستطيع رغم ذلك أن تحطّ سالمة على حوافرها الصغيرة الناعمة؟ أمْ من اللازم أن تسلخ ثم يصبح الجلد سحريًّا بعد التضحية، بسبب التضحية؟

إنها لا تعرف القصة واخترعت قصّة أفضل من القصة التي يحاول تذكرها.

إذن؟ تقول.

كان جلد العنز السحري، يقول، إذن، غلافَ أقوى كتاب سحر يملكه الرجل العجوز، ولذلك فقد كان مشبعا بالسحر لمئاتٍ ومئات من السنوات. لقد قام بإزالة الغلاف عن الكتاب، في الواقع، ليستطيعَ أن يتركه لشخص آخر.

لماذا إذن لا يقوم تحديدا بترك كل الكتاب لهذا الشخص؟ تقول أخته الصغيرة.

تستدير نحوه وهي تجلس إلى مكتبها، تتقاسم وجهها تعابير السخرية والمودة.

لا أعرف، يقول. كل ما أعرفه هو أنه قرر أن يتركه لشخص آخر. لذلك...، يجد شابا ليعطيه له.

لماذا اختار رجلا شابا؟ تقول أخته الصغيرة. لماذا لا يختارُ امرأة شابة؟

اسمعي، يقول. أنا فقط أحكي لك ما قرأت. وقد قال الرجل العجوز للشاب، هنا. خُذْ هذا الجلد السحريّ. عاملْه باحترام. إنه قوي جدًّا. ما يجب عليك فعله ليعملَ هو أن تضع يدك عليه، ثمّ تمنَّ أمنية. وعندئذ تتحقّق أمنيتك. لكن ما لم يقله للشابِّ هو أنه كل مرّة يتمنّى فيها أمنية على جلد العنز السحريّ، فإن الجلد يصبح أصغر، يتقلّص حجمه، وهذا يعتمد على حجم الأمنية التي يتمناها. وهكذا تمنى الشاب أمنية، وتحققت أمنيته، وفعلها مرة أخرى وتحققت أمنيته. وعاش حياته عيشة هانئة بفضل الأمنيات التي تمناها وحققها له جلد العنز السحريّ. لكن جاء يوم أصبح فيه جلد العنز صغيرا جدا، أصغر من حجم راحة اليد. لذلك تمنّى أن يصبح أكبر، وعندما أفصح عن أمنيته أصبح الجلد أكبر فأكبر فأكبر، كل قطعة بحجم العالم، وعندما بلغ حجم العالم اختفى، دون أن يترك أي أثر.

نظرت إليه أخته الصغيرة غير مصدقة.

وعندئذ مات الشاب، لقد كبر قليلا الآن، لكنه لم يكن بنفس عُمر الرجل العجوز، على ما أعتقد، يقول.

تنهّدت أخته الصغيرة.

هل هذا هو كل ما في الأمر؟ تقول.

حسنا، هناك بعض التفاصيل التي لم أتذكّرها، يقول. لكن نعم، تلك هي

الخلاصة.

حسنٌ، تقول.

تأتي إلى النافذة وتقبّل خده.

شكرا جزيلا لأنك حكيت لي حكاية جلد القلفة السحري، تقول.

لا ينتبه إلى ما قالت إلا بعد لحظات قليلة من الانتهاء من حديثها. عندما ينتبه، يحمرّ وجهه من الخجل احمرارا شديدا. كل جسمه يحمرّ خجلا. تنتبه إلى احمرار وجهه فتبتسم.

لأنه لم يكن من اللائق لي أن أقول تلك الكلمة، أليس كذلك؟ تقول. رغم أن ذلك هو ما تقصده القصة في الحقيقة. رغم أن مئات السنوات من التنكر قد قصد من ورائها إبعادي عما تعنيه حقًّا قصص العالم. طيب، جلد القلفة. جلد القلفة جلد القلفة جلد القلفة.

ترقص في الغرفة صارخة بالكلمة التي لا يتجرأ هو نفسه على قولها بصوت عال.

إنها مجنونة.

إنها على حق بشكل غريب بخصوص تلك القصة.

إنها عبقرية.

إنها تمثل مستوى جديدا بشكل كلي لكلمة «حقيقي».

إنها خطيرة ولامعة.

تأتي إلى النافذة وتفتحها على مصراعيها.

تصرخ باتجاه الشارع، نحو السماء (لكن بالإنجليزية، ولله الحمد)، تعال يا جلد القلفة، اذهب يا جلد القلفة! لكن موتزارت يبقى للأبد. ثم تقفز عائدة إلى مقعدها بجانب المكتب، تمسك الكتاب الذي كانت بصدد قراءته وتفتحه على الصفحة حيث توقّفت وكأن شيئا لم يحدث.

ينتظر لحظة ثم يلقي نظرة خاطفة على الشارع. ثمة سيّدة قد توقّفت مع كلبها الصغير، تقف الآن ناظرة إلى فوق ويدها فوق عينيها؛ باستثناء ذلك، تستمر الحياة في الشارع كعادتها دائما، ودون أن تكون لديه فكرة أنّ أخته الصغيرة بذلك

الجنون، وبتلك الشجاعة، وأنها على ذلك القدر من التوحّش والهدوء في آن. وأنه يعرف الآن بالتأكيد أنها عندما تكبر ستكون قوة عظيمة في العالم، مفكّرة مهمّة، عامل تغيير، وشخصًا يؤخذ في الحسبان.

أخي الصيفي.

الرجل العجوز في سرير في دار رعاية.

أختي الصغيرة.

ليس أكثر من عشرين، إحدى وعشرين.

لم تبق أي صورة لها. الصور في بيت أمهما؟ احترقت منذ مدة طويلة، ضاعت، اختفت، تبعثرت في الشارع.

لكن ما زال عنده بعض الصفحات، من الرسائل التي تعود إلى فترة عنايتها بأمهما. كانت في الثامنة عشر من عمرها. هذه رسالة بخط يدها الذي يميل إلى الأمام بشكل جميل.

إن المسألة تتعلق بكيفية نظرتنا إلى وضعيّاتنا، عزيزي داني، كيف ننظر ونرى أين نحن، وكيف لا نختار، إذا استطعنا، عندما نرى بشكل لا يقبل الشك، اليأس، وفي نفس الوقت، كيف نتصرف على أحسن وجه. ذلك بالضبط هو ما نسميه الأمل، ذلك هو كل شيء، إنها مسألة كيف نتصرف مع الأشياء السلبية المسلطة على الكائن البشري من طرف كائن بشري آخر في العالم، متذكرين أننا كلنا بشر، وأنّ لا شيء يفعله البشرُ غريبٌ علينا، الظالم والعادل، وأن أهم شيء هو أننا هنا لمجرد رمشة عين، هذا كل شيء. لكن في تلك النظرة الخاطفة ثمة إما غمزة حميدة أو عماء إراديّ، وعلينا أن نعرف أننا قادرون على فعل الاثنين، وأن نكون جاهزين لنكون فوق الأخطاء وأبعد منها حتى عندما نكون غارقين فيها حتى العينين. إنه من المهم إذن ــــــ وها إني أعبر عن امتناني للروح الطيبة والجذابة والحزينة لأخي العزيز الذي أعرفه جيدا، ــــــ ألّا نضيّع الوقت، وقتنا، عندما تتاح لنا الفرصة.

العزيز داني.

ماذا قد فعل بالوقت؟

بعض القصائد المقفاة التافهة.

لم يكن هناك أي شيء آخر، حقا.

بالإضافة، لقد أكل جيدا، عندما حققت القصائد المقفاة بعض الأرباح.

الخريف رقيق. الخريف أصفر. يستطيع أن يتذكر كل كلمة من تلك الأغنية السخيفة. لكنه لا يستطيع أن يتذكر.

إلهي العزيز، إنه لا يستطيع.

سامحني، يا إلهي العزيز، هل أستطيع أن أزعجك وأطلب منك أن تذكّرني باسمِ أختي الصغيرة؟

ليس لأنه يعتقد أنه هناك إله. في الواقع يعرف أنه لا يوجد. لكن فقط في حالة إذا ما كان هناك شيء مثل ذلك:

ذكرني أرجوك باسمها مرة أخرى.

آسف، يقول الصمت.

من يكون؟

(صمت.)

مَن هناك؟

(صمت.)

الإله؟

ليس تماما.

مَن إذن؟

من أين أبدأ؟ أنا قرن استشعار الفراشة. أنا المواد الكيمائية التي صنعت منها الألوان. أنا الشخص الميت على حافة الماء. أنا الماء. أنا الحافة. أنا جلد الخلية. أنا رائحة المواد المطهّرة. أنا الشيء الذي يمسحون به على شفتيك لترطيبها، هل تستطيعُ أن تشعر به؟ أنا طريّ. أنا صلب. أنا بلور. أنا رمل. أنا قارورة صفراء بلاستيكية. أنا كل البلاستيك في البحار وفي بطون كل الأسماك. أنا الأسماك. أنا

البحار. أنا الرخويات في البحار. أنا علبة البيرة القديمة التي رفستها الأقدام. أنا عربة التسوق المرمية في القنال. أنا النوتة على المدرج الموسيقي، العصفور على الخط. أنا المدرج الموسيقي. أنا الخط. أنا عناكب. أنا بذور. أنا ماء. أنا حرارة. أنا قطن الإزار. أنا الأنبوب الذي في جنبك. أنا بولك في الأنبوب. أنا جنبك. أنا جنبك الآخر. أنا آخرك. أنا الكحّة التي تخترق الجدار. أنا الكحّة. أنا الجدار. أنا المخاط. أنا الشعب الهوائية. أنا بالداخل. أنا بالخارج. أنا ازدحام السيارات في الطريق. أنا تلوّث. أنا سقوط روث حصان على طريق ريفية منذ مئة سنة. أنا سطح ذلك الطريق. أنا ما تحت. أنا ما فوق. أنا الذبابة. أنا سلالة الذبابة. أنا سلالة سلالة سلالة سلالة سلالة سلالة الذبابة. أنا الدائرة. أنا المربع. أنا كل الأشكال. أنا الهندسة. لم أبدأ بعد حتى في قولِ ما أنا. أنا كل شيء يصنع كل شيء. أنا كل شيء يفكك كل شيء. أنا النار. أنا الفيضان. أنا الطاعون. أنا الحبر، الورق، العشبُ، الشجرة، الأوراق، الورقة، الخُضرة في الورقة. أنا العروق في الورقة. أنا الصوت الذي لا يقول حكاية.

(شخير) ليس هناك شيء من هذا القبيل.

عفوا لكن هناك. إنه أنا.

هل قلت ورقة؟

قلت ورقة، نعم.

أنت؟ الورقة؟

هل أنت أصمّ؟ أنا الورقة.

هل أنت ورقة واحدة ووحيدة؟

لا، لأكون أكثر دقّة. كما قلت ووضّحت سابقا. أنا كل الأوراق.

أنت كل الأوراق؟

نعم.

هل سقطت إذن؟ هل ما زلت تنتظرين السقوط؟ في الخريف؟ في الصيف إذا كان الطقس عاصفا؟

حسنا، حسب التعريف. وبقولك «كل الأوراق» تقصد أوراق السنة الماضية؟

أنا.

وأوراق السنة القادمة؟

نعم، أنا.

أنت كل الأوراق القديمة التي تحللت منذ زمن، أوراق كل السنوات؟ وكل الأوراق التي ستأتي؟

نعم، نعم. بالتأكيد. بحق السماء. أنا الأوراق. أنا كل الأوراق. اتفقنا؟

والأشياء التي تسقط؟ نعم أم لا؟

لا تستطيع أن تخدعني إذن، مهما كنت. لن تخدعني ولو دقيقة واحدة.

(صمت.)

هناك دائما، وسوف يكون هناك دائما قصص أكثر. هذا هو معنى القصة.

(صمت.)

إنه سقوط الأوراق الذي لا ينتهي.

(صمت.)

أليس كذلك؟ ألست كذلك؟

(صمت.)

بما أن فصل الخريف الفعليّ على الأبواب، فإن الطقس قد أصبح أحسن. لقد كان الجو حتى الآن كثير الذباب إلى حدّ القرف، غائما، باردًا وخريفيًّا كلّ الصيف، تقريبًا منذ أوّل مرّة ذهبت فيها إليزابيث إلى مركز البريد لتقوم بخدمة: «تأكّدْ وأرسلْ» المتعلّقة بمطلب جواز السّفر.

الآن يصل جواز سفرها الجديد في البريد. لابدّ وأن يكون شَعرها في الصورة قد استوفى المعايير المحدَّدة في النهاية. ولابدّ أن تكون مقاسات عينيها قد استوفت الشروط أيضا.

تُري جوازَ سفرها إلى أمّها. تشير أمُّها إلى كلمات «الاتحاد الأوروبي» في أعلى غلاف جواز السفر ثم تتلوّن ملامحُ وجهها بالحزن. ثم تبدأ في تصفّحه.

ما كل هذه الرسومات؟ تقول. هذا الجواز مزيّن بالرسوم مثل كتاب أطفال من دار نشر لاثيدي بيرْدْ.

كتاب أطفال من دار لاثيدي بيرْدْ تتناولُ حبوب هلوسة، تقول إليزابيث.

لا أريد جوازَ سفر جديدًا إذا كان سيكون مثل هذا، تقول أمّها. وكل هؤلاء الرجال، على كل صفحاته. أين كل النساء؟ أوه، هذه واحدة. هل هذه غرايسي فيلدز؟ مهندسة معمارية؟ لكن مَن بحقّ السماء؟ وهل هذا هو كل شيء؟ هل هذه المرأة التي ترتدي قبعة غريبة هي المرأة الوحيدة في كامل الجواز؟ أوه، لا. هذه واحدة أخرى، لكنها مطوية نوعا ما في منتصف الصفحة، وكأنها قد أضيفت في آخر لحظة. وهنا اثنتان أخريان، على الصفحة نفسها مع عازفَيْ مزمار القرية الاسكوتلنديين، الاثنتان تمثّلان صورتين نمطيّتينِ لراقصتين إثنيّتيْنِ. الفنون الأدائية. حسنا، تلك سكوتلاندا ونساء وقارّتانِ في حالة جيّدة وفي المكان المناسب حقًّا.

تعيد الجواز إلى إليزابيث.

لو رأيت هذا الشيء السخيف، الذي يحسبه الناس جواز سفر، قبل الاستفتاء، تقول، لعرفت أنه كان عليّ الاستعداد جيدا وبشكل مُبكّر لِما كان قادما في الطريق بشكل لا يدعو إلى الشك.

تخبّئ إليزابيث جواز السفر الجديد بجانب المرآة في غرفة النوم التي أعدتها لها

أمها في الجزء الخلفي من البيت. ثم تأخذ معطفها لتذهب إلى محطة الحافلات.

لا تنسي، تقول أمّها بصوت عالٍ. العشاء. أريدك أن تكوني هنا عند الساعة السادسة. ستأتي زُوّي.

كانت زُوّي مُمثلة صغيرة في بي بي سي عندما كانت أمها طفلة صغيرة أيضا. وقد قابلت أمها زُوّي أثناء تسجيل حلقة من برنامج «مطرقة المزاد الذهبية» منذ أسبوعين وقد أصبحتا صديقتين. أستدعيت زُوّي لتشاهد حلقة افتتاح البرلمان الأسكتلندي، التي سجّلتها أمّها على مُسجل الفيديو الرقمي في بداية الشهر وقد أَصرّت على أنْ تُريها لإليزابيث. كانت أمّها، التي سبق وأنْ شاهدتها عدّة مرات، غارقة في الدموع منذ البداية، منذ أن ذكر الرجلُ، الذي يقوم بالتعليق الصوتيّ، الكلمات المحفورة على الصولجان.

حكمة. عدالة. رأفة. نزاهة.

إنها كلمة النزاهة، تقول أمها. تجعلها هذه الكلمة تبكي دائما. أسمعها فأرى في رأسي وجوه الكاذبين.

رسمت إليزابيث تكشيرة على وجهها. تصحو كل صباح وبها شعور أنه قد وقعت خيانتها في شيء ما. الشيء القادم الذي تفكر فيه، عندما تفعل، هو عدد الناس الذين يستيقظون، في كل البلاد، وبهم شعور أنه قد تمت خيانتهم في شيء ما، بغضّ النظر عن الجهة التي صوّتوا لها.

تماما، قالت.

ما زلتُ أبحث عن بيت للبيع هناك، قالت أمّها. لن أترك الاتحاد الأوروبي.

ليس هناك مشكلة بالنسبة لأمّها. لقد عاشت حياتها.

«ابسطْ نفوذك على بريطانيا»، كان كمشةٌ من البلطجية يغنون بصوت يشبه الصراخ في الشارع خلال عطلة نهاية الأسبوع قريبا من شقة إليزابيث. «تحكمُ بريطانيا الأمواجَ». سنتخلّص من البولنديين. ثم نتخلّص من المسلمين، ثم الغجر والمثليّين. أنتم كلّكم ملاحقون ونحن قادمون لمطاردتكم، صرخ أحد المتحدّثين باسم اليمين في وجه نائبة برلمانية أثناء حوار إذاعي ضمّ مجموعة من الخبراء

على القناة الرابعة راديو 4 صبيحة ذلك السبت. لم يقم رئيس الجلسة الحوارية بتوبيخه، أو التعليق عليه، أو حتى الإقرار بالتهديد الذي صدر عن الرجل. قام عوضًا عن ذلك بإعطاء الكلمة الأخيرة للنائب البرلماني عن حزب المحافظين المشارك في الحوار، والذي استغل الثلاثين ثانية الأخيرة من البرنامج ليتحدّث عن السبب الحقيقي والمزعج لقضيّة ليس للتهديد الواضح الذي صدر عن شخص ضد شخص آخر على الهواء. الهجرة. كانت إليزابيث تستمع إلى البرنامج في الحمّام. أغلقت الراديو بعد الحوار وتساءلت عمّا إذا كان بوسعها أن تستمع إلى راديو 4 ببراءة مرة أخرى. لقد تعرضت أذناها إلى تغيير جذريّ. أو العالم هو الذي قد تغير.

لكن هل يعاني من تغيير جذري

ليصبح غنيّا و ــــــ

غنيًّا وماذا؟ فكرت.

غنيًّا وفقيرًا.

مسحت البخار عن المرآة، وقفت في صدى نفسها وهي فقط واقفة في حمام. نظرت إلى صورتها المضبّبة المنعكسة على المرآة.

مرحبا، قالت إليزابيث لأمها على الهاتف صباح الغد. هذه أنا. هذا ما أعتقد على الأقل.

أدرك تماما ما تقصدين، قالت أمها.

هل أستطيع أن آتي لأجلس عندك قليلا؟ أريد أن أنتهي من بعض المشاريع التي أعمل عليها وأنْ أكون قريبة قليلا من البيت.

ضحكت أمها وقالت لها إنها تستطيع أن تجلس في الغرفة الخلفية كل الوقت الذي تريد.

في الأثناء، كانت زُوّي، الطفلة النجمة من فترة الستينات، قادمة أيضا، لتشاهد برنامجا حول إسكتلندا.

لقد تعمّقت علاقتي بزُوّي بسبب وعاء قطع نقدية فضي، قالت لها أمها. لا أدري إن كنت تعرفين ما هو، هل تعرفين؟ إنه يبدو مثل ساعة جيب عندما يكون مغلقا.

لقد رأت واحدا أو اثنين على القنوات التلفازية المتخصصة في بيع الأشياء القديمة. كان هناك واحد فوق خزانة قامت زُوّي بالتقاطه وفتحه ثم قالت يا للحسرة، لقد أخذ أحدهم الساعة من داخله. لكني قلت لها لا، لعله وعاء قطع نقدية. فقالت متفاجئة، هل هذا هو حجم وعاء قطع نقدية؟ القروش القديمة، على أي حال؟ ربما قد عرفت. قطعة الجنيه الاسترليني 1£ . ستكون قيمتها قريبا p60. لقد ضحكنا بصوت عال إلى درجة أننا أفسدنا تصوير مشهد تلفزيوني في الغرفة المجاورة.

أريدك أن تتعرّفي عليها، تقول أمها مرة أخرى الآن. لقد أدخلت البهجة على قلبي بشكل لا يوصف.

لن أنسى، قالت إليزابيث.

ستنسى ما إن تتجاوز عتبة البيت.

مرارا وتكرارا. حتى في فترات النوم الطويلة، رأسه على الوسادة وعيناه مغلقتان، بالكاد هنا، يفعل، ما هو قادر دائما على فعله.

دانيال جميل دون حدود. حياة رائعة بشكل لا يقاس. كيف يفعل ذلك؟

لقد جاءت بالكرسي من الرواق. أغلقت الباب المؤدّي إلى الغرفة. فتحت الكتاب الذي جاءت به معها اليوم. بدأت تقرأ، من البداية، بهدوء، ثم بصوت عال. كان أحسن الأزمان، كان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الحماقة، كان عصر الإيمان، كان عصر الشك، كان موسم النور، وكان موسم الظلام، كان ربيع الأمل، وكان شتاء اليأس، كان لدينا كل شيء أمامنا، لم يكن أمامنا أي شيء. لقد فعلت الكلمات فعلها مثل تعويذة. لقد أطلقت كل شيء، في لحظات. لقد جعلت كل شيء يحدث يقف بعيدا بما يكفي.

كان سحرا بكل المعايير.

من يحتاج جواز سفر؟

من أنا؟ أين أنا؟ ما أنا؟

أنا أقرأ.

يتمدد دانيال هناك نائما مثل شخص من حكاية خرافية. تمسك الكتاب المفتوح على الصفحات الأولى بيديها. لا تقول أي شيء على الإطلاق بصوت عال.

كان هناك وقت، تقول في نفسها، عندما كنت صغيرة جدا وقد منعتني أمي من رؤيتك، وقد فعلت ما طلبت مني لكن لثلاثة أيام فقط. في صباح اليوم الثالث عرفت لأول مرة أني سأموت في يوم ما. لذلك تجاهلتها جهارا نهارا. خالفتُ تعليماتها. ما كان بوسعها أن تفعل شيئا. لم تكن سوى ثلاثة أيام، ولقد شعرت بفخر أنك لن تنتبه إلى الموضوع أو تعرف به في ذلك الوقت.

لكني أريد أن أعتذر على عدم تواجدي هنا في السنوات الأخيرة. إنها عشر سنوات، بالتمام والكمال. أنا فعلا آسِفة. لم يكن هناك أي شيء أستطيع فعله بشأنها. لقد كنت مجروحة بشكل ميؤوس منه بسبب شيء تافه.

طبعا، من الممكن أنك لم تلحظ ذلك الغياب أيضا.

لقد فكرت فيك كل الوقت. حتى عندما لم أكن أفكر فيك، فكرت فيك.

إليزابيث صامتة، باستثناء صوت تنفسها.

دانيال صامت، باستثناء صوت تنفسه.

بعد وقت قصير من هذا، يغلبها النعاس فتنام على الكرسي ورأسها يتّكئ على الحائط. تجلس في المكان المدهون بالأبيض في حلمها.

المكان المدهون بالأبيض هذه المرة هو شقتها.

لنكُن صادقين، هذه ليست شقتها وهي تعرف ذلك في الأحلام: لقد تعودت الآن على فكرة أنها ربما لن تكون قادرة أبدا على شراء بيت. هذه ليست مشكلة كبيرة. لا أحد يستطيع هذه الأيام باستثناء الناس من ذوي الجيوب الممتلئة أو الذين يموت آباؤهم. أو الذين آباؤهم أغنياء. لكن لا يهمّ. عندها عقد استئجار. عقد استئجار لشقّة ذات جدران بيضاء في الأحلام. تستطيع أن تسمع صوت تلفاز الجيران عبر الجدار. إنها واحدة من الطرق التي تساعد في معرفة أنه لديك جيران.

يطرق أحدهم على الباب. سيكون الطارق دانيال. ليس هو. إنها فتاة صغيرة ذات وجه خال من التعبير مثل ورقة بيضاء. خال من التعبير مثل شاشة بيضاء. ينتاب إليزابيث شعور بالهلع. تعني الشاشة البيضاء أن الكمبيوتر قد تعطّل وأن كل المعارف قد بدأت تمّحي. لن تستطيع أن تطلّع على ملفّاتها. لن يكون بمقدورها أن تعرف ما الذي يجري في العالم. لن تكون قادرة على الاتّصال بأيّ أحد. لن يكون بوسعها أن تفعل أي شيء مرّة أخرى على الإطلاق.

تتجاهل الفتاةُ إليزابيث. تجلس في المدخل كي لا تتمكن إليزابيث من غلق الباب. تُخرج كتابًا. لابدّ أن تكون ميراندا من مسرحية العاصفة لشكسبير. ميراندا التي من العاصفة تقرأ «عالمٌ جديدٌ شُجاع».

ترفع عينيها عن الكتاب كأنها قد أدركت للتوّ أنّ إليزابيث هناك أيضا.

لقد جئت أحمل لك أخبارا عن أبينا، تقول.

ذهب اليوم أبوهما، تقول الفتاة ذات الوجه الخالي من التعبير، ليشتري حاسوب لابتوب جديدًا.

هدية لك، تقول الفتاة (أخت إليزابيث). ثم حصل هذا الأمر بعد ذلك.

ترى إليزابيث بعدئذ ما حدث لاحقا وكأنها تشاهد فيلما.

في الطريق إلى متجر «جون لويس» يتوقف رجل (أبوها؟) عند شباك متجر «كاش كونفارترز» للبضائع المستعملة ليلقي نظرة ويرى إن كان هناك أي شيء أرخص. تقف امرأة وتنظر أيضا. هل تنظر إلى حواسيب اللابتوب؟ تقول؟ نعم، يقول والد إليزابيث. كل ما في الأمر، تقول المرأة، هو أني على وشك الذهاب إلى ذلك المتجر لأبيعَ حاسوبي الجديد، وكما قلت، فهو جديد. لقد حصلت على وظيفة جديدة في أمريكا وأنا الآن لا أحتاج هذا الحاسوب الجديد. لكن إذا كنت تفكر في شراء حاسوب لابتوب، فأنا أستطيع أن أبيعه لك عوضا عن بيعه لمتجر «كاش كونفارترز» وبسعر جيّد لحاسوب لابتوب جديد.

يذهب والد إليزابيث مع المرأة إلى موقف سيارات حيث تفتح صندوق السيارة ثم تخرج من حقيبةٍ حاسوب لابتوب جديدا. تستطيع إليزابيث في الحلم أن تشمّ رائحة الحاسوب الجديد.

600 جنيه إسترليني نقدًا، تقول المرأة، أليست هذه صفقة عادلة؟ نعم، يقول والد إليزابيث. هذه صفقة عادلة. سأذهب لأحضر النقود من آلة الصرفِ الآلي.

سأذهب معك، تقول المرأة معيدةً الحاسوب إلى الحقيبة ثم تغلق صندوق السيارة.

يذهبان إلى آلة الصرف الآلي. يسحبُ النقود. يعودان إلى السيارة. يعطي المبلغ إلى المرأة. تفتح المرأة صندوق السيارة، تخرج الحقيبة وتعطيها له. تغلقُ صندوق السيارة ثم تقودها مبتعدة.

يفتح والدنا بعدئذ الحقيبة، تقول الفتاة ذات الوجه الخالي من التعبير. لم يكن ثمة شيء في تلك الحقيبة سوى بصل. بصل وبطاطا. خُذي.

تعطي الحقيبة لإليزابيث. تفتحها. إنها مليئة بالبصل والبطاطا.

شكرا، تقول إليزابيث. اشكريه بالنيابة عني.

تنظر حيث يجب أن يكون مكان الفُرن. لكن ليس هناك أي شيء في الغرفة

ذات الجدران البيضاء.

لا يهُمّ، تفكر في نفسها. عندما يأتي دانيال، سيجد شيئا ما ليفعلهُ بالبصل والبطاطا.

تستيقظ في تلك اللحظة.

تتذكّر الحلم لجزء من الثانية، ثم تتذكّر أين هي وتنسى الحلم.

تمدّ ذراعيها، كتفيْها ورجليها على الكرسي.

هذا ما يحدث إذن عند النوم مع دانيال.

تبتسم لنفسها.

(لطالما تساءلت)

لقد كان يوم أربعاء عاديًّا في شهر أبريل 1996. كانت إليزابيث في الحادية عشرة من عمرها. كانت ترتدي حذاء بعجلات. عندما تضع وزنك عليه يضيء بأضواء ملونة تومض وتخبو عند الكعبين. لا تستطيع أن ترى هذا بنفسك إلاّ إذا عمَّ الظلامُ وأطفأْت أضواء كل غرف النوم في البيت أو قمت بإنزال الستائر وضغطت عليها بيدك.

كان دانيال عند الباب الأمامي.

سأذهب إلى المسرح، قال. مسرح الهواء الطلق. هل تريدين أن تأتي أيضا؟

قال لها إن موضوع المسرحية كان عن الحضارة، الاستعمار والإمبريالية.

يبدو أنها مملّة قليلا، قالت.

ثقي بي، قال دانيال.

ذهبتْ إذن ولم تكن مملّة، لقد كانت جيّدة حقًّا، عن أب وبنتٍ. كانت أيضا عن الإنصاف والظلم، وعن ناس يتم تنويمهم مغناطيسيًّا في جزيرة ويحيكون مؤامرات بعضهم على بعض ليروا من يستطيع أن يبسط سيطرته على الجزيرة، وترمز بعض الشخصيات إلى العبيد بينما ترمز شخصيات أخرى إلى مَن تمّ تحريرهم. لكنها كانت عموما حول فتاة يقوم والدها الساحر بترتيب حياتها المستقبلية. في النهاية كان يمكن أنْ يكونَ للبنت حضورٌ أكثر قليلا مما كان، لكن المسرحية كانت حقًّا جيّدة رغم ذلك؛ كادت إليزابيث أن تبكي في النهاية عندما تقدّم الأب المُسِنّ من دون معطفه وعصاه السحرييْن وسأل الحاضرين من الجمهور أن يصفّقوا لأنهم إنْ لم يفعلوا فَسيَغْلقُ في المسرحية مدى الحياة على الجزيرة المزيّفة ومناظرها الطبيعية المصنوعة من الورق المُقوّى. إذا لم يفعلوا، فإن الأمر سيكون تماما كأنه ما زال عالقًا هناك في مسرح الهواء الطلق واقفا في الظلام كل الليل.

لقد كان من المثير حقًّا أنْ تستطيع أن تحرّر شخصًا من شيء بمجرّد التصفيق بيديك.

عادت إلى البيت متزلجة بالحذاء ذي العجلات أمام دانيال حتى يستطيع أن يرى الأضواء تبرق.

عندما كانت في الفراش تلك الليلة تذكّرت قدميها والرصيف الذي يمرّ تحتهما بسرعة كبيرة وفكرت أنّه من الغريب جدا أنْ تستطيع أنْ تتذكّر بشكل كامل تفاصيل غير مهمّة مثل الشقوق في الرصيف بشكل أوضح من قدرتها على تذكّر أيّ شيء حول والدها.

قالت في اليوم التالي لأمّها عندما كانتا على طاولة الفطور، لم أستطع أن أنام ليلة البارحة.

آه يا عزيزتي، قالت أمها. حسنا، ستنامين الليلة بالتأكيد.

لم أستطع أن أنام لسبب ما، قالت إليزابيث.

حقّا؟ قالت أمها.

كانت أمها تقرأ الجريدة.

لم أستطع أن أنام، قالت إليزابيث، لأني لم أستطع أن أتذكر أي شيء من ملامح وجه أبي.

حسنا، أنت محظوظة، قالت أمها من وراء الجريدة.

أدارت الصفحة، طوتها على صفحة أخرى، نفضت الجريدة في الهواء لتأخذ شكلها السابق ثم أمسكتها بيديها في الهواء بينهما.

شدّت إليزابيث الحذاءَ ذي العجلات حول قدميها وربطت الخيوط جيّدًا ثم ذهبت إلى بيت دانيال. كان دانيال في الحديقة الخلفية. تزلجت إليزابيث بالحذاء ذي العجلات في الطريق.

مرحبا، قال دانيال. هذه أنتِ. ماذا تقرئينَ؟

لم أستطع أن أنام ليلة البارحة، قالت.

انتظري، قال دانيال. أولًا وقبل كل شيء، قولي. ماذا تقرئينَ؟

«تقنية الشيطان»، قالت. إنها رواية جيدة حقا. لقد حدثتك عنها أمس. الرواية التي تتحدث عن ناس يخترعون قصة خيالية تصبح أحداثها حقيقية وتبدأُ في الحدوث وهذا أمر رهيب في الواقع.

أتذكّر، قال دانيال. ويوقفون الأحداث السيئة بالغناء.

نعم، تقول إليزابيث.

كنتُ أتمنى لو كانت الحياة بسيطة جدًّا هكذا، قال دانيال.

هذا ما أقول، قالت إليزابيث. لم أستطع أن أنام.

بسبب ذلك الكتاب؟ قال دانيال.

حدثته إليزابيث عن الرصيف، قدميها، وجه والدها. بدت على وجه دانيال علامات القلق. جلس على العشب وسوّى لها مكانا بيده بجانبهِ.

ليس مشكلة أن تنسيْ، كما تعرفين، قال. إنه أمر جيد أيضا. في الواقع، من اللازم أن ننسى الأشياء أحيانا. النسيان مهم. نحن ننسى لسبب وجيه. يعني أننا نأخذ استراحة. هل تسمعين؟ من اللازم أن ننسى. أو فإننا لن ننام مرة أخرى أبدا.

كانت إليزابيث تبكي الآن مثلما يبكي طفل صغير. كان بكاؤها مثل سحابة ماطرة.

وضع دانيال يده مفتوحة على ظهرها.

سأقول لك ما أفعله أنا عندما يحزنني أنّي لا أتذكّر أمرًا بعينه، هل تسمعينني؟

نعم، قالت إليزابيث وهي تبكي.

أتخيّل أنّ الشيء الذي نسيته ملفوف على نفسه في مكان ما قريب مني، مثل طائر نائم.

أي نوع من الطيور؟ قالت إليزابيث.

طائر بري، قال دانيال. أي نوع من الطيور. ستعرفين أي نوع عندما يحدث هذا معك. بعدئذ، ما أفعله هو، أنّي أمسكه هناك، دون أنْ أمسكه بشدة ثم أدعه ينام. وهذا هو.

ثم سألها إن كان صحيحا أن أضواء حذاء التزلّج[22] تعمل فقط على الطرقات، وإن كان صحيحا أنّ هذه الأضواء لا تضيء أبدا إذا تزلّجت بالحذاء على العشب.

توقفت إليزابيث عن البكاء.

اسمه حذاء بالعجلاتِ[23]، قالت.

---

(22) حذاء بأربع عجلات مثبتة على أربع زوايا rollerskates. م.

(23) حذاء بثلاث عجلات متوازية rollerblades. م.

حذاء بالعجلاتِ، قال دانيال. صحيح. حسناً؟

ولا تستطيع أن تتزلج بالحذاء ذي العجلات على العشب، قالت.

ألا تستطيعين؟ قال دانيال. كم مخيّبة هي الحقيقة أحيانا. ألا نستطيع أن نحاول؟

ليس هناك معنى من المحاولة، قالت.

ألا نستطيع أن نحاول في كل الحالات؟ قال. لعلّنا ندحض الإجماع العام.

طيب، قالت إليزابيث.

وقفت. مسحت وجهها بِكُمّها.

بُعثَ من الموتِ، قالت إليزابيث. جوع، حرمان ولا شيء. تبدو المدينة كلها مثل سفينة في قلب العاصفة وهذه هي البداية فقط. التوحّش قادم. ستبدأ الرؤوس في التدحرج.

كانت إليزابيث في البهو تعلّق معطفها. قامت أمّها بتقديمها للتو لصديقتها زُوّي وسألتها كم صفحة من رواية **قصّة مدينتين** قرآ اليوم.

مَن هو السيد غلاك؟ تقول زُوّي الصديقة الجديدة لأمها.

كان السيد غلاك، وهو رجل مثليّ مُسنّ مَرِح، جارنا منذ سنوات، تقول أمّها. لقد كانت مُعجبة به، أصبح صديقها عندما كانت طفلة صغيرة. كانت طفلة صعبة. أشفقُ على نفسي. كانت طفلة يَصْعُب فهمُها.

لا، لم يكن. نعم كنت وما أزال. ولا لم أكن. بذلك الترتيب. قالت إليزابيث.

هل رأيتِ؟ تقول أمها.

أنا نفسي أحبّ مَن يصعبُ فهمهم، تقول زويّ.

تبتسم لإليزابيث ابتسامة صداقة حقيقية.

في السّتينيّات من عمرها ربما. وَسيمة أنيقة بشكل غير مُبالغ فيه. هي الآن كما يبدو محلّلة نفسيّة معروفة جدًّا. (ضحكت إليزابيث عندما قالت لها أمّها هذا، في النهاية أنت تواعدين أحدًا كنت محتاجة إليه بعد كل هذه السنوات، قالت.) تشبه قليلا تلك الفتاة الرّاقصة مع كشك الهاتف في الفيلم في ذلك الوقت؛ الفتاة التي تشبها هي وميض من تقنية فيلم قديم بالألوان، وميض في مكان ما زال يصدر منها. الفتاة التي كبرت دافئة، براقة مثل تفاحة ما تزال في مكان عال من الشجرة بعد أن وقع قطاف كل التفّاحات الأخرى. في الأثناء، تقوم أم إليزابيث بمجهود واضح، تزيّنت بالماكياج وارتدت ملابس جديدة مصنوعة من الكتّان مثل تلك الملابس التي تباع في المتجر ذي البضاعة الغالية في القرية.

وبَقيتما على اتصال كل هذه السنوات، تقول زُوّي.

لقد فقدنا الاتصال ببعضنا، في الواقع، تقول أمها، حتى عثر عليّ أحد الجيران على الإنترنت وأخبرني أنّه قد جمع أغراضه وباع منحوتة الحجر المقدّس لباربرا

هيبوورث.

نموذج بالحجم الطبيعي، تقول إليزابيث.

يا إلهي، تقول زُوّي. لديه ذوق رائع.

وقد دخل دار رعاية، تقول أمها. وقد حدث أن أخبرت إليزابيث، التي كانت هنا لتراني بعد غياب طويل، لست أمزح، مرة واحدة، في مجموع، لست أمزح، ستّ سنوات، قلت لها على الهاتف، قلت لها آه بالمناسبة، السيد غْلاك العجوز. إنه في مكان يُدعى مالتينغز وهو كما يبدو ليس بعيدا عن هنا. وأنا لست أمزح. أصبحت تزورني كل أسبوع، كل هذا الصيف. مرتين أحيانا. وهي الآن تعيش هنا لبعض الوقت. من الجميل أن تكون لديك بنت مرة أخرى. إلى حدّ الآن، على الأقل.

شكرا، تقول إليزابيث.

وأنا الآن أتطلع إلى قليل من الاهتمام الحقيقي في السنوات المتأخرة من حياتي، تقول أمها. كل هذه الكتب التي لم أقرأها، مِدّلْ مارش (Middlemarch)، موبي-دِكْ، الحرب والسلم. لا يعني هذا أني سأعيش السنوات المتأخرة من حياتي مثلما فعل السيد غْلاك. إنه يبلغ 110 سنوات من العمر الآن.

يبلغُ كَم؟ تقول زُوّي.

إنها دائما ما تخطئ في عمره. إنه يبلغ 101 سنة فقط، تقول إليزابيث.

تهز زُوّي رأسها.

فقط، تقول مندهشة. سأكتفي بخمس وسبعين سنة. أي شيء بعد ذلك، سيكون مكافأة. حسنا. أقول ذلك الآن. مَنْ يدري ما سأقول عندما أبلغُ خمسًا وسبعين سنة؟

لقد كان يضع بروجكتوز وشاشةً في الحديقة الخلفية لبيته خلال ليالي الصيف، تقول أمها، ويريها أفلاما قديمة، كنت أنظر من النافذة، السماء تضيئها النجوم بينما هما يجلسان في صندوق صغير من الضوء. كان ذلك منذ سنوات عندما كان ما تزال هناك أصيافٌ. عندما كان ما يزال هناك فصول، ليس فقط الفصل الأوحد الذي لدينا الآن. وهل تتذكرين عندما رمى ساعته في النهر.

القنال، تقول إليزابيث.

وقال لك إن ما فعله كان دراسة للوقت والحركة؟ قالت أمها.

يا لها من صداقة رائعة، قالت زُوّي. وتذهبين لرؤيته كل أسبوع؟ وتقرئين له؟

أحبه، تقول إليزابيث.

تومئ زُوّي برأسها موافقة.

رفعت أمها عينيها إلى السماء.

هو تقريبا في غيبوبة، تقول بصوت خفيض. أخشى أنه لن يفيق منها.

ليس في غيبوبة، تقول إليزابيث.

عندما تقول ذلك تشعر بحافة الغضب في صوتها. تهدّئ نبرة صوتها وتتكلّم مرّة أخرى.

إنه فقط نائم، تقول، لكن لوقت طويل. إنه ليس في غيبوبة. إنه يستريح. لابدّ أنه قد تعب بسبب جمع أغراضه وترتيب بيته وكل هذه الأشياء.

ترى أمها تهزّ رأسها بالنفي لصديقتها الجديدة.

أنا، سأتخلص من كل شيء، تقول زُوّي. في القنال، النهر، في أقرب مكان. أو أتبرع بكل شيء. ليس هناك معنى في الاحتفاظ بأيّ شيء.

تذهب إليزابيث إلى الغرفة ذات النوافذ الكبيرة وتستلْقي على ظهرها على الأريكة. لقد نسيت ليالي الأفلام، شابلن يحصل على وظيفة في السيرك كمساعد ثم يضغط عن طريق الخطأ على الزر الذي طُلب منه ألا يضغط عليه على طاولة، فترى الساحر والبطات والحمامات والخنازير الصغيرة تأتي طائرة من حجرات خفيّة.

وقفت إذن في البهو واتصلت برقم الهاتف كل أسبوع، لقد كنت يائسة، تقول أمها التي يصل صوتها من خلال المطبخ، 018118055، ما أزال أحفظه عن ظهر قلب، هذا يعني أني نادرًا ما شاهدت البرنامج، لقد كنت دائما في البهو. لكن حالما أصبحت لديّ الفكرة، اعتقدت أن الأمر كان مسلّيا، اعتقدت أني كنت الطرافة بعينها. لذلك، كل أسبوع. ثم استطعت الحصول على الرقم المطلوب ذات أسبوع. وقد جاءت البنت التي تردّ على الهاتف، وقد كان الموظفون حينها يجلسون في الجزء

الخلفي من الاستوديو يردّون على المكالمات ويسجّلون المبادلات، ونطقت بالكلمات السحرية «المتجر الملوّن للمقايضات»، وقد قلتها، أنا وِنْدي بازْفيث وأريد أن أقايض مملكتي مقابل حصان، وقد وضعوا هذه الأمنية على الشاشة وعرضوها على أساس أنها واحدة من أهم عشرة مقايضات لديهم، وِنْدي بازْفيت، **تعرضُ مملكةً، تريدُ حصانًا.**

لقد قابلت مرةً، نويلْ، قالت صديقتها. حسنا، لثلاثين ثانية. لقد كان أمرا مثيرا جدًّا. كان ذلك في مطعم الموظفين.

كل حياتنا، تقول أمها. كل حياتي، كطفلة. الليلة الموالية لجنازة أبي، أمّنا ـأعتقد أنها لم تعرف ما يجب عليها فعله فتحت التلفزيون، وجلسنا كلنا هناك، وهي معنا، نشاهد مسلسل «عائلة والتونْ»، وكأنّ ذلك قد جعل الحالة أفضل، جعل كل شيء يبدو طبيعيا مرة أخرى.

كل شيء يبدو سحريا بالنسبة لي، مثيرا، مريحا، كما كان بالنسبة لك، تقول صديقة أمها. رغم أنه كان من المفترض أن أكون جزءا منه. والآن كل ما يريد كل شخص معرفته هو ما إذا كان هناك أي استغلال. هل فعل أيّ شخصٍ شيئًا ما كان يجب أن يفعله لنا. الناس الذين يسألون، يشتاقون لسؤال، ليس ذلك فقط، يشتاقون لسماع شيء سيّئ، يريدون أن يكون هناك شيء خاطئ قد حدث، كثيرا ما يشعرون بالخيبة عندما أقول لهم لا، عندما أقول لقد كان وقتا رائعا، وأني أحببت العمل، أحببت عملي كممثلة أكثر من أي شيء آخر، أحببت أيضا أن أحصل على أجمل الملابس وأنّي عَلّمت نفسي التدخين في المقعد الخلفي من السيارة التي تأتي لتقلّني إلى العمل وتعود بي إلى البيت ـ وإذا قلت ذلك، الشيء المتعلّق بالسجائر، فإنهم يقطّبون حواجبهم ويعتبرون ذلك انتهاكا للبراءة، الرغبة الملحة في أنْ أكون نفسي الأكبر سنًّا. الرغبة الملحة التي تسكننا كلنا في أن نكون أكبر سنًّا، ألا نكون ذلك الطفل بعد الآن.

تصحو إليزابيث. تجلس مستقيمة الظهر.

بدأ الظلام يخيّم في الخارج.

تنظر إلى هاتفها. تقترب الساعة من التاسعة.

تستطيع أن تسمع الهمهمات الخفيفة للحديث الدائر في البهو. لقد انتقلتا إلى غرفة الجلوس. لابدّ أنهما قد تناولتا العشاء من دونها.

تتحدثان عن غرفة محددة ذهبتا إليها في أحد المتاجر أثناء تصوير برنامج «مطرقة المزاد الذهبية». لقد حدثتها أمها عن هذه الغرفة. كانت كبيرة، الغرفة، قالت لها أمها، لا شيء فيها غير الآلاف من كؤوس نبيذ «شيري» الإسباني القديمة المكوّمة بعضها داخل بعض.

مثل الدخول إلى ما تظنين أنه سيصبح جزءا من التاريخ والعثور على هَشاشة حزينة لا تنتهي، تقول زُوّي. ضربة واحدة. كارثة. انتبهي إلى حيث تضعين قدميك. وكل الهواتف القديمة.

الكلاب الفخارية، قالت أمها.

المحابر. (زُوّي.)

علب الوقيد الفضية والمنقوشة، من ماركات «ليون» و«أنكور»، برمنغهام، بداية القرن. (أمها.)

معرفتك بهذه الأشياء جيدة جدا. (زُوّي.)

أشاهد برامج كثيرة على التلفزيون. (أمها.)

من اللازم أن نخرج أكثر. (زُوّي.)

المِمْخضة. (أمها.) مطحنة القهوة التي تثبَتُ على الحائط. (زُوّي.) فخار مدينة بولْ. فخاريات مزيفة منسوبة لكْلاريس كْليف. الروبوتات اليابانية المصنوعة من الصفيح. (لم تعد إليزابيث قادرة على تمييز صوت مَن التي تتكلّم منهما.) دمى بيلهامْ، هل تتذكرينها، ما زالت في صناديقها. الساعات. ميداليات الحرب. الأواني الكريستالية المنقوشة. المناضد الصغيرة المتداخلة. القرميد. الدوارق. الخزائن. التحف. رفوف النباتات. الكتب القديمة للصور الفوتوغرافية. نوتات الموسيقى. اللوحات. واللوحات. واللوحات.

في جميع أنحاء البلاد تكدّست كل الأشياء من الماضي على الرفوف في المتاجر

والمخازن والمستودعات، مكوّمة في وحدات خاصة للعرض فوق وحدات خاصة للعرض وتفيض على السلالم من أقبية المتاجر، مثل أوركسترا وطنية كبيرة تنتظر بصبر وقت الافتتاح، الأقواس مثبتة مباشرة فوق الأوتار، كل الأقمشة خافتة الألوان، كل الأشياء ثابتة وساكنة حتى تفرغ المتاجر من الناس، حتى تنطلق صفارات الإنذار على الأبواب، حتى تدور المفاتيح في أقفال آلاف المتاجر والمخازن والمستودعات في جميع أنحاء البلاد.

عندئذ، عندما يخيم الظلام، تبدأ السمفونية. آه، آه، تلك فكرة جميلة. سمفونية الأشياء المباعة والمهملة. سمفونية كل الحيوات التي كانت هذه الأشياء جزءًا منها ذات يوم. سمفونية الأشياء التي لديها قيمة والأشياء التافهة. سيكون للفخاريات المزيفة المنسوبة لكْلاريسْ كْليفْ صوتٌ مثل صوت الناي. سيكون للأثاث البُنّي صوتٌ جهير، منخفض. سيكون للصور الفوتوغرافية في الألبوم القديم المبقع بآثار الرطوبة، صوتٌ يَمِهسُ من خلال الورق الشفاف. ستكون الأشياء الفضية صافية. سيكون للأثاث المصنوع من الخيزرانِ صوت مثل صوت القصب. الأواني المصنوعة من البورسلينْ؟ سيكون لها صوت يجعلها تبدو وكأنها ستنكسر في أية لحظة. الأشياء المصنوعة من الخشب سيكون لها صوت تينورْ. نعم، لكن هل سيكون ثمة أية اختلاف بين الأشياء الحقيقية والأشياء المنسوخة؟

بدأت المرأتان في الضحك.

تستطيع إليزابيث أن تشمّ رائحة الدخان.

لا. إنها تستطيع أن تشمّ رائحة الحشيش.

تعود إلى التمدّد على الأريكة فَتَسْمعهما تضحكان حول عدد المرات التي أفسدتا فيها مشاهد تصوير برنامج «مطرقة المزاد الذهبية» بسبب ضحكاتهما في مواقف لا تستدعي الضحك أو عدم قولهما الأشياء الصحيحة. تفهمُ، من خلال ما تقولانه، أنه كان ثمة مشكلة كبيرة بسبب عناد أمها، التي رفضت أن تسلّم على الشخص الذي يملك متجر التحف القديمة الذي تمّ فيه تصوير البرنامج، وكأنها تلتقيه أوّل مرّة، بينما كانت في الحقيقة قد التقت به منذ ساعة كاملة وقامت بتصوير المشهد

خمس مرات قبل الآن. مرحبا مرة أخرى! قالت في كل مرة. توقّف! يصرخ فريق الإنتاج.

لا أستطيع ببساطة أن أفعلها، تقول أمها. لقد كانت مصطنعة بشكل غبيّ. لقد كنتُ حالة ميؤوسًا منها.

تماما. وقد منحتِني أملا كبيرا، تقول الصديقة الجديدة.

تبتسم إليزابيث. هذا جيّدٌ.

تجلس مستقيمة الظهر. تعبر اليهو نحو المطبخ. لوازم العشاء كلها جاهزة على الطاولة في انتظار من يطبخها.

تذهب بدلا عن ذلك إلى غرفة الجلوس فتجدها ممتلئة برائحة الحشيش. تجلس الصديقة الجديدة لأمها على الكرسي الطويل وأمها تجلس في حِجْرها. كان ذراعا كلّ منهما حول الأخرى مثل منحوتة رودان المشهورة، وهما غارقتان في قُبلة.

آه، تقول إليزابيث.

تفتح زُوّي عينيها.

لقد أكتشِف أمرُنا! تقول.

تراقب إليزابيث أمها وهي تجاهد في أنْ تحتفظ، ليس فقط بهدوئها، وإنما أيّ توازن مُمكن فوق رُكبتيْ صديقتها الجديدة.

تغمز للصديقة أمّها الجديدة من خلال دخان الحشيش.

إنها بانتظارك منذ أن كان عمرها عشر سنوات، تقول إليزابيث. سأطبخُ العشاء، ما رأيك؟

كان مساء جمعة مشمسًا منذ عشر سنوات، في ربيع 2004. كانت إليزابيث تبلغ العشرين من عمرها تقريبًا. كانت تعيش مع أمها. كانت تشاهد ألْفي(*)، فيلما كان من المفترض أن تظهر فيه بولين بوتي. قام مايكل كاينْ في الفيلم بدور زير نساء. لقد كان فيلما رياديًا في ذلك الوقت لأن كاينْ الذي كان اسمه ألْفي قد تحدّث بصراحة كبيرة، مباشرة إلى الكاميرا، عن المغامرات الجنسية.

في المشاهد الأولى من الفيلم، يمشي مايكل كاينْ في شارع لندني مشمس في فترة الستينات ويطرق على زجاج نافذة قائلًا خدمة سريعة في الداخل ليشدّ انتباه امرأة شابة في الداخل.

إنها هي.

تدور، تبدو سعيدة وتومئ له بأن يدخل. يقوم أثناء عبوره عتبة الباب بتغيير علامة مفتوح إلى مغلق ويتبعها إلى الجزء الخلفي. ثم يأخذها بين ذراعيه ويقبّلها، ثم يتسلّل وراء حمّالة ملابس لِيُضاجعها بشكل كوميدي سريع لا يتجاوز ثلاث ثوان.

لقد كانت بولين بوتي بالتأكيد.

تم تصوير الفيلم سنةً قبل موتها.

لم يكن اسمها في قائمة الممثلين.

كنت أستمتعُ بحياة جميلة صغيرة. ولم أتمكن من رؤيتها. يقول المعلّقُ بصوت مايكل كاينْ. كانت هناك مديرة محلّ التنظيف الجاف تلك. دخل المحلّ، وراء الملابس مع الفتاة، ثم خرج من الجهة الأخرى بعد لحظات قائلا، وقد كنتُ بالإضافة إلى ذلك أقوم بتنظيف البذلة.

وفقًا لما قرأت إليزابيث حول حياة بولينْ بوتي، فإنها كانت حاملا في هذه المشاهد. كانت تلبس قميصا أزرق فاقعا وكان شعرها بلون حبوب الذرة.

لكنك لا تستطيع كتابة ذلك في أطروحة جامعية. لا تستطيع أن تكتب. جعلت الأمر يبدو كأنه حفلة. كما لو كانت كلها طاقة وحيوية. أو أن الطاقة تأتي

(*) ألْفي (Alfie) هو فيلم كوميدي تم إنتاجه في المملكة المتحدة وصدر في سنة 1966.

منها في شكل أمواج. لا تستطيع أن تكتب، رغم أن ما تكتبه يشبه كثيرا اللغة المتوقعة، تظهر في ذلك الفيلم لأقل من عشرين ثانية لكنها تضيف شيئا مهما وأنثويا بشكل هامّ حول اللذّة. لنقدِ الأخلاقيات المعاصرة الجديدة والمتحرّرة، التي كانت موضوع أعمالها الاستطيقية أيضا.

كلام فارغ.

فتحت إليزابيث كاتالوج بولينْ بوتي مرة أخرى وتصفّحته. في الأثناء كانت الألوان المتوحّشة الساطعة تزداد بريقا وحيويّة كما لو كانت تحاول التملص من الصفحات.

توقفت عند واحدة من الصور الضائعة منذ فترة طويلة، صورة كريستينْ كيلر على الكرسي. كانت كيلر قد نامت مع رجلين، أحدهما كان وزير الحرب في حكومة لندن، والآخر كان دبلوماسيًّا روسيًّا، وقد كان الأمر حوْل كذبٍ صارخ في البرلمان، ثم حوْل مَن يملك قوة أكثر ومَن يملك معلومات عن الأسلحة النووية. باستثناء أنه أصبح بعد وقت قصير، ظاهريًّا على الأقلّ، عن شيء آخر تمامًا، حول من امْتلك كيلر، مَن تكفّل بمصاريفها، ومَن استفاد أو لم يستفد منها ماديًّا.

لوحة بولين بوتي، الفضيحة 63، كانت مفقودة منذ العام الذي رُسمت فيه. كان هناك صور فوتوغرافية لها فقط. في النسخة النهائية، رسمتْ بوتي كريستين كيلر على كرسيّها الدانماركي محاطة بعناصر تجريدية، رغم أن بعض هذه العناصر تبدو مجازية: كان ذلك، الذي في جهة اليسار، يمكن القول، قناع مأساة؛ وأنه كان ثمة امرأة تستمتع على ما يبدو بأورغازم. فوق صورة كيلر على الكرسيّ، على شيء يشبه شُرفة مُظلمة، رسمت بوتي، شيئا يشبه قليلا رؤوسا مقطوعة معلقة على سور المدينة، رؤوس وأكتاف أربعة رجال، رجلين من السود ورجلين من البيض. في نسخة أولى، قبل هذه، تستطيع أن ترى نصفها في صورة مع بولين بوتي نفسها، تستطيع أن تشكّل فكرة عن حجم اللوحة، وهي كبيرة بما يكفي لترتفع إلى ما فوق خصر بوتي. في هذه النسخة الأولى لم تستخدم بوتي الصورة المشهورة لكريستينْ كيلر على الكرسي.

غيرت رأيها في النسخة النهائية، وفعلت.

كتبت إليزابيث بقلم الرصاص على صفحة من دفتر الملاحظات: إن الفنّ الذي مثل هذا يدرس إعادة تقييم الملامح الخارجية للأشياء ويجعلها ممكنة وذلك بتحويلها إلى شيء آخر لا يمت بصلة للأصل. صورة للصورة تعني أن الصورة يمكن أن ترى بموضوعية جديدة، وذلك بتحريرها من الأصل.

أطروحة كلام فارغ.

نظرت إلى الصورة الفوتوغرافية لبولين بوتي واقفة بجانب لوحة الفضيحة 63. أخذت الكتاب إلى النافذة لترى الصور الفوتوغرافية في ما تبقى من ضوء النهار.

لا أحد يعرف من طلب هذه اللوحة.

لا أحد يعرف أين هي الآن، وما إذا كانت ما تزال في مكان ما، ما إذا كانت ما تزال موجودة.

نظرت مرة أخرى إلى الكيفية التي شكّل بها القناع، الوجه التراجيدي للغرغول، نفسه وفكّكها في جزء جانبيّ من الصورة.

حاولت إليزابيث أن تقرأ عن موضوع لوحة الفضيحة كي تستطيع أن تفكّر في الصورة وتكتب عنها. قرأت كل شيء استطاعت أن تجده على الإنترنت وفي المكتبة: بعض الكتب الثقافية عن الستينيّات، كتابين بقلم كيلر، نسخة من تقرير دينينغ عن الفضيحة التي شكّلت موضوع اللوحة. لم تكن تعرف أن الاقتراب من الكذب، حتى بمجرد القراءة عنه، يمكن أن يجعلك تشعر بالغثيان. الحكاية كلها كانت نوعا ما مثل إجبار شخص على مشاهدة شيء بريء براءة فيلم ألْفي من خلال لبس قناع جِلدي للإثارة الإيروتيكية، وكثير من الأدوات الجنسية المؤلمة التي لم يوافق أبدًا على ارتدائها أصلًا.

كلّما فكرت، بينها وبين نفسها، في القصة الحقيقية حول فضيحة لوحة الفضيحة، فإن تفصيلا صغيرا في القصة يَخِزها مثل شصّ صنارة.

مؤرّخ فنّ اسمه بلانت، كان عليه بعد وقت قصير أنْ يعاني تبِعات فضيحة جنسية \ استخباراتية، كان قد ظهر، في منتصف المحاكمة المتعلقة بالفضيحة

سنة 1963، في رواق فنون في لندن حيث كان ثمّة معرض لفن البورتريه. كانت الأعمال المعروضة لستيفن وارد، الذي أصبح الشرير أو الضحية في الفضيحة في ذلك الوقت وقد مات بعد وقت قصير في ظروف جعلت موته يبدو انتحارًا. كان وارد قد رسم بورتريهات لمشاهير وأغنياء ذلك الوقت، الأرستقراطيين، العائلة المالكة، السياسيين وكثير منهم كانوا جزءا من المعرض هنا. لقد قدّم بلانث مبلغا ماليا كبيرا نقدًا واشترى البورتريهات كلها، كل شيء في الغاليري، برمته.

يبدو أنه قد أخذها بعيدا، تقول الكتب والمقالات، ثم قام بإتلافها.

كيف أتلفها؟ هل أوقد فيها النيران في مدفأة بيت أحد الأثرياء؟ هل غمرها بالوقود في حديقة بيت ريفي معزول؟

ما تخيلته إليزابيث هو أنه كانت هناك حفرة عميقة في حقل ذرة محصود في مكان ما في الخلاء، حفرة حفرتها حفارة آلية بحجم جرّار، عميقة جدًّا، عميقة بما يكفي لتتّسع لجثّتين. وقفَ فريقٌ صغير من الناس حول حافة الحفرة ورمى فيها البورتريهات واحدًا تلو الآخر، صانعًا مقبرة جماعية من البورتريهات، كُدْس من الشخصيات المهمة.

ثم تخيّلت الفريق الصغير من الناس يجرّ ويدفع بقوة حصانا أو ثورًا قد ذُبح للتو لإنزاله من مجرورة شاحنة كبيرة ورميهِ في الحفرة. لقد تخيّلت الحفّارة تضع جثة الحصان أو الثور بشكل ميكانيكي فوق الحفرة المليئة بالبورتريهات، ثم يقوم السائق بدفع ذراع الحفّارة فتسقط الجثة في الحفرة. تخيّلت الحفّارة تدفع تراب الحقل فوق الفنّ والجثة وتردمُ الحفرة. تخيّلت عجلات الحفّارة تسوّي كوم التراب بالأرض، والناس يمسحون الغبار عن ثيابهم ويغسلون أيديهم بالماء وينظفون أظافرهم من التراب عندما يعودون إلى مكان ما.

كان الحصان أو الثور زخرفة زائدة. لو كانت إليزابيث رسامة لكانَ التركيز على كيفيّة التعبير عن التعفّن.

لقد تخيّلت أحيانًا لوحة الفضيحة 63 لبولين بوتي هناك أيضا، الجثة تسقط عليها، فيكسر الوزنُ الثقيل إطار اللوحة الخشبيّ. تخيّلتْ بلانث صاعدًا سلالم

البيت الذي كان فيه استوديو بولينْ بوتي، جيوبه مليئة بالأوراق النقدية، غير متكرّم بلمس الدرابزين الذي كانت أوساخ سنوات ما قبل الحرب، وسنوات الحرب وسنوات ما بعد الحرب ما تزال عميقة في نتوءات خشبه.

لكنك لا تستطيع أن تكتب أيًّا من ذلك في أطروحة جامعية.

انظر، لقد كانت تخريش في الهامش. هناك دوّامات وأمواج ومسارات لولبية.

لقد أعادت الاطلاع على ما كتبت فعلًا. إن الفنّ الذي مثل هذا يدرُس إعادة تقييم الملامح الخارجية للأشياء ويجعلها ممكنة.

ضحكت.

أخذت قلم الرصاص، محت كلمة «ال» من الجملة بالممحاة المثبتة على رأس القلم. جعلت كلمة فن نكرة، ثم أضافت كلمة جديدة تماما مباشرة في أول الجملة لتبدأ الجملة على هذا النحو:

إنّ فنًّا فرجويًّا...

بورتريه من الكلمات لجارنا[24]. جارنا الذي يسكن بجانب بيتنا الجديد الذي انتقلنا إليه هو أكثر جار أنيق عرفته إلى حد الآن. هو ليس كبيرا في السن. أمي لن تسمح لي بأن أسأله أسئلة حول كونه جارنا والتي كان من المفترض أن أطرحها عليه من أجل بورتريه الكلمات الذي نعمل عليه. تقول إنه ليس مسموحا لي بأن أزعجه. لقد قالت إنها ستشتري لنا جهاز فيديو جديدا وفيلم الجميلة والوحش إذا تخيّلت أني أطرح عليه الأسئلة عوضا عن طرحها عليه بشكل حقيقي. بكل صراحة، أنا أفضّل ألا يكون عندي الفيلم أو جهاز الفيديو لكني أفضل أن أسأله الأسئلة عن شعوره بقدوم جيران جدد وهل الأمر هو نفسه بالنسبة له. هذه هي الأسئلة التي أودّ أن أطرحها عليه: 1- كيف تبدو تجربة العيش بجانب جيران 2- ما معنى أن تكون جارا 3- كيف تشعر عندما تُعتبر كبيرا في السن لكنك لست كبيرا 4- لماذا بيته مليء بالصور لماذا هي ليست مثل الصور التي في بيتنا، وأخيرا 5- لماذا هناك دائما موسيقى كلما مررت قريبا من الباب الأمامي لجارنا الذي يسكن مباشرة بجانبنا.

---

(24) كتبت إليزابيث هذا البورتريه عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها وقد اختارت الكاتبة أن تعكس لغةُ هذا النص عمرَ الشخصية فتركته كما هو دون تصحيح الأخطاء. م.

الصباح الموالي في 2016، كان التلفزيون الصغير على الرفّ في المطبخ مفتوحا لكن الصوت خفيض؛ لابدّ أنه كان مفتوحا يضيء المطبخ ويعتّمه كل الليل.

إليزابيث هي الشخص الوحيد المستيقظ إلى الآن. تملأ إبريق القهوة ماءً وتضعه على الموقد، وحين تشعل النار تحته ترى على الشاشة شابًّا وشابّة في العشرينيّات من العمر يتسوّقان بشكل منفصل في أحد الإعلانات التجارية لسوبرماركت، وفجأة تسقط المشتريات عن الرفوف في أيديهما في آن واحد، رغيف خبز، علبتي معكرونة، ثم يجدان نفسيهما متعانقين وكأنهما مسحوران، ثم يبدآن في رقص الفالس مدهوشين أنهما يعرفان كيف يرقصان هذه الرقصة. كان ثمة في الجناح المجاور طفل صغير يلتقط علب البيض التي كان والداه قد تركاها تسقط عن الرفوف. كان يراقب والديه وهما يدوران معا حول هرم من الأجبان. قريبا من قسم الأسماك كان هناك زوجان عجوزان، كان الرجل يمسك علبة قريبا من نظّارته، بينما كانت المرأة تمسك بعربة تشبه مشّاية، كان الاثنان ينظران إلى الأعلى، وكأنهما يسمعان شيئا فوقهما. يتبادلان نظرة تنمّ عن معرفتهما بالأمر. ثم تدفع المرأة العربة التي كانت تمسكها بعيدا، تتراجع إلى الخلف بخفّة لا تصدق وتقف بكل توازن على رجليها، يترك الرجل عصاه تقع على الأرض، ينحني لها ثم يبدآن في رقص الفالس برشاقة الجيل القديم.

تجري إليزابيث إلى الجهة الأخرى من البيت باتجاه الرف لتأتي بجهاز التحكّم لكنها لم تتمكن من رفع الصوت إلا في الثواني الأخيرة من الإعلان حين هزّ الطفل الذي يلتقط علب البيض كتفيه للكاميرا، اللقطة الأخيرة تصوّر السوبرماركت من الخارج مضاءً بنورِ شمس الصيف والناس يرقصون في موقف السيارات التابع له بينما يقول المعلّق الذي يبدو من خلال صوته أنه في منتصف العمر: نؤلف على مدار السنة أغنية ورقصة لكم.

عندما تصحو الأم من النوم تجد إليزابيث تشاهد إعلانا خاصا بسوبرماركت على الحاسوب المرة تلو الأخرى.

ما هي رائحة الاحتراق تلك؟ تقول.

تفتح النافذة، تنظّف حول الفرنِ وترْمي المنديل الذي احترقت حاشيته قليلا.

يبدأ الإعلان بموقِفِ سيارات سوبرماركت مليء بالسيارات المغطاة بالثلج، الثلج المتساقط. ثم تبدأ الأغنية والرقصة. وعندما تنتهي الأغنية، يبدو السوبرماركت من الخارج في الصيف.

إنها أغنية حزينة لا تناسب إعلانا تجاريا لسوبرماركت، تقول أمها. ثم إني لا أستطيع أن أستمع إلى أي شيء هذه الأيام دون الشعور بالحزن.

أوه، لا أعرف، تقول إليزابيث. لقد كنتِ دائما عاطفية.

صحيح. لقد بنيتُ بمرور السنوات مسيرة مهنية مهمة في الشؤون العاطفية، تقول أمها آخذة منها الحاسوب.

هل كانت أمها طريفة إلى هذا الحد كل هذه السنوات وإليزابيث لم تدرك هذا الجانب؟

مايك راي وذا ميلكي وايز، تقول أمها.

لم أسمع بهما أبدا، تقول إليزابيث.

تبحث عنهما أمها في محرك البحث.

الأغنيات التي حققت نجاحا ساحقا لوقت قصير سنة 1962، أخي الصيفي أختي الخريفية (غلاك \ كلاين). رقم 19، سبتمبر 1962، تقول أمّها. حسنا حسنا. ربما كُنتِ على حق. ربما قد كتبها جارنا السيد غُلاك على أيّ حال.

المقطع الأوّل:

الثلج يتساقط في الصيف \ الأوراق تتساقط في

الربيع \ لقد ضاعت الأسباب، لقد مرت الفصول \

لقد مرّ الوقت وأُخذ كل شيء

كورس: أخي الصيفيّ أختي الخريفية \

حافظ على الإيقاع خلال الوقت \ خريف عذب خريف أصفر \

أعذ لي سببا للإيقاع

المقطع الثّاني:

سأجدها في الخريف \ الخريف قبّلها.

رذاذ الخريف \ أخي الصيفي أختي الخريفية \

لقد ذهب الخريف فلم يعد هناك صيفٌ

كورس x 1

جسور:

أخي الصيفيّ أختي الخريفية \ لقد مروا مرارا

وتكرارا \ سأجدها في خارج موسمها \ وأوراق الوقت

متساقطة وراءها \ كل مرة أغنّي فيها هذه الأغنية

كورس x 2 ارتجال مع تخفيض تدريجي للصوت حتى يختفي.

(© كلمات وموسيقى غْلاك \ كلاين)

ليس هناك تقريبا أي شيء عن غْلاك كاتب أغنيات، أو غْلاك شاعر غنائي أو غْلاك \ كلاين كلمات وموسيقى ما عدا روابط لهذه الأغنية وللإعلان الخاص بالسوبرماركت. هناك كثير من هذه الروابط. خمسة وعشرون ألف، سبعمائة وخمسة أشخاص شاهدوا الإعلان على يوتيوب.

هل كنتِ فقط تستمعين إلى ذا ميلكي وايز؟ قالت زُوّي وهي تدخلُ إلى غرفة المعيشة مرتديةً رداء حمّام أُمّ إليزابيث. ما هي رائحة الاحتراق تلك؟

تذهب إلى المطبخ مردّدة الأغنية بهمسٍ.

تبحث إليزابيث عن الأغنية في القوائم الموجودة على الانترنت. إنها مسموعة بشكل جيّدٍ. تبحث في محرك البحث عن عنوان ورقم هاتف مكتب مدير السوبرماركت.

ما هو لقبك العائلي؟ تقول لزُوّي.

سبنسرْ- بارنسْ، تقول زُوّي. لماذا؟

تتّصل إليزابيث برقمٍ على هاتفها.

مرحبا، تقول. هذه إليزابيث ديماندْ، أتّصل بكم من وكالة سبنسرْ- بارنسْ، هل

تستطيع أن تضعني على الخط مع قسم التسويق؟ لا، ليس هناك مشكلة، لا بأس من المسجّل الآلي. شكرًا.

(صمت.) مرحبا، أكلّمكم من وكالة سبنسرْ - بارنسْ، اسمي إليزابيث ديماندْ. أتّصل بكم نيابةً عن عميلي السيد دانيال غْلاكْ الذي تقومون بانتهاك حقوق ملكيته من خلال حملتكم الإعلانية التي تبث أغنيته «أخي الصيفي أختي الخريفية» والتي حقّقت نجاحًا باهرًا سنة 1962، وذلك كلّما تمّ بثُّ الإعلان التلفزيوني الأخير. سيكون جميلًا إذا اتصلتم أنتم أو أيّ واحد من شركائكم بي على هذا الرقم. ونحن نقدر طبعا تجاوبكم. لنتوصّل إلى حلّ تقومون على إثره بإرسال المستحقّات المالية التي عليكم للسيد غْلاك، بعد ذلك ستتم تسوية الأمر بالنسبة لنا وبالنسبة لعميلنا وكل المسائل القانونية المتعلّقة بهذا الأمر. أنتظر ردّكم الإيجابي وآمل أن نجد حلًّا للمسألة. إذا لم تتصلوا بي خلال أربع وعشرين ساعة فإني سأتخذ الإجراءات القانونية اللازمة، وسأطالب بتعليق كامل لبثّ الإعلان حتى يتمّ حل هذه المسألة. شكرا جزيلا.

تركت رقم هاتفها في نهاية الرسالة الصوتيّة.

انتهاك، تقول أمها. تجاوب. من خلال (باللغة الفرنسية).

تهزّ إليزابيث كتفيها.

هل تعتقدين أنهم سيردون؟ تقول أمها.

الأمر جدير بالمحاولة، تقول إليزابيث. أراهنك أنهم يظنون أنه قد توفّي منذ فترة طويلة.

ماذا عن الناس الآخرين؟ تقول زُوّي. ماذا عن مايكْ رايْ؟ ذا ملكي وايزْ؟

دانيال هو مركز اهتمامي الوحيد، تقول إليزابيث. أقصد السيد غْلاك.

ابنتك قويّة ومثيرة للإعجاب، تقول زُوّي.

تماما. لكن لا تستهيني بالأصل أبدًا، تقول أمها.

المصدر؟ تقول إليزابيث.

أنا، تقول أمها.

في أحلامك، تقول إليزابيث.

وهي أغنية أخرى قديمة وجميلة، تقول زُوّي.

ثم تبدأ في غناء أغنية «في أحلامك» لبادي هولي.

إن ما حدث في حياتي يشبه السحر، تهمس الأمّ في أذن إليزابيث عندما غادرت زُوّي الغرفة.

غير طبيعي، تقول إليزابيث.

من كان يمكن أن يعرف، من كان يمكن أن يُخمن أني سأقع في الحبّ، في هذه المرحلة المتأخرة من حياتي، الحب الذي سيساعدني على الخروج من عزلتي؟ تقول أمُّ إليزابيث.

غير صحيّ، تقول إليزابيث. لن أسمح بهذا. لا تستطيعين فعل هذا.

تعانق أمّها وتقبّلها.

هذا يكفي، تقول أمُّها.

ما هذا الكتاب؟ تقول زُوّي.

تأتي من البهو.

من هذا الفنان؟ تقول. هذه رائعة.

تجلس إلى طاولة المطبخ وبين يديها كاتالوج بولينْ بوتي مفتوحًا على اللوحة المعنونة بـ 54321(*).

واحدة من الفنانين الذين تعلّم ابنتي المثقفة الناسَ عنهم، تقول أم إليزابيث.

فنانة من الستينيات، تقول إليزابيث. فنانة البوب البريطانية الوحيدة التي كانت أنثى في عالم يسيطر عليه الرجال.

آه، تقول زُوّي. لم أعرف أنه كان هناك واحدة في هذا المجال.

بلى، تقول إليزابيث.

أتوقع أن تكون ضحية استغلال، تقول زُوّي.

تغمز إلى إليزابيث فتضحك.

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (1-2-3-4-5). تتوسط اللوحة صورة مُذيعة ضاحكة كانت تقدّم برنامجَ بوب تلفزيونيّ، واستعارت من البرنامج أيضًا عنوان اللوحة 54321 "استعداد، تأهُّب، انطلاق..."

نفس الميسوجينية[25] المعاصرة الرتيبة، تقول.

انتحرت، تقول زُوّي.

لا، تقول إليزابيث.

جُنّت إذن، تقول زُوّي.

لا، أبدا. إنه فقط الاكتئاب الموسمي الرتيب المعتاد والعاقل بشكل كلي.

ماتت بشكل تراجيدي إذن، تقول زُوّي.

حسنا، تلك إحدى القراءات لما حدث، تقول إليزابيث. قراءتي الخاصة المفضلة هي: إن الروح الحرة تصل إلى الأرض مجهزة بالمهارات والرؤى القادرة على تفجير الأشياء التراجيدية التي تحدث لنا في الفضاء، حيث تذوب إلى لا شيء كلما انتبهت إلى قوة الحياة في لوحاتها.

أوه، تلك قراءة جميلة، تقول زُوّي. جميلة جدا. على أيّ حال. أراهنك أنه قد تمّ تجاهلها.

نعم، لقد تمّ تجاهلها بعد موتها، تقول إليزابيث.

أراهنك أنّ الأمر يحدث على النحو التالي، تقول زُوّي. يقع تجاهلها. تضيع أعمالها. يتم اكتشافها بعد سنوات. ثم يتمّ تجاهلها. تضيع أعمالها. يتمّ اكتشافها مرّة أخرى بعد سنوات. ثم يتمّ تجاهلها. تضيع أعمالها. يتمّ اكتشافها مرة أخرى إلى ما لا نهاية. هل أنا محقّة؟

تضحك إليزابيث بصوت عال.

هل أخذتِ صفًّا من صفوف ابنتي؟ تقول الأمّ.

ما هي قصّتها، إذن، هذه الفتاة؟ تقول زُوّي.

تنظر إلى صورة فوتوغرافية لبولينْ بوتي وهي شابة وتضحك. لم تبلغ العشرين بعد، في الصفحة الداخلية لغلاف الكاتالوج.

قصتها؟ تقول إليزابيث. هل عندك عشر دقائق؟

---

(25) Misogyny: مرض كراهية أو احتقار النساء أو الفتيات. م.

الخريف. 1963 . الفضيحة 63. حتى ليلة أمس كانت كيلر الأكثر شهرة هنا، في مركز اللوحة، تشق طريقها في الزحام بكتفيها نحو الشرفة العليا، متأهبة في المنطقة الوسطى لأعلى درجة اجتماعية بين وارذْ وبْروفيمو. على الأقل، كانت هذه واحدة من صور كريستين. حتى ليلة البارحة كان هناك عدة صور لكريستين في أماكن مختلفة من اللوحة. في واحدة من الصور كانت كريستين تخطو خطوات واسعة، وفي أخرى كانت عارية، تبتسم ابتسامة جميلة لأسفل الإطار، وفي أخرى تبدو في حالة نشوة أسفل رجليْ كريستين التي في مركز اللوحة وهي في أخرى تمشي في الجزء الأعلى وهي تؤرْجح حقيبة اليد. لكن البارحة في النادي الليلي «ذا إسْتابليشمنتْ» كان لويس هناك، كان جالسا على البار.

التقط لويس الصورة التي نشرتها الصحافة والتي انتشرت مثل النار في الهشيم. أيقونية. رأى ما تعمل عليه بولين، صوّر عملها في الواقع. إنه يأتي إلى الاستوديو ويصوّرها ماسكة الفضيحة 63 من جهة وجاهزة لتنطلق من جهة أخرى، بشكل متناظر نوعا ما، وقد رآها تأتي فقال لها، هل تريدين أن تأتي معي إلى بيتي لِتَرَي صور كيلر؟ وقد قالت بولين «أقول، ماذا باستطاعتك أن تقصد. أنا امرأة متزوجة كما تعلم، نعم». ذهبا إذن إلى الطابق العلوي في بيته فوق النادي الليلي فأَراهما، هي وكلائِفُ الصور التي التقطها لكيلر تحت العدسات المكبّرة، وقد نظرت عن قُرب إلى الأصل، الصورة. كيلر وقد رفعت ذراعيها، بينما وضعت ذقنها على قبضتيها، لقد كانت صورة باهرة.

ثم انتبهت إلى أنه ثمة مجموعة من الصور إلى جانب تلك الصورة لكنها نسخ مختلفة عنها قليلا.

قالت للويس إذن، هل تستطيع أن تعطيني نسخة من تلك التي في الأعلى، من فضلك؟

كانت صورة جميلة، بدتْ فيها أقل خجلًا، أكثر حماية لنفسها. كان أحد ذراعيها ممدّدا إلى أسفل. تستطيع أن ترى كيف تبدو كيلر عندما تكون في حالة تفكير.

سأنجز لوحة حول كيلر وهي تفكّر، فكرت بينها وبين نفسها. كيلر المفكّرة.

ثم أشارت إلى العلامات على فَخذ كيلر، تبدو الكدمات واضحة تحتَ العدسات المكبرة.

يا إلهي، قالت.

لا يمكن رؤيتها في الصورة الأيقونة، قال لويس. الجرائد، تحبّ الإثارة أكثر مما ينبغي.

تعيد الآن رسم اللوحة التي كُلّفت بإنجازها. ستعجّ بالأسئلة عِوضا عن البيانات. ستكون شبيهة بالصورة التي يعتقد كل شخص أنه يعرفها وفي الوقت نفسه لن تكون مطابقة لها. كيلر تخدع العين. وحتى العين التي لم تنتبه في البداية، حتى العين التي لم تولِ الوضعية في الصورة الكثير من الاهتمام، ستعرف، بشكل لا واعٍ. شيئا ليس كما تتوقّع تماما، كما تتذكّر، كما كان من المفروض أن يكون، شيئا لا تستطيع أن تضع أصبعك عليه.

الصورة والحياة: حسنا، كانت متعوّدة على ذلك. كان هناك بولين وكانت هناك الصورة. تطاير شال الريش، غامزا إلى الكاميرا، لقد كان أمرا مسليا. ثقة عالية. ثقة مهزوزة. ترتدي ملابس تشبه ملابس مارلين في المجلات الجامعية. أريدكم أن تحبّوني. تستمع إلى أغنية دوريس دايْ، كل شخص يحبّ جسدي. أغنية فتاة صغيرة بصوت امرأة بالغة، أبي لن يشتري لي باوْهاوسْ، عندي قط صغير (شهقت للكيفية التي تأكدت بها أنهم يعرفون أنّ كلمة قط تَعني كُسّ). الألماس هي أفضل ما تملكه الفتاة، إبطاي مكسوّان بالشعر (تشهق بسبب كلمة إبط، كلمة لم تسمعها بصوت عالٍ أبدا). في «ذا رويال كوليج»، حيث كانت البنات نادرات جدًّا جعلوك تحدّقين، حيثُ لم يُكلّف المهندس المعماري نفسه عناء وضْعِ حمام نساء في التصميم، مشتْ في الأروقة مستمعة إلى الهمسات وهي تعبرُ البناء، تقول الإشاعة. إن أحدهم قد قرأ هناك مارسيل بروست. تضع ذراعها حول الشابّ وتقول إنه صحيح يا عزيزي وجانْ جينيه ودي بوفوار ورمبو وكوليتْ. قرأت كل رجال ونساء الأدب الفرنسي، أُوه، وَجرترودْ ستاينْ أيضا، ألا تعرف عن النساء ومؤخراتهن الطرية؟

كانت القنبلة ستلقى. كانَ قد تبقّى لديهم سنوات قليلة فقط ليعيشوها.

سألها شاب، لماذا تضعين الكثير من أحمر الشفاه الفاقع. كل هذا لأقبّلك به قالت، وقفزت من على كرسيها وجرت وراءه، جرى بعيدا، لقد كان مفزوعا نوعا ما. لاحقته خارج الكلية وعبر المساحات المزروعة عشبا وعلى الأرصفة حتى قفز على مؤخرة حافلة عابرة فوقفت متمالكة نفسها، كانت تضحك من أعماق قلبها. رجل، رجل كبير، لطيف جدا، جعلها تضحك بذلك الشكل أيضا عندما زحف على يديه وركبتيه عبر الغرفة مُقبِّلًا الأرضيّة التي تفصل بينهما وهو يزحف؛ كان المغني، قد جاء إلى الشقة، أطلقت عليه اسم جرشوينْ للتسلية. سألها، ناظرا إلى لوحة بَلموندو بالقبّعة، من هو؟ نجم أفلام، فرنسي، قالت، تلك الصورة تمثّلُ آسِر القلب ضِدّ مُثير الشّهوة، أليس كذلك؟ احمرّ جرشوينْ المُسنّ المسكين حتى أطرافه. أذنيه، أصابع رجليه، احمرّت كل أطرافه، لم يستطع الرجل العجوز اللطيف أنْ يتحمّل، لقد كان من عصرٍ آخر.

حسنا، لقد كان الاثنان تقريبا من عصرٍ آخر. حتى الناس الذين كان من المفترض أن يكونوا من هذا العصر هم في الحقيقة من ذلك العصر. كان في الأستوديو منذ أيام قليلة، نظر إلى لوحةِ 54321، ماذا تقول؟ قال وقرأها بصوت عال. أوه. اللعنــــــــــــــة. فهمت.

يا لها من صيغة شكسبيرية. حسنا، إذا كنتَ جرشوينْ. قالت، أنا ويمبلدون بارد ـــ و. هل فهمت؟ طبعا طبعا. قال، باردْ. باردو. تناسبٌ رائعٌ.

أحبّها كثيرا.

للأسف.

لا يُمكنُ مساعدته.

تخيّلْ لو لم تكن اللوحات في أروقة الفنون مجرّد صور بل كانت في الواقع كائنات حيّة.

تخيّلْ لو كان يمكن للوقت أن يكون نوعا ما معلّقا بدلا من أن نكون عالقين فيه.

لمْ تكن لديها فكرة أحيانا، صراحةً، عمّا تريد فعله. أفترضُ أنها تريد أن تكون مليئة بالحيوية.

لمْ تكنْ ثقتها في نفسها عالية وهي في السادسة عشرة من عمرها، عندما قال أحد الأساتذة المشرفين عليها إنّ الزجاج المعشّق لا يستخدم في الكنائس فقط، بل يمكن أن يستخدم في كل مكان. ليس من اللازم أن يقتصر استعماله على الأماكن المقدّسة، بل يمكن أن يستخدم لأي شيء آخر. ثقتها في نفسها عالية وهي تترك الزاوية الصغيرة للوحة « المرأة الشقراء الوحيدة في العالم(*)» باستثناء القماش العاري مثل زاوية للوْحة رسمت نفسها بنفسها، بتقنية خدعة ترُمبلويْ البصريّة وكأنك تستطيع أن تقشّرها وتعرف أنها كانت في الأصل صورة. مارلين مونرو باهرة من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين، مُسرعة في مشهد من فيلم «البعض يحبّها ساخنة»، تشقُّ التجريد ببهائها. هل تستطيع أن ترسم الأوزغازْم الأنثوي؟ لقد كانت مارلين. كانت دوائر ملوّنة، جميلة، جميلة وكل شيء كان مثيرًا. كان التلفزيون مثيرًا، الراديو كان مثيرا، لندن كانت مثيرة، تعجُّ بأناس مثيرينَ من كل أنحاء العالم، والمسرح كان مثيرًا، مدينة المعارض الفارغة كانت مثيرة، علب السجائر كانت مثيرة، وأغطية علب الحليب القديمة مثيرة، اليونان كانت مثيرة، روما كانت مثيرة، كانت مثيرةً المرأةُ الذكية في حمّام نُزُل صغير وهي تلبسُ قميصًا رجاليًّا لتنام فيه، باريس - مثيرة (أنا وحيدة في باريس!! حيثما ذهبتُ يتبعني أحدهم أو يسألني أنْ أشربَ قهوة إلخ. إلخ. باستثناء ذلك باريس رائعة. اللوحات ـــــ لا كلمات ممكنة).

ثقتها في نفسها عالية، يمكن أن يكون الفن أيّ شيء، علب البيرة كانت نوعا جديدا من الفن الفولْكلوري، نجوم الفن ميثولوجيا جديدة، نوستالجيا للآن. كان الأمرُ مثيرا عندما فهمت أن المصوّرين الذين يلتقطون صورَها لا يستطيعون أن يحذفوها من صورهم إذا اتّخذت وضعيّةً تجعلها جزءًا من فنّها أثناء التصوير.

(*) إشارة إلى لوحة بولين بوتي (The Only Blonde in the World) وقد رسمتها للأمريكيّة الشّقراء الشّهيرة مارلين مونرو.

(غير صحيح.

اللعنة.

لقد تمكنوا مع ذلك من قصّ الصور حوْلها وتقطيع فنّها على أي حال، تاركين القطع الصغيرة من النهود والأوراك، طبعا.)

لِتَكُنْ فرشاتي في الصورة يا مايكْ، هل تستطيع فِعْل ذلك؟

كانت ترتدي قبّعة، قميصا وملابس داخلية، مقلدة قدر ما تستطيع سيليا في البورتريه، باستثناء أنها قد نزعت بنطالها الجينز حتى تجعلهم يتركونها هي واللوحة معًا في الصورة. لكن لويسْ ومايكلْ كانا شابّين رائعين، لقد أحبتهما نوعًا ما كثيرًا. يَدَعانها تقول لهما كيف يلتقطان صورها ويفعلان غالبا ما تطلب منهما. يسعدها أن يتمّ تصويرها عارية. أحبّ التعرّي. أقصد، بكل صراحة، مَن لا يحبّ ذلك؟ أنا إنسانة. أنا عُرْي ذكيّ. أنا جسد ذكيّ. أنا ذكاء متجسّد. الفنّ مليء بالعُري وأنا أفكر، وأختار العُري. أنا الفنانةُ عاريةً. أنا العُرْيُ فنّانًا.

لا يفهم رجالٌ رائعون كثيرون امرأةً مليئة بالبهجة، وأكثر من ذلك لا يفهمون أيضا لوحات مليئة بالبهجة رسمتها امرأةٌ. إنّ الأمر بِرُمّته يعتمد بالأساس على الجنس، أُنظر، الموز والنوافير وذلك الفم الكبير جدًّا واليد، حسنا، كلّها رموز قضيبيّة. حسنا، على أي حال، يقولون، أنا رجل، وكَوْني رجلا أفضل بكثير من أنْ أكون امرأةً.

رأت العلامة معلّقة على جانب البناية، صفراء فاقعة، مكتوبا عليها بحروف ملوّنة مختلفة **كْرَيْزي كوتّاجْ** ثم تحتها بلون أزرق الحروف الكبيرة **بِكيني بْريجيتْ** ثم بشكل صغير ولون أسود باهت تعالَ وأُنظرْ ثم حَرْف التعريف الصغير الـ على الجانب ثم حروف كبيرة باللون الأحمر **فتاة مُغرية للجنس**. التقطْ صورتي يا مايكْ وأنت تنظر إلى هذا، أرجوك، قالت. جاءت إلى جانب البناية وكأنها كانت تزور الزاوية وبكل بساطة تقرأ العلامة لأن ذلك ما كانت تفعله، فتاة تقرأ العالم.

لكن الحبّ كان مُهمًّا للغاية. لم تقصد الحبّ الرومانسي. بل نوعا من الحبّ المعمّم. تمتيع النفس كان مُهمًّا للغاية. يُمكن للجنس أن يكون متنوّعًا كالحياة في

تنوّعِها. كان الغرامُ دائما يعني شيئا دون دعابة فيه.

لحظة غرام بالنسبة لها.

أتذكر مرة وأنا أجلس قبالة أخي وأشعرُ بحبّ كبير تجاهه كما لو كنتُ مُلْتحمة به.

هذه المشاعر الجميلة (تقول لكاتب أجرى معها مقابلة عن الكتاب) دامت، أقول، لنصفِ ساعة. لكنها تزوّجت زوجها لأنه أحبّ النساء، عرفَ أنهنّ لَسْنَ أشياء، أو شيئا لم تعرفه بشكل جيّد. لقد قَبِلَني على أساس أنّي امرأة مثقّفة وذكيّة، وهذا ما يجده الرجلُ صعبًا.

ثقتها في نفسها عالية. ثقتها في نفسها مهزوزة. كانت أمّها في الخارج في الحديقة الإنجليزية التي يملكها والدها، كانت تقلّم الورود؛ كانت أمّها تصنع الملابس وتعدّ الأكل. في الخارج في حديقة كارشالتونْ قالت أمّها، وهي تمسك بمقصّ تقليم الأشجار، وَبِشكلٍ أبْكر بكثير من جيمس براون. إنه عالم رجال. مزيحة العلامة عن قارورة مشروب نبيذ شيري الإسباني حتى لا ينتبه والدها، أمّها، فيرونيكا، مُنعت من الالتحاق بمعهد سلايدْ للفنون والتصميم، والدها هو الذي منعها، وبسبب حزنها على خسارة ذلك المقعدِ في المعهد العريق أثناء حياتها التي أفنتها في تقليم الأشجار، فإنها قد عملت على إقناع والد بولين ليسمح لها بدخول معهد ويمبلدونْ للفنون. لقد كانت أمّها هي مَن أخذتها إلى أمريكا على سفينة QE2، أمها تستمعُ إلى ماريّا كُلاصْ بصوتٍ عالٍ (عندما يكون أبوها في الخارج)، صارخةً في الراديو أثناء بثّ الأخبار (في المطبخ عندما لا يكون الأبُ في المطبخ)، أمّها التي سقطت صريعة المرض، بولين كان عمرها إحدى عشرة سنة، صور بأشعة أكس لا نهاية لها لكل فرد، صور مقطعية، كانت أمّها تموت ببطءٍ. مرّت العائلة بحالة فوضى، كانت الفوضى جيّدة باستثناء الاكتئاب. لا، لقد كانت تجربة استفدنا منها دروسًا. فَقدتْ أمُّها رئةً من رئتيها، لكنها كانت بخير نوعًا ما، لقد كانت تحتفظ بِسجلّ قصاصات من الجرائد. **بولينْ ترسم بأسلوب فنّ البوب. وكلّ أعمالي الفنية لي.** (كان ذلك هو عنوان مقالة عن بولينْ وهي تعلّق لوحة تجريدية في المقرّ الرئيسي لكونْغرس اتحاد التجارة التابع لحزب العمال في مدينة لندن) كثيرا ما يكون للمُمثلات عقول صغيرة، كثيرا

ما يكون للرسامين لحى كبيرة. تخيّلْ مُمثلة ذكية ورسامة أيضا وفوق ذلك شقراء. تخيّلْ.

كان والدها صارما. كان والدها مستنكرا لأفعالها. كان لوالدها احترازات قوية. مشتهاة؟ جزئيًّا؟ لا أتجرأ على قول أي شيء وإلا فإن أبي سيغضب. نصف بلجيكي، نصف فارسي، بريطاني محافظ بشكل قويّ، رأى الهِملايا وهاروغيث واختار المحاسبة. كان القراصنة قد قتلوا والده (وهذا صحيح). كانت عائلة أمّه تعمل في صناعة السفن على ضفاف الفُراتِ. لذلك احتفظ بقاربِهِ في بحيرات نورفوكْ بْرودزْ، وقواعد لعبة الكريكت، وكانت طريقةُ إعداد الشاي كما ينبغي هي ما يقيسُ به الحياة.

لم يُرِدْني حتّى أنْ أعمل حين غادرت المدرسة.

كانت المعاركُ كبيرة نوعا ما، غالبا قبل الفطور، أسوأ وقت للشجار معه. كان إخوتها الكبار يجفلون ويهزّون رؤوسهم بالرفض. كان لإخوتها نصيبهم أيضا، للرجال نصيبهم أيضا، ربما حتى أسوأ. الأخ الذي أراد أن يلتحق بكلية الفنون، جعل منه أبوهم محاسبًا. كان من اللازم أن تغادر في النهاية، حسنا، على أي حال، ليست وظيفة مناسبة، كانت إذن نوعا ما مقبولة، بالنسبة لفتاة أن تؤديها.

لكن إخوتها عندما كانت صغيرة. اغلقي فمك، أنت مجرد فتاة. كانت تريد أن تكون ولدًا. كانت في الماضي تشدُّ. كما تعرف ذلك النوع من الجلد الذي تملك. لتجعله أطول نوعا ما. كنت أظن أنه لدي كُسٌّ قبيح كما ترى، لا أعرف. دون كُلفة أو رسْميّات.

جعلني ما أنا عليه.

المرأة المثالية. عبدة مؤمنة نوعا ما. تعمل دون أي شكوى أو مقابل بالتأكيد. تتكلم فقط عندما يكلمها أحدهم ويكون رجلا مَرِحًا وجيّدًا. لكن الثورة قادمة. في كل أنحاء البلاد بدأت الفتياتُ الصغيرات يَنتفضْن. وإذا أرعبنك فإنهن يقصدن ما ستقوله هي نفسها على الراديو بصوت عالٍ، فهمت.

كانت مجموعة من الطلاب تنظّم مظاهرة ذات يوم خارج بناية. جاء رجل من

بي بي سي ومعه مايكروفون. اختار البنت الجميلة. كانت ترتدي معطف دافلْ تنثر بتلات وردة على الرصيف أمام البناية.

ماذا تفعل فتاة جميلة مثلك في هذا النوع من الأحداث؟

أخبرته. هذه البناية مكان نَتِن الرائحة بشكل حقيقيّ. نحن نتظاهر. إننا في حِداد على موتِ العمارة الجميلة.

لكني قد سمعت أن هذه البناية ذات كفاءة عالية من الداخل، قال.

نحنُ في الخارج، قالت.

ثقتها في نفسها عالية. ثقتها في نفسها مهزوزة. متقلّبة المزاج. ليست فتاة حميمة. **وداعًا أيّها العالم القاسي**، أنا ذاهبةٌ لألتحقَ بالسيرك. كانت تلك أغنية من موسيقى البوبْ، استعملها كِينْ في فيلمه عندما تبعها وثلاثة من الشبان عارِضِينَ حياتهم، أعمالهم، يومهم. لقد صوّرت في الفيلم حلما بدلا من ذلك، حلما حقيقيا متكرّر (الأطروحة التي كتبتها في السنة الأخيرة كانت أحلاما) وبعد ذلك الفيلم الذي صوّره كينْ، جاءت كل الوظائف التي حلمت بها، عروض التمثيل، 1963، حلم العام، «أنوس ميرابيليس» سنة رائعة ها ها ها. كل الأشياء التي حدثت كانت من نوعية الأشياء التي لو كان ممكنا على الإطلاق، بشكل افتراضي، رسم خطّ زمني لحياتها، مثلا: الولادة في 6 مارس 1938، الموت في وقت ما، فإنّ هذا الخط الزمني سيبدو رائعًا. برنامج غْرابفسكي، العمل في الراديو، الزواج من كْلايفْ، راقصة في برنامج «جاهز استعد ابدأ!» التمثيل في مسرح البلاط الملكي (لكن التمثيل كان شيئا مؤقّتا، شيئا لبناء الثقة في النفس. الرسمُ كان الشيءَ الحقيقيَّ).

وبعد ذلك المستقبل.

كل سنوات الثلاثينيات من عمرها وحتى التاسعة والثلاثين كانت رائعة.

بين الأربعين والخمسين ستكون جحيمًا.

تمنّت ألا تكون أبدًا قاسية. لم تكن تريد أبدا أن تكون متعنّتة.

(سترسم سكاتشات ولوحات حتى لحظة وفاتها. سترسم سكاتشات للكثيرين ومن بينهم أصدقائها في الفرقة الموسيقية، *19th Nervous Breakdown*. رسمتها،

بالأسود. ستكون طفلتها الرضيعة في المهد عند نهاية السرير. صورها بعد موتها؟ اختفت، ضاعت، وتلك التي لم تضع، ظلت لثلاثين سنة في صمت في علّية بيت والدها وفي إسطبل صغير في مزرعة أخيها، كادت تختفي لو لم يتم إنقاذها من حاوية المهملات. الكاتب وأمين المتحف الذي بحث عن أعمالها ثلاثين سنة بعد موتها ووجدها في ذلك الإسطبل؟ لقد انفجر باكيًا عندما عثرَ عليها.)

كان هناك دائرة من الورود في قلب اسمها العائلي، حول حرف و في إكليل مفتوح.

كان هناك حورية بحر منحوتة تمسك بالطاولة.

لم تكن هناك أي أموال على الإطلاق.

كان هناك سرير من النحاس الأصفر وموقد برافين.

كان هناك من ادّعى الجنون عندما طرقَ بابَكِ مالكُ البيت الذي تَستأجِرينَهُ بقوّة محاولًا النوم معك.

كان هناك ارتداء معطفك خلال كل ساعات اليوم في غرفتك في الأيام الباردة.

لم تكن الحياة أي شيء من ذلك.

الحياة؟ كانت ما حاولتِ أن تَقْبضي عليه، السعادة الغامرة لشيء وُضِع جانبا بعض الشيء. الرسم؟ كان ما فعلتِ، وحيدة، وقد جلستِ هناك، كانَ معركتَك الرهيبة أو قطعتَك المحبوبة، لكنه كان فعلًا رهيبًا بِمفرده.

للقبضِ على اللحظة قبل أنْ يَحدُث شيءٌ فعلًا، ولم تعرفي إنْ كانَ سيكون فظيعًا أو ربما مثيرًا للدعابة، حدثَ شيءٌ خارقٌ للعادة بالفعلِ لكن كلّ المحيطين به لم ينتبهوا على الإطلاق.

ألصقتِ. قطعتِ. رسمتِ. ركّزتِ.

في أحلامها، صفعت الماضي على وجههِ.

قالت لصديقتها من المدرسة بيريلْ، وهما في السادسة عشرة من عمريهما، سأصبحُ فنانةً.

النساء لا يصبحن فناناتٍ، قالت بيريلْ.

بلى. فنانة حقيقية. أريد أن أكون رسّامة.

إنه يوم آخر مرّة أخرى، الطقس، الوقت، الأخبار، الأشياء تحدثُ في جميع أنحاء البلاد \ البلدان، إلخ. تذهب إليزابيث لتتمشّى في القرية. تقريبا لا أحد في الخارج. يقطع الناس القليلون الأشياء في الحدائق الخلفية لبيوتهم وينظرون لها بِعُبوس أو يتجاهلونها.

تتنحّى جانبا لتفسحَ المجال للآخرين على الرصيف الضيّق وتلقي التحية على سيّدة عجوز تمرُّ بها.

تومئُ السيّدة العجوز برأسِها، لا تبتسم، تمرّ بها، متعجْرفة.

تصل إلى البيت المدهون بِبخّاخ الطلاء. الناس الذين يعيشون هنا إما انتقلوا أو أعادوا دهن واجهة البيت باللون الأزرق البحري الساطع. وكأنّ شيئا لم يحدث، إلا إذا كنتَ تعرف كيف تنظر بشكل أكثر قُربا لتميّز كلمة **بيتّ** تحت طبقة اللون الأزرق.

عندما تعود إلى بيت أمها، تجدُ الباب الأمامي مفتوحًا على مِصراعيه. تخرج منه زُوّي صديقة أمّها مسرعةً. كادت تصطدم بإليزابيث. في اللحظة التي كادتا فيها أن تصطدما تُمسك زُوّي إليزابيث من ذراعها وتديرها في ما يُشبه حركة رقصة ريفية اسكتلندية، ثم تتخطّاها من جهة الخلف مُبتعدة عنها باتّجاه الممشى.

لن تصدّقي أبدًا أيّ حماقة ارتكبت أمُّك، تقول زُوّي.

تضحك دون توقّف وبقوةٍ مِمّا جعل إليزابيث لا تقدر على أنْ تمنع نفسها من الضحك أيضا.

لقد تمّ إيقافها. رَمت بِبارومتْرٍ على السياج، تقول زُوّي.

ماذا؟ تقول إليزابيث.

الشيء الذي يقيسون به الضغط، تقول زويّ.

أعرفُ ما هو البارومتْر، تقول إليزابيث.

كُنا في البلدة المجاورة معًا، في محلّ بيع التحف والأشياء القديمة، تعرفينه؟ أخذتني أمّك هناك لتتباهى بمعرفتها الواسعة بالتحف. وقد أعجبها بارومتْرٌ رأته هناك، فاشترتهُ، وقد كانَ غاليَ الثمن نوعًا ما. كُنا في السيارة عائدتينِ إلى البيت

نستمعُ إلى الراديو، وقد جاء في نشرة الأخبار أنّ حكومتنا ستقطعُ التمويل عن البيوت التي يسكنها الأطفال الذين يأتون هنا كَطالبي لجوء، وقد قال المذيع إنّ هؤلاء الأطفال سُيرمى بِهم الآن في نفس الأماكن ذات الحراسة الأمنية المشدّدة التي يضعونَ فيها طالبي اللجوء البالغين. وقد فقدت أمُّك صوابَها من الغضبِ. بدأت تصرخُ قائلة إنّ هذه الأماكن أسوأُ من السجن، كل شخصٍ تحتَ الحراسة، القُضبان الحديدية على النوافذ، هذه الأماكن ليست مناسبة لكل شخص، وليست مناسبة أبدًا للأطفال. وبعد ذلك تناولت القصة الثانية في الأخبار موضوع إلغاء وزارة اللاجئين. جعلتني أوقفُ السيارة. تركت الباب مفتوحًا ثم فرّت هاربةً سالكةً أحد الدروب. خرجتُ إذنْ وأغلقتُ السيارة ثم لحقتُ بها، وعندما وجدتُها، حسنا، لقد سمعتُ صوتَها قبل أن أراها، كانت تصرخُ في رجالٍ داخل شاحنة مغلقة عند السياج، أقصدُ الأسيجة، وكانت تهزّ البارومترْ في الهواء تُهدّدهم به وبعدئذٍ أقسمُ أنّها رمتْهُ على السياج! وقد صَدَرَ عن السياجِ صوتُ انشراخٍ، وانطلقتْ منه شرارةٌ، فجُنَّ جنونُ الرجالِ لأنها تَسبّبتْ في خلقِ مسٍّ كهربائيّ في السياج. لم أتمالك نفسي. لقد صرختُ أيضا. لقد صرختُ قائلةً ذلك ما يجبُ فعله يا وِنْدي! ذلك ما يجبُ فعله!

تقول زُوّي لإليزابيث إنّهُ قد تمَّ إيقافُ أُمّها لحوالي ساعة، ثم أُخلي سبيلها بتنبيهٍ وهي الآن في ساحة محلّ التحف والأشياء القديمة القريبِ من الطريق عند التقاطعِ، تكوّم أشياء أكثرَ لترميها على السياج، وإنّ خطّة أمّها الجديدة هي أنها ستذهب كل يوم ليتمّ إيقافها (وتقوم في هذه اللحظة بتقليد أمّ إليزابيث بشكلٍ رائعٍ) ضرب ذلك السياج بتاريخ الناس وبالمصنوعات اليدوية التي تعود لعصور أقلّ قسوة وأكثر عملا للخير.

أرسلتني إلى البيت لآتي بالسيارة، تقول زُوّي. ستقوم بتعبئتها بصواريخ من الخردة. أوه، ويجب عليّ ألا أنسى. لقد اتصلوا بكِ على هاتف البيت. منذ عشر دقائق.

مَن اتصلَ؟ تقول إليزابيث.

المستشفى. ليس المستشفى، دار الرعاية. الممرَضات.

ترى صديقة أمّها أنّ وجهَها قد تغيّر. تتوقّفُ عن المزاح فورًا.

طلبوا أنْ أقولَ لكِ، تقول. لقدْ كانَ جدُّك يسألُ عنكِ.

هذه المرة، لا تكلّف المرأةُ في مكتبِ الاستقبال نفسها حتّى عناء النظر إلى أعلى. إنها تشاهد أحدَهم وهو يُشنَقُ في مسلسلِ لعبة العروشِ على جهاز الآيباد.

لكنها تقول عندئذٍ، دونَ أن تنظر إلى أعلى، لقد تناولَ وجبة الغداء بِنَهمٍ اليومَ، أكلَ ما يكفي ثلاثة أشخاص. حسنا، ثلاثة أشخاص مُسنّين. قلنا لهُ إنكِ ستكونينَ سعيدة أنّه قد استفاقَ من غيبوبتِهِ فقال، أخبروا حَفيدتي من فضلكم أنّني أتطلعُ إلى رُؤيتها.

تمشي إليزابيث في الرِواقِ، تصلُ إلى بابِ غرفتهِ وتنظرُ إلى الداخل.

إنهُ ينامُ مرّة أخرى.

تأخذُ الكرسيّ من الرواقِ. تضعهُ قريبًا من السرير. تجلسُ. تُخرِجُ كتابَ قصّة مدينتينِ.

تغمضُ عينيها. عندما تفتحهما مرّةً أخرى تجدُهُ مستيقظًا. ينظرُ إليها مباشرة.

مرحبا مرّةً أخرى سيد غْلاك، تقولُ.

مرحبا، يقولُ. عَرفتُ أنّكِ الحفيدةُ التي كانت تزورني في غيبوبتي. سعيد برؤيتكِ. ماذا تقرئينَ؟

إنه نوفمبر مرّةً أخرى. إنه شتاء أكثر منه خريفًا. ذلك ليس رذاذًا. إنه ضباب.

بذور أشجار القيقب تضربُ الزجاج في الريح مثل. لا، ليست مثل أيّ شيء آخر، مثل بذور أشجار القيقب وهي تضرب زجاج النافذة.

كانت هناك ليلتان هبّت فيهما الريح. الأوراق التصقت بالأرض بسبب المطر. الأوراقُ التي كانت على الرصيف صفراء، متآكلة وميتة. واحدة من الأوراق لاصقةٌ إلى درجة أنّه عندما تتقشّرُ، فإن شكلها الورقيّ يبقى، ظِلَّ ورقة، سَيبقى على الرصيف حتّى الربيعِ القادمِ.

أصابَ الصدأُ الأثاثَ في الحديقة. لقد نسوا أن يضعوه في المخزنِ أثناء الشتاء.

تكشفُ الأشجارُ عن بِنيتِها. كانت هناك رائحة نارٍ في الهواء. كلُّ الأرواحِ خرجت تتجوّل متربّصةً. لكن هناك ورود، ما زال هناك ورود. في الرطوبة والبرد، على شجيرة وَرْدٍ قد سقطت أوراقُها، ما تزالُ هناك وردةٌ متفتّحةٌ.

أُنظرْ إلى لونِها.

رسالة شُكر

أنا مدينة لكلّ مَن كتب عن بولين بوتي وخاصّة لِعمل سو تات ذي التأثير البالغ ولكتابها المتكوّن من جزئين، "بولين بوتي: فنانة بوب وامرأة" (Pauline(2013 Boty: Pop Artist and Woman ولكتابها "بولين بوتي: الشقراء الوحيدة في العالم" Pauline Boty: The Only Blonde in the World(1998) الذي كتبته بالاشتراك مع ديفيد ألان ميلور تحت اسمها السابق سو واتلينغ. وأيضا للحوار مع نيل دان في مجلة فوغ، عدد سبتمبر 1964، نُشرت النسخة الكاملة في كتابه "أحاديث مع النساء" (1965) Talking to Women . يمكن العثور على القصص التي تدور حول كريستين كيلر التي ظهرت بشكل موجز في الرواية في كتاب "لا شيء سوى..."، من تأليف كريستين كيلر وساندي فاوكس (Nothing But(1983...، و"أسرار وأكاذيب"، لكريستين كيلر ودوغلاس تومبسون (2012) Secrets and Lies. أنا أيضا محظوظة لتمكني من الاطّلاع على مخطوط سيبيل بدفورد الذي لم ينشر بعدُ حول وصف محاكمة ستيفن وارد سنة 1963، "أسوأ ما يمكن أن نفعله: وصف موجز لمحاكمة الدكتور ستيفن وارد"The Worst We Can Do: A Concise Account of the Trial of Dr Stephen Ward، وقد تسرّبت بعض تفاصيل المحاكمة (من محاضر المحكمة التي لم تدخل بعدُ نطاق الملكية العامة) إلى هذه الرواية.

شكرا لسيمون، آنا، هرمايوني، لسلي بي.، لسلي آل.، إلّي، سارة، والجميع في هاميش هاميلتون.

شكرا لسيمون، آنا، هرمايوني، لسلي بي.، لسلي آل.، إلّي، سارة، والجميع في هاميش هاميلتون.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. لماذا يرجع أصل القصة الى الخريف؟

2. كيف اتخذ الكتاب من الوقت محورًا له؟ « السفر عبر الزمن شيء حقيقي، قال دانيال. نفعل هذا كل الوقت. لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة.».

3. صرّحت آلي سميث في حوار لها مع الناشرين البريطانيين: «إن الطريقة التي نحيا بها، حالها كحال الوقت، تسير على خط مستقيم مع التسلسلات الزمنية التي اتخذناها لحياتنا طوعًا مرة، وتدخّل فيها الغير مرة أخرى. تبدأ حياتنا من الميلاد وتنتهي عند الموت، وفي المنتصف نحاول أن نحقق أهدافنا في الحياة التي نسعى لها دومًا. وبعبارة أخرى، إن حياتنا ما هي إلا مرور الوقت من سنة إلى سنة، ومن يوم إلى يوم، ومن دقيقة إلى دقيقة، ومن لحظة إلى لحظة. في الحقيقة، حياتنا عبارة عن مخزن للأزمنة، فحياتنا تمر بتتابعات زمنية ما بين ماضينا ومستقبلنا (وأيضا ماضي وحاضر كل الأشخاص الذين أثروا في حياتنا، والذين بدورنا سنؤثر فيهم)، وذلك في كل لحظة من حياتنا المتعاقبة، ما بين دقائق وأيام وسنوات. إنني أتساءل إن كانت طاقتنا الحقيقية أو ماضينا الحقيقي يسير في مراحل مستمرة، في الأساس، بدلاً من المرور في مراحل متسلسلة»، هل تتفق مع المؤلف في أن تاريخنا وحكاياتنا، الفردية منها والجماعية، تسير في مرحلة مستمرّة وليس في مراحل زمنية؟

4. تجري أحداث الرواية باستخدام أسلوب الفلاش باك (استرجاع الماضي) مع مزج الحاضر، بدلاً من استخدام أسلوب التتابع والتسلسل الزمني الروائي، اذكر السبب. ما علاقة ذلك برأي المؤلفة عن طريقة إدراكنا لحقيقة الوقت؟

5. صف علاقة الصداقة بين إليزابيث ودانيال. وكيف تطورت بمرور الوقت والاستمرار في قراءة الرواية؟ كيف تتمحور الرواية حول تلك العلاقة؟ ولماذا كان يسألها دائما: «ماذا تقرئين»؟

6. كيف كانت تتمحور صداقتهم حول القصص والفن والأدب؟

7. ماذا تخبرنا الرواية عن الإبداع والإنشاء وعن الرؤية والاطّلاع على الفن والأدب وتذوقهما؟ وماذا تخبرنا الرواية عن الطبيعة وطريقة تفاعلنا معها؟

8. صف العلاقة بين إليزابيث ووالدتها. وكيف تطورت بنهاية القصة؟ ولماذا تغيرت؟

9. في الرواية، ما أهمية الفن والعلاقات الإنسانية التي تنتج عن الفن والإبداع؟ اذكر بعض الأمثلة.

10. ما مدى التشابه بين «الخريف» وفن «بولين بوتي»؟

11. في رأيك، لماذا اختارت المؤلفة هذا الفنان الحقيقي ليكون ضمن الشخصيات، ليكون بمثابة مصدر إلهام في الرواية؟ وماذا تمثل رؤية «بوتي» للفن بالنسبة لدانيال وإليزابيث؟ وما علاقتها بموضوعات الرواية؟

12. استمرارًا في موضوع الكولاج، اشرح تلاعب دانيال بالكلمات والخلط بين كوليج (الجامعة) والكولاج (أسلوب فنّي). ما رأيك في فكرة أن الجامعة بكونها كولاج (مجموعة) من الفصول والخبرات المختلفة؟

13. لماذا يبدأ الكتاب بالإشارة إلى رواية «قصّة مدينتين» لتشارلز ديكنز، تلتها إشارة أطول لبلد منقسم مليء بالتناقضات؟ اذكر المدينتين المتناقضتين التي ذكرتهما الرواية.

14. ذكرت سميث وأشارت إلى العديد من الكتّاب والأعمال الأدبية مثل: ويليام شكسبير وجون كيتس وجيمس جويس والدوس هاكسلي وجورج أورويل، اشرح ذلك، واذكر العلاقة التي تربطهم بالرواية.

15. اعتبر النقاد أن هذه الرواية هي أول رواية بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، ما معنى ذلك؟ وإلى أي مدى تغيرت إنجلترا بعد التصويت على خروجها من الاتحاد الأوروبي؟

16. في الرواية، ابحث عن الصور التي تم فيها تصوير الشجرة وناقش الأوصاف المختلفة. كيف يتفق تصوير الأشجار مع تيمة الخريف وتغير فصول السنة؟

17. عمّ تخبرنا الرواية بشأن أسلوب السرد القصصي؟ « هناك دائما، وسوف يكون هناك دائما قصص أكثر. هذا هو معنى القصة.»

آلي سميث

آلي سميث (1962-) مؤلّفة أسكتلنديّة، ومسرحيّة وأكاديمية وصحافيّة. وصفها سيباستيان باري بأنها «المؤلفة الأسكتلنديّة التي في قائمة الانتظار لجائزة نوبل». ألّفت خمس مجموعات قصصيّة وتسع روايات، من بينها (أوتيل العالم) و(العَرَضِيّ) و(المكتبة العامة وقصص أخرى). وصلت رواياتها أكثر من مرّة إلى القوائم القصيرة لجائزة المان بوكر وجائزة أورانج.

ميلاد فايزة

شاعر ومترجم تونسي. حاصل على شهادة الإجازة في اللغة والآداب العربية من الجامعة التونسية. مؤلّف بقايا البيت الذي دخلناه مرة واحدة (2004) ونُشرت ترجمات لشِعره بالإنجليزية والفرنسية والصربية، وظهرت في مجلات ودوريّات عديدة. يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية ويدرّس اللغة العربية في جامعة براون.

«الخريـف» رواية الزّمن بوصفه أفكارًا لا متسلسلة ومتطورة، بل متجاورة. ولهذا لا تقفز سميث فقط في مقطعها الزمنيّ إلى الأمام والخلف، بل إلى الجانبين أيضًا، تختبر صلة الأمور بعضها ببعض: الحيّ بالميّت، والحاضر بالماضي، والفن بالحياة. تكتب الوقت كما يحدث بما يحدث فيه، مثل بيكاسو الذي حاول في بعض لوحاته أن يرسم زوايا النظر إلى موضوع الرّسم كلها في لقطة واحدة. ولذلك يصعُب، في معظم روايات سميث، القبض على الزّمن (بترتيب فوضاه التي تنقلها لنا الكاتبة) للوصول إلى فهم كامل لما يحدث، ورابط صريح بين مواضيعها.

لُقبت بأبرز روائيّة بريطانيّة معاصرة، تقدم لنا سميث أوّل أجزاء روايتها الفصليّة (الخريف) تليها (الشتاء) و(الربيع) و(الصيف). نوديَ باسم هذه الرواية كونها أوّل رواية تصدر بعد انفصال بريطانيا عن الاتّحاد الأوروبي بما يُعرف بركست (Brexit) وأوّل رواية تناولت تأثير الانفصال على حياة البريطانيين.



آلي سميث (1962-) مؤلّفة أسكتلنديّة، ومسرحيّة وأكاديمية وصحافيّة. وصفها سيباستيان باري بأنها «المؤلفة الأسكتلنديّة التي في قائمة الانتظار لجائزة نوبل».

ألّفت خمس مجموعات قصصيّة وتسع روايات، من بينها (أوتيل العالم) و(العَرَضِيّ) و(المكتبة العامة وقصص أخرى).

وصلت رواياتها أكثر من مرّة إلى القوائم القصيرة لجائزة المان بوكر وجائزة أورانج.

إنّه العام 2016 في بريطانيا التي خرجت توًّا من الاتّحاد الأوروبيّ. الجميع في صدمة، والأمّة كلها، حسب المؤلفة، تعاني من ألم غريب. دانيال كلاك، رجُلٌ يبلغ من العمر 101 عام، مغنٍّ سابق، ينام طريحَ الفراش في المستشفى، ويحلم بشكل مستمرّ. تزوره بشكل منتظم فتاة في الثانية والثلاثين من عمرها، إليزابيث ديماند، التي كانت جارته في صِغَرها. أمّها لم تكن راضية عن علاقتها بالجار، فهي تعتقد أنه مثليّ، غير أنّ إليزابث أنشأت صداقة متينة معه، وتأثّرت بحواراتهما عن الفن والرّسم. وكنتيجة لذلك، باتت إليزابث الآن طالبة فنون تدرس سنتها قبل الأخيرة في جامعة لندن، وموضوع بحث تخرّجها يتناول فنّانة البوب-آرت التي تعود إلى عصر الستينيّات، وقد ماتت منذ مدّة طويلة، بولين بوتي (Pauline Boty) رمز النسويّة في السبعينيات، التي كانت حبيبة دانيال. تنتقل الرواية بين دانيال وأحلامه الطويلة بينما يقترب من حافة الموت، ولحظات استجماع إليزابث ذكرياتها عن جذور صداقتها به.

القائمة القصيرة لجائزة المان بوكر 2017

"نودي باسمها كأحد أكثر الأسماء إبداعًا في المشهد الأدبي البريطاني. تُثبت آلي سميث من خلال روايتها الأخيرة «الخريف» أنها في طليعة الروائيين الذين يُلاحقون تحوّلات الناس الاجتماعية والسياسيّة"

The Independent

"تحمل آلي سميث ذِهنًا رائعًا يفكّر بعمق... تُعالج في «الخريف» ببراعة وغرابة ما معنى أن تكون حيًّا في أوقات الظلام والاضطراب..."

The New York Times

"رواية رائعة مُثيرة للمشاعر، سمفونيّة من الذكريات والأحلام والوقائع المؤثّرة. إنها عن الحُزن الشّفيف الأبديّ الذي يكتنف الفانين..."

The Guardian

ISBN 9789948103356





روايات
REWAYAT